محمد حسن عبدالله

الشعلة... وصحراء الجليد

الناشر
مكتبة الشباب بالمنيرة

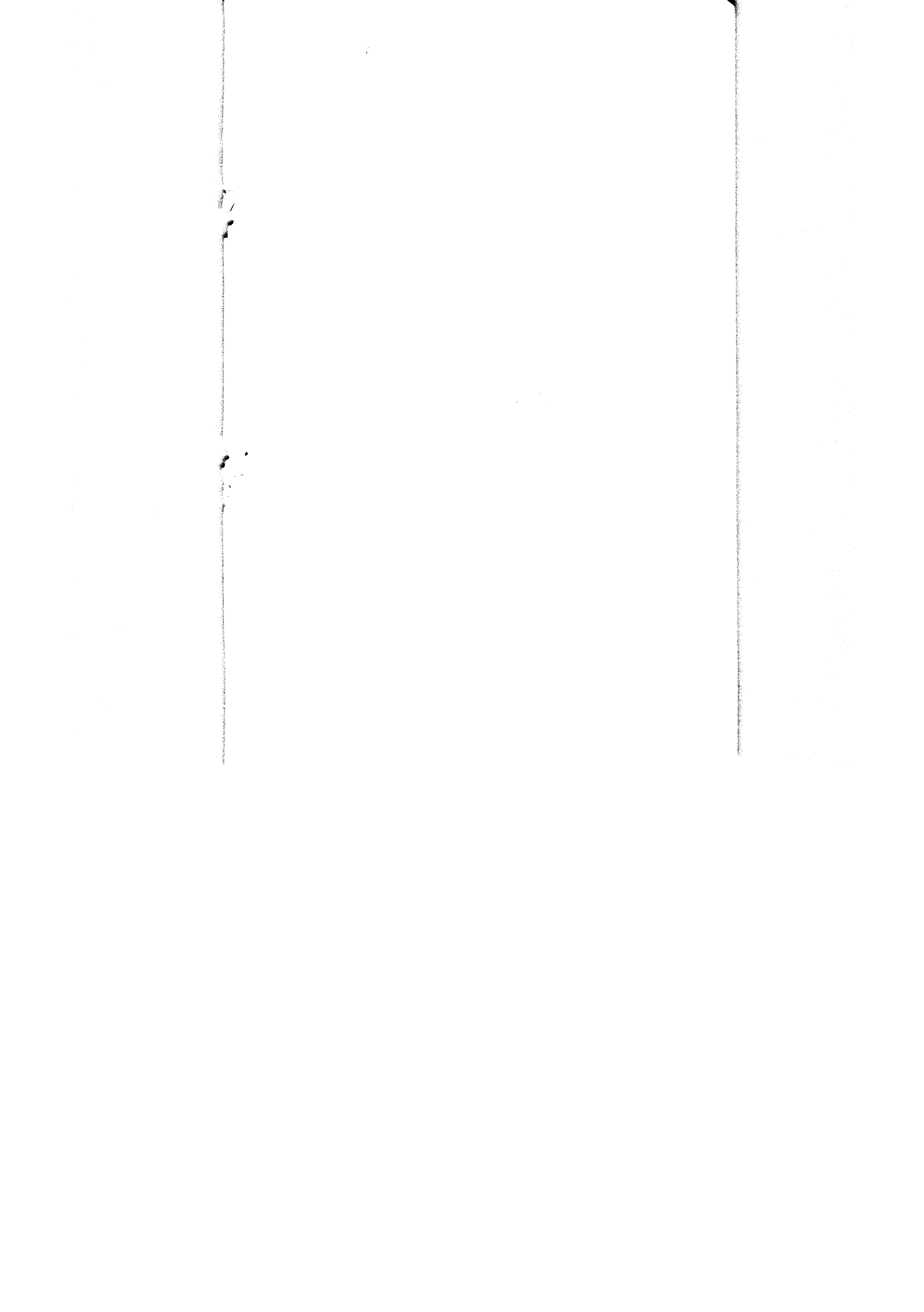
رقم الإيداع بدار الكتب ٣٣٤٩ / ١٩٦٩

المطبعة العالمية ١٦، ١٧ ش ضريح سعد بالقاهرة

الشعلة... وصحراء الجليد

لوحة الغلاف من ريشة الفنان
مجدى نجيب

فازت هذه الرواية بالجائزة الأولى والميدالية
الذهبية من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب



المؤلف :

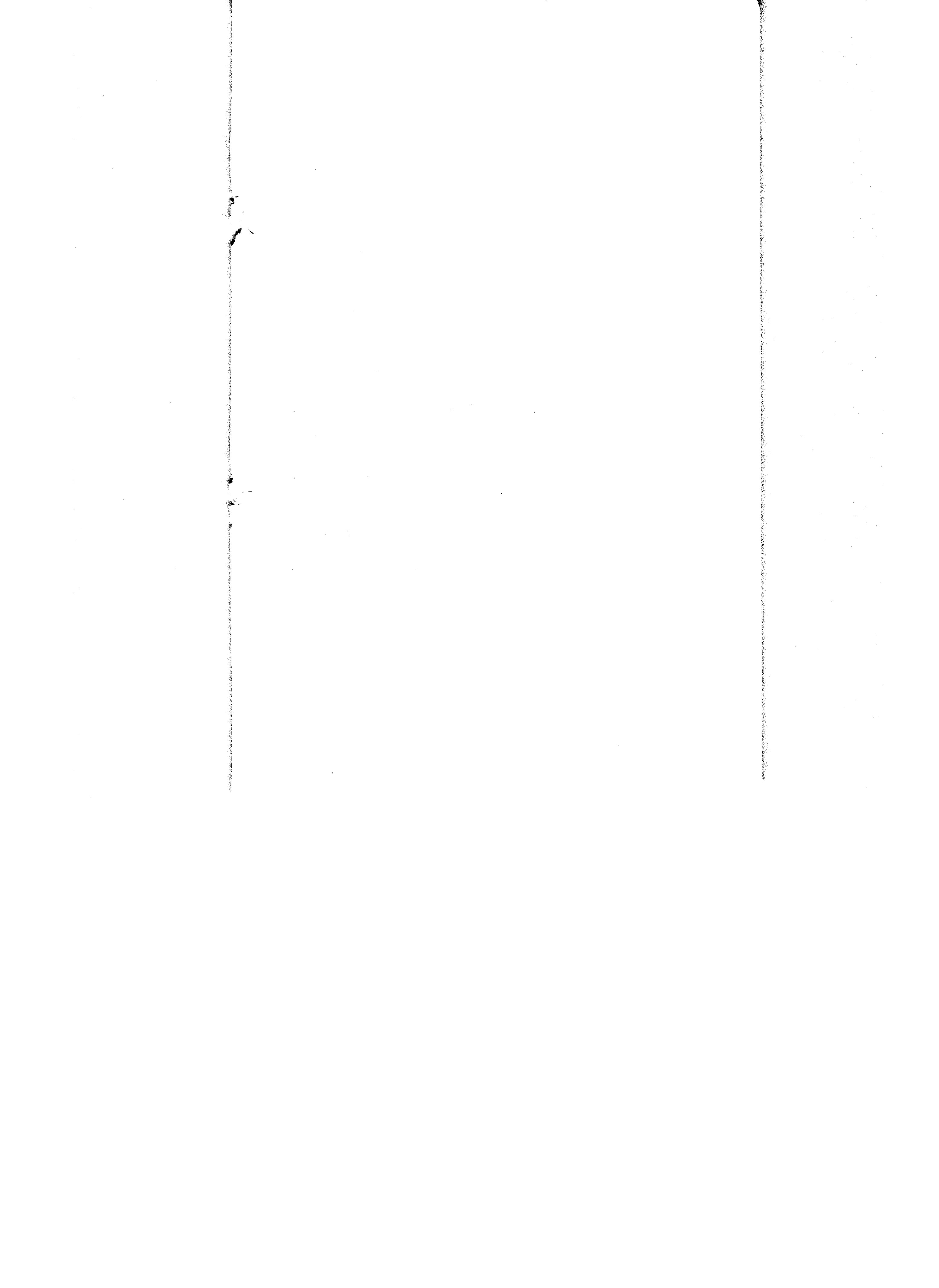
* فاز بالجائزة الأولى للقصة القصيرة من نادى القصة سنة ١٩٥٨ وكان ما يزال طالباً .

* فاز بالجائزة الأولى للرواية أيضاً سنة ١٩٦٥ عن هذه الرواية ونالت الميدالية الذهبية .

* نشرت قصصه القصيرة فى مجلات مصر والكويت ولبنان .

* نال درجة الماجستير فى الآداب عن بحث بعنوان « الريف فى القصة المصرية » .

* يعد رسالة الدكتوراه عن « الواقعية فى الرواية العربية » .



(١)

كانت القاعة الواسعة ذات المقاعد المتدرجة أطيب مكان للجلوس فى ذلك الجو الكئيب . . .

السماء عابسة لا تلمح على وجهها أدنى أمل فى ابتسامة ، والريح النشطة تلسع برمالها — التى حملتها من حديقة الكلية — وببرودتها أجسام السائرين فى الممرات .

من أجل ذلك أخذ الطلبة والطالبات يتوافدون على قاعة المحاضرة قبل موعدها بمجرد وصولهم إلى الكلية .

لم تكن الصفوف قد اكتمل نظامها . . كل داخل كان يختار المكان الملائم الذى يجد فيه بعض صحابه ، أو يتحاشى الجلوس إلى جانب النوافذ الذى من شأنه أن يفسد عليه استماعه . . وكان جو القاعة الفسيحة مشبعاً بهمهمات خفيفة رتيبة لا تنقطع . . تطفو عليه أحياناً ضحكة خشنة من هنا ، أو ضحكة ناعمة من هناك . وفى سماء القاعة تحوم سحابات خفيفة شهية الرائحة من دخان اللفائف ، الذى كان فى تلك اللحظات يوحى بالدفء والسكينة . ومع طول الانتظار للاستاذ المحاضر انطلقت كل جماعة داخل القاعة فيما يروق لها من لهو الحديث ، بعضهم يتبادل النكات تسمعه بهمس ، وهو يتلصص بنظراته هنا وهناك مطمئناً إلى أنها لا تصل إلى أسماع الجنس الناعم ، فإذا ما انتهت النكتة توالت الشهقات واغرورقت العيون بالضحكات المكتومة . . وبعض آخر يتبادل الحديث أو التعليق على خبر فى الصحف . . وبعض قليل — فى تلك اللحظات — قد فتح كتاباً .

أما الصديقان أحمد ماهر وزكريا ، فقد جلسا فى مكانهما المعهود . . هناك فى الصف الرابع فى المقعد الأول والثانى إلى اليمين . . فى وضع يتيح لهما مراقبة المقعد الأول والثانى من اليسار . . فى الصف الأول . وانصرف الصديقان إلى ما اعتادا الانصراف إليه فى مثل تلك اللحظات .

قال زكريا وهو يغيض عينيه فتبدوان خلف زجاج نظارته السميكة مثل عيون السمك .

— لم أنم ليلة أمس ! !

قال ماهر فى مرح وهو لا يحول عينيه عن باب القاعة وكأنه لا يعنى ما يقول :

— يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبداً . .

فقاطعه زكريا متضاحكاً وهو يسعل بخفة بين كلماته :

— وهل يزعجه ألا يذوق الهوى ! ؟ قل . . لا ذقت الفول ! ! لا ذقت الشعير ! ! لا ذقت الزيت الوسخ ! !

وحين وقع زكريا على كلمته الأخيرة انطلق الصديقان فى ضحكة طويلة ، بسط لها أحمد راحته فرفع زكريا يده فى الهواء موهماً إياه أنه سيصافحه ، وفى لحظة خاطفة هوى بها على صدغ صديقه فى صفعة خفيفة انطلق لها ضحكهما مرة أخرى . . واستعاد زكريا هيئته السابقة ، ولملم ثيابه وانكمش فى داخلها وهو يقول :

— حقاً . . لقد عذبنى البرد الليلة الماضية .

قال أحمد وهو لا يحول عينيه عن الباب .

— قل يا باسط ! !

وبلع زكريا ريقه بشىء من الصعوبة وهو يقول :

— قد لا أستطيع إذاعة المباراة اليوم ! !

فشهق أحمد محتجاً ، ونهض قائلا فى لهجة خطابية ، ويده ممتدة ، وأصبعه المتشنج يكاد يلامس أنف صديقه .

— العدالة عمياء .

— والفتنة نائمة .

— ولعن الله من أيقظها . .

— ومن أيقظنى ! !

ثم عاد زكريا فأغمض عينيه وانكمش فى ثيابه ، وكأنه يتأهب للنوم . ولكن

أحمد جذبه من كمه بعنف كاد ينخلع له كتفه ، وانحنى عليه فى توسل هامساً :

— هل تريد أن تضيع علينا الابتسامة اليتيمة التى أحظى بها طول اليوم ؟!

قال زكريا وهو يدير وجهه عنه :

— إننى أشعر ببرد ، ويجب أن نلغى المباراة لسوء الحالة الجوية ! !

— محال أن نلغى المباراة . . وهذا يومك . .

قال زكريا وهو ما زال يتماوت :

— قم أنت بإذاعة مباراة اليوم ، وأذيعها أنا يومين متتاليين ! !

فقال أحمد وهو يدارى غيظه ولا يجد مفراً من استعادة روح المزاح :

— ألا تؤمن بالعدالة ؟

— بعدالة الله . .

— وعدالة البشر ؟

— لا . . البشر . . بشر !! يؤمنون بالعدالة وبأى شىء إذا كان فى صالحهم .

قال أحمد متضايقاً :

— كفى فلسفة . . قم . . سيفوت الموعد وتضيع المباراة و . .

وصمت لحظة وهو يتمايل برأسه مراقباً باب القاعة ، ويحاول إنهاض صديقه المتماوت ثم قال فى حنق مكتوم :

— عليك اللعنة . . ضاعت الفرصة ! !

فارتجف زكريا وهو يفتح عينيه فى عجلة ودهشة قائلا :

— صحيح ! ؟

ثم نهض متعجلا ، ونظر إلى الباب ، وما لبث أن عاد إلى هدوئه ، وترك جسمه يتهاوى إلى المقعد فى استرخاء وهو يقول فى إهمال :

— إنها الشيرمان ! !

فقال أحمد مغيظاً :

— أنت وغد .

فوقف زكريا فى حركة عنيفه وقال بحدة :

— مادامت المسألة قد وصلت إلى هذا الحد فإننى . . فإننى . .

ثم لان صوته وصار كالغناء وهو يعط فى مقاطعة مستطرداً :

— فإننى . . سأتحدى البرد وأذيع باقى المباراة . .

فخفق قلب أحمد فى سعادة وحب .

وقفز زكريا من بين المقاعد ، وأخذ مكانه إلى جانب الباب وهو يرقب الطريق من خلف الزجاج ، ولم تمض لحظات قصار حتى التفت إلى صديقه هامساً :

— « الشينارو » .

وهمس أحمد لنفسه وملامحه تنبسط بابتسامة تغمر كل وجهه :

— « انتباه » .

وأسرعت دقات قلبه كأنه سيشهدها لأول مرة فى حياته .

وأقبلت تتهادى فى مشيتها الحية المضطربة ، ونظراتها جامدة على مواقع خطواتها . . وكأنها تخشى أن تضل الطريق . وما كادت تجتاز باب القاعة ، وترى زكريا خلف المصراع المغلق وترى وضع أحمد الرابض على حافة المقعد ينتظرها حتى ابتسمت ابتسامة صغيرة تائهة . . مترددة لا تنفرد لها شفتاها حتى تعودا إلى وضعهما .

واختلج قلب أحمد بقوة ، وهو لا يدرى كم من المرات شاهد تلك الابتسامة المترددة التى يتوه فيها . . ويتمنى أن تكتمل له أيضاً . . لو تنطلق على سجيتها فيراها ابتسامة عريضة سعيدة . . له وحده !؟

— « ما أشقانى وما أسعدنى !؟ »

وعندما سارت سامية داخل القاعة ، أسرعت خطوها كأنها تتعجل أن يواريها

المقعد عن العيون المتلهفة لرؤيتها . ونهضت فريدة لحيتها ، وبادلتها التحية بعينيها وهى تتزاح لها قليلا عن مقعدها المعهود .. الأول إلى اليسار فى الصف الأول . ونظر أحمد إلى السماء من خلال الزجاج .. وكانت داكنة مثقلة بالسحب ، فبدت متماوجة الألوان .. فيها نشاط وانسجام مثلما يحس فى نفسه تماماً .. وعاد بنظراته إلى صديقه الذى ما يزال واقفاً وراء الباب ، فوجده مستمراً فى مراقبة لقاء الصديقتين وهو يرمقهما بنظرات متطلعة سعيدة .

وتلاقت نظرات الصديقين فى وداد وحب ، وكان خيط النظرات الممتد بينهما يبدو لهما وكأنه يتلاقى فى نقطة وسطى .. تقع تماماً بين فريدة وسامية . وربما لاح هذا الخاطر لهما فى لحظة واحدة إذ ارتفعت شفاههما بانفعال خفيف ، وغامت النظرات ببوادر دموع وحاول كل منهما أن يهرب بعينيه إلى أى شىء . وتكاثر الطلبة حول باب القاعة ، فنظر زكريا من خلال الزجاج ، وعاد إلى صديقه يأخذ مكانه وهو يقول :

— أرجو أن تكون المباراة ناجحة ؟

ولم يعلق أحمد ..

وعاد زكريا يقول :

— البورصة فتحت !!

ونظر إلى زملائه وهم يتزاحمون على المدخل أمام الأستاذ فأردف :

— والعفريت قادم .. ها هم خلق الله يتبددون أمامه .

فقال أحمد :

— عينى ترف !!

— اللهم اجعله خيراً .

— ألم تلاحظ عليها شيئاً من التغير هذا اليوم ؟

— ربما كان السبب الشهرى ..

واستدرك زكريا إذ خشي أن يفهم من كلامه معنى لا يجوز التعرض له فقال :

— أعنى .. أننا فى أول الشهر وربما تأخر المصروف القادم من عند بابا فى الريف ، وخالتها على ما أعلم ليست على جانب كبير من الثراء .

فقال أحمد مدافعاً :

— ما أظن أن سامية تكتئب بسبب الفلوس .. ربما كان السبب هو أن راضى سيشرفها لمدة ساعة بالوقوف أمامها والتحرك مثل « الميكى ماوس » .

— والعياذ بالله .

ودخل الدكتور راضى بقامته المديدة وملامحه الدقيقة ، وبشرته الوردية الرقيقة كأنه مسلوخ ، وشعراته النائية فى جوانب رأسه ، وثيابه المتهدلة فى إهمال وفوضى ، وحيى الطلبة بحركة متشنجة من يده وجرى بعينيه فى استعراض سريع للصفوف الأولى ، بينما الهمهمات تختفى ، وسحب الدخان تتوارى .

ثم بدأت المحاضرة .

* * *

وقف الدكتور راضي فوق المنصة مديداً مثل عود القصب ، وقد ارتكز أطراف أصابعه العشر فوق المكتب الصغير أمامه. وكان رأسه الصغير ذو الشعرات المتناثرة يتحرك في بندولية رتيبة . وكان — تبعاً لذلك — تتغير زوايا انعكاس الضوء على زجاج نظارته مما يجعله يبدو لبعض الجالسين وكأنه يلبس نظارة بعين واحدة .. وأحياناً كأنه بلا عينين .

وربما ابتسم البعض لهذه الصورة الغريبة ، ولكن الدكتور تجاهل هذه الابتسامات الخبيثة ، ونقر بأطراف إصبعه فوق المكتب ، ثم وضع يديه حول خاصرته ومشى فوق المنصة في حركة عصبية ، وقال بصوت كأنه مجموعة تتوالى من الفرقعات .. وكأنه يكمل حديثاً بدأه من قبل ، ربما بدأه في خاطره ونسي أن ينطق به .

— لا تعني الحركة المسرحية الحركة الآلية ، فربما كانت الحركة كلاماً أو ابتساماً أو حتى صمتاً .. وإذا لم تشتمل المسرحية على نوع من الحركة النامية فإنها تفتحر أمام الجمهور .

وهدأ الدكتور من انفعاله المحتشد ، وكانت زفراته المتقطعة اللاهثة ، نوعاً ما تخرج من فمه محملة ببقايا دخان اللفافة التي ألقاها منذ لحظات .. وكان منظره ، ثم طريقة حديثه عن انتحار المسرحية داعياً لبعض الخبثاء في نهاية القاعة الواسعة أن يمصمص بشفتيه في أسف مصطنع مضحك ، فتكاثرت الابتسامات على الفور ، مما حمل الدكتور على التوقف ، وأجال نظرات غضبى بين الصفوف ، فعاد الصمت المطبق يغلف المكان ..

وعاد الدكتور يقول :

— وبالمناسبة لي تعليق على هذه الشعبة من شعب الليسانس .

لحماق الطلبة فيه وكأنهم يتحدونه أن ينتقدهم ..

وعاد يقول :

— العجيب فى أمر هذه الشعبة أن بعضكم تكثر حركته وتنقلاته حتى تصير فوضى ، وبعضكم صامت ساكن حتى ليوصف بالجمود !!

فتبادل أحمد وزكريا نظرة ذات معنى ، فى وقت تبادلت فيه سامية وفريدة مثل هذه النظرة . وعاد الدكتور يتساءل :

— هل لهذا من سبب ؟ ؟

وساد الصمت . .

فعاد الدكتور يسأل :

— ألا يعرف أحدكم سبب ذلك ؟

فألقى زكريا إلى صديقه بنظرة ماكرة ، ثم وقف فى انفعال واضح يحاول أن يستره حين قال بلهاث خفيف :

— إذا انتقلنا بالحديث إلى مجال العمل المسرحى ، فإننى أستطيع تعليل ذلك !!

فامتعض الدكتور قليلا وتقلصت ملامحه ، ولكنه أخذ يصلح من وضع رباط عنقه وهو يقول :

— لا بأس . . بل لعل هذا أفضل .

— شكراً .

وانطلقت بعض الضحكات الخافتة من صفوف الآنسات ، ولكن زكريا لم يلق إليها بالا ، ومضى قائلا فى قوة زاخرة تجعل كلماته تبدو كحقائق مسلم بها .

— المخرج . . المخرج هو سبب الفوضى !!

وصمت قليلا ليعد الفكرة فى ألفاظ متسقة ، ولكن صمته أعطى كلمته هذه مغزى خاصاً ، وأضاف .

— إن الإخراج هندسة ذهنية ، ولكن التمثيل تجسيم عاطفى . . فالعمليتان مختلفتان . ولذلك أرى . .

فقاطعه الدكتور قائلا بشىء من السخرية :

— لقد بعدت بنا !!

— دعنى أكمل يا سيدى .

والتفتت صفوف الآنسات إلى زكريا ، مما حمل الدكتور على التحدى قائلا:

— لا .. إنك تبعد بنا عما نريد .

فجلس زكريا غاضباً وهو يدور بجسده يميناً ويساراً ، وكأنه يحاول — لأول مرة — إقناع الجالسين بوجاهة رأيه .

وتطلع أحمد من خلال الصفوف إلى سامية ، فلم يرى إلا ذؤابات شعرها الفاحم ، تداعبها بعض النسمات النشطة التى تتسلل من الباب . وكانت ترتكز بخدها على راحتها .. فبدت له أصبعها الخالية التى يتمنى يوماً أن يطوقها بالذهب فيربطها به ، وهنا توهج إحساسه ، وتفجرت عاطفته المحروقة الكامنة ، فوقف على مهل يقاوم به انفعاله ، ويداه فى جيبى سترته ، وقال بهدوء :

— أرجو أن تسمح لى بالإجابة .

فتمايل رأس الدكتور فى حركة تمثيلية ، وهو يقول بسخرية :

— إذا أخرجت يديك من جيب السترة فإنى أسمح لك !!

فأخرج أحمد يديه فى عجلة وهو يتمتم آسفاً بحق..

— معذرة .. معذرة ..

— تفضل .

والتفتت سامية إلى الخلف قليلا ، فالتقت عيناها بعينى أحمد فى نظرة خاطفة ، تكهرب لها جسده فى ارتعادة خفيفة . فقال بقوة :

— الغرض مرض .. والحقد آفة العدالة !!

فأمسك الدكتور بطرف ذقنه بين إصبعيه فى حركة تهكمية ، وقال ساخراً :

— ياسلام على الحكم .

وضجت القاعة بالضحك ..

ولكن ثلاثة أفواه لم تضحك .. بل أربعة .. الدكتور راضى نفسه لم يستطع أن يضحك من الموقف الذى يحاول أن يهدمه ، بعد أن رأى ملامحه .. لقد كان يعانى غلياناً قاتلا .

وقال أحمد محتجاً ، وهو يحاول بقوة أن يحتفظ بيديه إلى جانبه :

— لقد قال أرسطو فى المناظرة ، إقض على جدية خصمك بالسخرية ، وعلى سخريته بالجد ....

ولكننى لست خصماً ياسيدى .. إننى أجيب بناء على طلبك ..

فرمقه الدكتور بنظرة تحية ماكرة . وقال :

— إننى لا أسخر منك .. فقط .. أعجبتنى حكمتك ..

— شكراً ، وأرجو أن أواصل حديثى ..

— هل أنت مصر على ذلك ؟

— إذا سمحت .

فقال الدكتور فى نفاد صبر :

— تفضل .

— سأختصر ما أمكن .. المخرج .. بل كل من يسيطر على عمل ما ، يجب أن يتنزه عن الغرض وعن الحقد .. إذ اتخذ المخرج موقفاً عدائياً لغرض شخصى من أحد الممثلين ، لابد أن يحاول تعويقه وإفساد مجهوده ، وتجميده على المسرح .. بينما يسرف فى إسباغ الحركة والنشاط على شخصيات أخرى .. فتكون النتيجة فوضى فى جانب ، وجمود فى جانب آخر ..

كان استعمال كلمات الفوضى والجمود ، وهى نفس الكلمات التى استعملها الدكتور راضى فى وصف حال قاعة المحاضرات ، يعطى حديث أحمد مغزى خاصاً أدركه كثير من زملائه ، وزميلاته .. لكن أحمد لم يكن يهتم بكل أولئك .. كان يريدها هى وحدها .. فى سبيلها يعشق القوة ، ومن أجلها يعبد لحظات النصر . وفهمت سامية ما يعنيه ، وما يعانيه ، وتنزى قلبها بالأسى له ، وتمنت لو تستطيع أن تضع رأسه على صدرها ، تهدهده ، وتكفكف من حدته . ونظرت إليه فى ضراعة ، لكنه فى اندفاعه واستماتته فى النقاش لم يلاحظها . ووقف الدكتور جامداً ، يداه فى جيب سرواله ، وقسماته مرتخية متخاذلة ، لا يتحرك فيه شىء سوى قدمه القلقة التى تنبىء عما يعانى .

وعاد أحمد يقول :

— يجب أن ينظر الممثل إلى المخرج نظرة الطفل إلى والده .. يؤمن بصدقه ، وبقدرته وبنزاهة توجيهه ، لكن .. لكى يتم ذلك يجب أن يكون المخرج أباً بالفعل .. يعدل بينهم ويعطف على فنهم ، ويعلو فوق الحزازات والأحقاد الصغيرة ، حينئذ لن يكون هناك فوضى .. أو جمود .

وجلس أحمد متهالكاً ، وانتبه الدكتور لصمته ، وعاد السكون يغلف القاعة ، فحلق الدكتور فى صفوف الآنسات قائلا وعلى فمه محاولة ابتسامة :

— هل من تعليق :

فزاغت نظراتهن المرتبكة .

فانطلقت نظراته إلى صفوف الطلبة تحمل نفس السؤال ، ولكن أحمد لم يتحرك ، فابتسم ابتسامة باهتة ، وارتجف جسده ارتجافة خفيفة وقال :

— ليس لى إلا تعليق بسيط .. من الناحية الفنية البحتة لا نجد فى كلام زميلكم كثيراً من التعليل الناجح للحالة التى وصفتها وأظن أنه يتكلم من خلال تجربة شخصية تسيطر على أفكاره ، وإنى أرحب بأن أسمعها منه ، وأرجو أن يقابلنى بعد انتهاء محاضرات اليوم .

قال ذلك ، وأخرج يده من جيب سرواله ، وانطلق خارجاً كأنه يفر من كابوس .

وعلى الفور ارتفعت الهمهمات من جديد ، وبدأت خيوط الدخان الأبيض اللذيذ الرائحة تسرى فى جنبات القاعة . ولكن أربعة لم تنطق شفاهم ، وأن امتلأت قلوبهم بضجيج العواطف المتضاربة .

* * *

— كان لابد أن أثأر .. لم يعد الأمر خافياً على أحد ..

قالها أحمد ماهر وهو يكاد يعدو فى مشيته نحو نادى الـكلية ، وبقايا لفافة أخذها من صديق تنضغط بين إصبعيه المتجمدتين بالانفعال ، وأنفاسه تخرج مع كلماته متقطعة محتدة ..

— قال زكريا مهدئاً وهو يتشبث بذراع صديقه ولا يكاد يلاحقه :

— إنك تبالغ فى مشاعره نحوها .. إننى أشك كثيراً فى أن الأمر بلغ مرحلة التفـكير فى الزواج ..

— ليس الزواج ..

وتبادل الصديقان نظرة حزينة مستنكرة ، وترك أحمد بقايا اللفافة تسقط من بين أصابعه وقال فى أسى عميق وكأنه يعترف أمام كاهن :

— هل أنا أنانى ، أو مجنون .. إذا حرمت على الناس المتعة النفسية بالتى أحبها ؟ إننى أغار من نظرات الطلبة إليها ، كأنما هذه النظرات تجردها من ثيابها، كأنها إبر تنغرس فى جسدى .

— ليس المهم هذه النظرات .. المهم هى ..

جمدت عينا أحمد ، وتوقف عن السير ، وقال وهو يعتصر ذراع صديقه فى يده ، ونبراته تشى بغيظ مكبوت :

— هى ؟؟

— نعم .

— وهل تأكدنا من شىء ؟ إنها تنافس أبا الهول فى الصمت .

— لـكنها تحبك .. وأقسم لك .

— عليها اللعنة .. أليس لها لسان .

وقاطعه زكريا واضعاً يده على شفتيه وهو يهمس .

ـــ صه .. الشيرمان .

والتفت أحمد فرأى فريدة مقبلة ، بمعطفها الرمادى الهائل ، الذى يزيد قدرها ضخامة وجلالا ، وإن لم ينقص من حسنها ، وبادرها أحمد متسائلا :

ـــ أين رفيقتك ؟

فردت فى سخرية خفيفة من عجلته فى السؤال عنها :

ـــ ألا تترك لى الفرصة لأقول صباح الخير ، إننى على أى حال لم أزكها بدون (البزازة) ..

فاستخذى أحمد قليلا ، وعاوده هدوءه ، وحاول السيطرة على أشجانه الجامحة به ، ورغب فى تحويل مجرى الحديث عن تلك البداية التى وشت بلهفته وحبه ، فقال ممازحاً صديقه :

ـــ أحسن لقاء صديقتنا وخل عندك ذوق .

فابتسم زكريا ابتسامة عريضة وهو يقول مرتبكا :

ـــ معذرة يا فريدة .. لقد كنت شارداً .

فقالت وهى ترمقه بنظرة حب هائمة ..

ـــ فيمن ؟

ـــ هـه .

قالت بخبث :

ـــ من قال هـه فقد سمع ..

ـــ أ .. فى .. فى .. ليس فى أحد .. إن الشرود لحظة ضياع ، فناء فى المجهول ، فهل أسأل عن مكان الضياع والمجهول :

فقالت بلهجة ذات مغزى :

ـــ لا .. إنه ضائع مجهول ..

وفهم أحمد ما تعنيه كلمات زميلته فقال متداركاً :

— أنت زميلة كريمة ، وكلنا يعرف قدرك ويحترمك ..

وانكشف لزكريا مرمى كلامها ، فقال مجاملا :

— أنت عندى فوق مايقول أحمد .

فاحتضنت كتبها فوق صدرها وتراقصت فى وقفتها جذلا ، ولكنها لم تستطع أن تتكلم .

وقال زكريا :

— هيا نكمل طريقنا إلى النادى ، أو نعود إلى المحاضرة .. لقد أوشك موعدها ..

فقال أحمد :

— لن أدخل أى محاضرة اليوم .

وأيدته فريدة بحركة من رأسها ، وهى ما زالت تحتضن كتبها ظناً منها أن زكريا لن يذهب هو الآخر ، ولكنه قال :

— سأسير معكما حتى النادى ، ثم أعود .

وبعد لحظات كان زكريا عائداً إلى قاعة المحاضرات وهو يتفكر فيما حدث هذا اليوم ، وكان موقفه من تلك الأحداث يظهر جلياً فى عينيه الكامنتين خلف النظارة .. وفى قسمات وجهه التى تنتقل من الجمود إلى الثورة إلى الحيرة إلى البلادة . . لكنها أبداً لا تنم عن لحظة ارتياح !! وتفكر فى صديقه ، الذى يعيش على حب محروم ، ويغذيه بدمه وأعصابه وهو لا يجنى منه إلا الشوك ، ولكنه قال فى نفسه : « ولو .. إنه سعيد بذلك ، وأى إنسان يتعلق بتلك الجنية لابد أن يشقى بها .. لكن شقائى من لون آخر !! ربما لو كفت فريدة عن تبذلها ومطاردتها تصلح أمرى معها .. لكن ما هكذا الحب !! ألا تتعلم من صديقتها ! ؟ أو .. ألا تتعلم صديقتها منها فنستريح ؟ . وما كاد يواجه باب القاعة الفسيحة حتى رأى سامية جالسة فى مكانها المعهود ، وقد وضعت حقيبتها الصغيرة إلى جانب الكتب ، واعتنقت أصابعها الرقيقة فوق صف الكتب ، ثم ألقت برأسها بين

يديها .. وتطلع إليها زكريا ، وحامت نظراته حول المواقع المكشوفة من بياض وجهها المشرب بحمرة رائقة ، وقد تهدل الشعر الأسود من حوله ، وأحس بصدمة خفيفة ، وذهب خياله إلى فريدة الجالسة فى النادى مع صديقه ، وهتف من قلبه :

« أقدار » .. ثم واصل طريقه .. لكنه حين وصل إلى مكانه المعهود ، واستقر فيه لم يملك نفسه من إرسال نظرة حزينة إلى مكان صاحبه الخالى إلى جانبه ، ونظرة أخرى تائهة إلى مكان فريدة الخالى إلى جانب سامية . وراوده خاطر ابتسم له نصف ابتسامة توشك أن تكون انقباضة حزن .. وتشعبت عليه الخواطر ولم ينقذه إلا دخول الأستاذ المحاضر .

أما فريدة فقد جلست مع أحمد فى ركن من أركان النادى ، يحتسيان الشاى الساخن ، ويدفئان أيديهما على جوانب الأقداح الدافئة . وكل منهما يفكر فى عالمه الخاص ، ويحاول أن يعثر على نقطة بدء .

قال أحمد بصوت راعش :

— لم أكن أستطيع دخول المحاضرة .

— ولا أنا .. لقد كاد رأسى ينفجر هذا اليوم .

وصمتت قليلا ثم أضافت :

— ولكن .. هل كنت على حق ؟

فقال أحمد متحفزاً ، وكأنه يدافع عن نفسه أمام اتهام :

— وهل كان هو على حق حين عرض بى وبصديقى ، وبكما أيضاً ؟ ألسنا نحن الذين لا نتقل من أماكننا ؟ ؟ فبأى حق وصفنا بالجمود ؟ وإذا كان ذلك صحيحاً أليس هو سببه ؟

— إنك تبالغ فى أهميته .

قال أحمد ثائراً :

— كلكم تتهموننى بالمبالغة .. هكذا خلقنى الله ..

قالت مهدئة وهى تقترب بكرسيها منه ، وكأنها تحاول الحصول على مزيد من ثقته .

— إننا أصحاب قضية وكل ما يهمنا هو نجاحها .. إن موقفى مثل موقفك .. أنت أخى وتعرف كل شىء .. ويجب أن نبعد هذا الموقف عن كل ما يفسده . والدكتور راضى ليس شخصاً خبيثاً .. إنه مهووس فقط .. فيه شعرة جنون ..

— وهل ينصب جنونه علىَّ .. لماذا ؟ لأنه ليس لى لسان أصفعه به ، ألا يعرف أننى أحب زميلتى ، وأننى بحكم الزمالة على الأقل أولى بهذا الحب .. منه هو العجوز المراهق ..

فضحكت فريدة من ثورة زميلها ، وقالت مهدئة :

— ليس عجوزاً من فضلك .. إنه فى الأربعين .. أو أقل .

— لا يهم .. إنه شخص وقح حين يستغل سلطات الأستاذية فى محاربتى ، إنه يعرف أننى أحبها .. وربما هى تحبنى ، لماذا لا يكف عن الوقوف معها أمامى فى حديقة الكلية ؟ ولماذا لا يكف عن استدعائها إلى حجرة مكتبه ؟ ولماذا ..

— كفى ياصديقى .. لقد أزعجت نفسك .. ألست أنا معها فى كل ذلك ؟ فلماذا تنحى باللائمة عليه من أجلها .. ولا تحس بى ؟

وأحس أحمد بخجل شديد .. إن الحقيقة الواقعة فى صف فريدة .. فكلتاهما زميلة تقف مع أستاذها وتذهب إلى مكتبه ، فإذا كان ذلك مخجلا فإنه كذلك بالنسبة لهما معاً .

وتفكرت فريدة : « ما أسعد سامية بك يا أحمد .. ها أنت تغلى من أجلها وهى جالسة فى المحاضرة لا تدرى .. لكنى التعيسة التى كتب عليها أن تغازل حبيبها فلا يستجيب ، لقد تركنى هو الآخر إلى المحاضرة » ..

وقال أحمد متأسفاً :

— معذرة .. إنه يفعل ذلك لأنه يعلم بحبى لها .. والناس مختلفون فى طباعهم وطرق تناولهم للأشياء ، فزكريا يحبك حقاً ، لكنه يتظاهر بعدم الحب ، ولايسمح لغيرته أن تظهر . أما أنا . . فكما ترين . . وراقت لها كلمة أحمد ، ولكنها قالت ، كأنما لتستزيده من التأكيدات :

— إن زكريا لا يحبنى ..

فرمقها أحمد بنظرة حاول أن يوارى ما فيها من غيظ :

فعادت تقول :

— بكل هذه الثقة أنت متأكد ؟

فقال وصدره يرتجف بضحكة مكتومة يحبسها :

— نعم ..

ونظرت إليه متشككة فأردف :

— إنه صديقى منذ التحقنا بالكلية ، ونسكن معاً منذ عامين .. منذ استيقظت عواطفنا نحوكما .. فكلانا يعرف صاحبه حق المعرفة وبدا له أنها استراحت ، فقال كلمته التى من أجلها أضاع المحاضرة ، ومن أجلها استسلم للعواطف المحمومة التى تجيش بها فريدة ، قال :

— لم تحدثينى .. ما هو صدى كلامى فى المحاضرة عند سامية ؟

قالت وهى تعتدل فى جلستها :

— أنت تعرفها .. قالت : لقد أخطأ فى هجومه على الدكتور وتعريضه به ، ما عسى أن يقول الطلبة عنا ؟!!

وتملكت أحمد ثورة عنيفة ، وقال مهتاجاً .

— الطلبة .. الطلبة .. عليهم اللعنة جميعاً ، وعليها هى أيضاً ..

ألا تستطيع أن تتحرر من سلطان الناس ؟ ألا يوجد مكان للنظفاء فى هذا العالم ؟ ألا نستطيع أن نخط تقليداً جديداً ؟

وأقبل عليه أحد الزملاء قائلا . وهو يربت على كتفه من الخلف :

— مالك هل تخطب فى الجماهير .. ترفق بنفسك .. مبروك ..

ماذا ؟

— مبروك .. هكذا تقول برقية باسمك معلقة على لوحة الإعلانات ..

* * *

استراح الدكتور راضي قليلا عندما وجد استراحة الأساتذة خالية، فدخلها ، وقبع على مكتبه فى ركنها وضغط الجرس ، وطلب الشاى . ثم أشعل لفافة ، وطلب من الساعى إغلاق الباب .. وأخذ يتسلى بمراقبة البخار الصاعد من فوهة قدح الشاى، وسحب الدخان الرمادية المتصاعدة من اللفافة ، وتأمل الدخان فى تصاعده السريع .. وتبدده مخترقاً سحب البخار المتثاقلة ، فبدا له خاطر غامض لم يلبث أن غمغم له :

— شبه ظاهرى .. ولا يمكن أن يتمازجا .. السرعة والحرارة . ثم التكاثف والبرودة .. أليس هذا سر متاعبى ؟

وأخذ نفساً عميقاً من اللفافة فتوهجت فى جنون ، وراق له منظرها وهى تكاد تفنى فى فمه ، فأوغل فيه ، ثم زفر زفرة طويلة ارتاحت لها نفسه ، ثم رشف من القدح رشفات متوالية فانساب السائل الدافىء فى حلقه ، ممتزجاً بنكهة الدخان ، وانسل إلى جوفه فشعر براحة عميقة ، كأن الدفء يكتسح الآثار السيئة التى تركتها المحاضرة فى نفسه .

واحتضن القدح الدافىء براحتيه ، فسرى الدفء فيهما ، وبلغ به الارتياح غايته ، فعاد يفكر بعدها فيما حدث أثناء المحاضرة .

وأصاخ بأذنه قليلا وكأنه يلتقط صوتاً يأتيه من بعيد وراح يتساءل :

— ماذا سأقول له عندما يأتى ؟ .. ترى هل أخطأت فى استدعائه ؟ لقد كان شجاعاً غير هياب .. وأحس بلذة مؤلمة وهو يتذكر النقد الذى وجهه أحمد للمخرج ، أو له ، حين اتهمه بالغرض وبالحقد ، وافتر ثغره عن ابتسامة مائعة لا تخلو من اشمئزاز وهو يهمس لنفسه :

— « يا سلام على الحكم » .. ما كان أسخفنى فى تلك اللحظة .. وما كان أسخف نكتتى ! ، والعجيب أن الطلبة ضحكوا لها ؟ لكنها لم تضحك .. إنها

تحبه .. أما هو .. إنه لايحبها إنه يعبدها ، يتلاشى فيها .. فماذا هو فاعل لو رأى ما فى درج مكتبى .. ؟

وهنا عادت له عصبيته بعض الشىء ، فازداد ضغط راحتيه على القدح البارد ، وتحركت قدماه أسفل المكتب حركة مضطربة متشنجة ، وقال فى نفسه : لو أن لسانه زل معى مرة أخرى فسأسحقه .. أنا الأستاذ وأعرف واجبى !!

وابتسم ابتسامة صفراء لهذا الخاطر ، وتطلع فى ساعته ، فوجد الوقت قد مضى سريعاً ، والمحاضرات قد انتهت ، وأحمد لم يحضر إليه ، كأنه لا يعترف بخطئه ، كأنه لا يجد الدكتور جديراً بأن يسعى إليه ، كأنه يتحداه ، أو ربما كان خائفاً من مواجهته !! واستراح الدكتور لهذا التعليل الأخير قليلا ، فأعد حقيبته ، وألقى بها إلى جانب عجلة القيادة ، وانطلق بسيارته ، لا يكاد يرى الطريق لكثرة ما أمام عينيه من أطياف الأفكار .

وعندما كان يصعد سلم (الفيلا) رأى نور (الصالون) مضاء فخمن على الفور المناسبة التى استدعت ذلك ، وما لبث أن أهل على الجالسين مصافحاً بينما حيى زوجته بإنحناءة خفيفة ، محاولا أن يخفى الانفعالات التى كانت تفيض بها نفسه .

— لقد أوحشتنى لياليك يامستر براون .

قالها الدكتور راضى بلهجة حاول أن يحملها معنى الصدق .

فقال الصديق الآخر .

— لقد قلت يادكتور ما قلته أنا بالضبط ، إن المستر براون يجب أن يتخلى عن بخله ويقيم لنا أكثر من حفل سنوى .

فقال براون ضاحكاً ، وقد اهتز غليونه فى زاوية فمه مما حمله على الإمساك به ..

— وماذا أفعل ؟ إن ملكتى لم تجلس على العرش إلا مرة واحدة .. وفى ذكرى جلوسها يحق لكم أن تنهبوا من مالى ما تشاءون .

وانطلق الجميع فى الضحك ، ثم سأل الدكتور زوجته :

— هل قدمت القهوة .

فردت فى شىء من البرود :

— كلا .. إنهما قدما الآن فقط .

فقال مستر براون :

— لا حاجة بنا إلى القهوة ، إنى سأذهب لأدعو ناساً كثيرين . ولست فى حاجة إلى قهوتكم .

وعاد الجميع يضحكون .

وقام الدكتور إلى حجرته ليضع حقيبة الكتب .

وقال براون فى جد طارىء :

— ماريا ! ! ماذا حدث للدكتور ؟ إنه شاحب أكثر مما ينبغى ، وكان يفتعل الضحك ويبالغ فيه !!

فتراقصت عيناها الصغيرتان فى حيرتهما بين الزائرين وقالت فى غير اهتمام :

— لا أدرى .. لقد قبلنى فى الصباح كالمعتاد ..

— ألم يحدث بينكما شىء ؟

— كلا ..

ثم أردفت :

— لقد سمعنى منذ يومين أنادى طفلى « ماسى » فغضب ، وضرب الخادم حين سمعها تناديه مثلى ، وأمرنا بأن نناديه مرسى لأنه — كما قال — يعتز باسم أبيه ؟ !

— هل فعل ذلك من قبل ؟

— كلا .. على أنه ينادينى (مى) لقد غير اسمى منذ قدمنا من انجلترا .. لكنه كان يجاملنى كثيراً .. أما الآن فإنه لا يخطىء أبداً .

— اظهرى الاهتمام به .. لعل عنده ما يرهقه .

— لكنه أيضاً أصبح يرهقني .

وعاد الدكتور فوجد ضيفيه يتأهبان للانصراف ، معتذرين بأنهما سيمران على منازل كثيرة لدعوة الأصدقاء للحفل السنوى فى السفارة .. ثم إلى حفل خاص فى منزل براون الملحق الصحفى بالسفارة الإنجليزية وصديق الدكتور .

وخرج الدكتور فى وداعهما إلى الباب الخارجى ، ثم عاد إلى مكتبه دون أن يبادل زوجته حديثاً . وأغلق عليه الباب ، وألقى نظرة عابرة على الحائط المواجه له، فتعلقت عيناه بصورة تذكارية له هو وزوجته — لم يكن قد تزوجها بعد — كانا بثياب التزحلق على الجليد ، وعلى قسماتها ابتسامة طفلية سعيدة ، وقد أدهشته ثياب التزحلق التى يرتديها لأول مرة ، وكانت هى التى هدته إلى هذه الرياضة ، ولقنته دروسها النظرية الأولى . . وأثناء هذه الدروس . . تحول من ساكن مقيم مع أسرتها إلى عاشق مدله ، كانت هى أضبط منه أعصاباً وأهدأ عاطفة ، لكنه ، بطبعه الحار وعصبيته الثائرة . . اندفع فى حبها . . إنها رمز حياته الجديدة ، وإنه يحب هذه الحياة . وعاد ينظر إلى الصورة . . لقد كانت تصلح وضع الحزام على وسطه ، واليد الأخرى تكاد تحيط به وكأنها تحتضنه ، لقد كان لهيب عواطفها يطغى على الجليد تحت أقدامهما ، وتأكد له فى تلك الأيام أنه لن يستطيع أن يحيا بدونها . .

وعاد من استرساله على حركة الباب،الذى أطل منه طفل صغير فى الثالثة ، دقيق التقاطيع ، أخذ عن أمه الشعر الأشقر والعيون الفيروزية المستديرة الصغيرة ، وأخذ عن أبيه الجبهة البارزة الكبيرة . . كأنما ركبت خطأ فى رأس صغير !!

وما كاد الدكتور يلمح ابنه حتى ابتسم له ، وقام فحمله بين يديه قائلا :

— أهلا ماسى .

وتوقف عند الكلمة الأخيرة متفكراً . . ماسى . . مرسى . . إذا كنت لا أعرف أيهما تكون . . فهل تعرف أنت ؟ !

يا لك من طفل مسكين !!

وازداد التصاقاً بطفله وهو يتذكر والده . . الشيخ مرسى . . الذى سمى ابنه

على اسمه .. فبدت له صورته القديمة بجلبابه الكشمير الفضفاض الذى انفرج طوقه عن صدر قوى ملىء بالشعر الأشيب الجليل ، وعمامته الناصعة الكبيرة التى كانت تظلل جبهته الناتئة .. ثم عاد إلى ابنه فى قسماته الدقيقة وعيونه الفيروزية .. ثم ألقى نظرة على الجليد ، وخرج من الحجرة وصدره يجيش بعواطف شتى .

وعندما رأته ماريانا وقد حمل الطفل أقبلت نحوه وقالت فى حنان خفيف:

— الغداء معد .

فقال الدكتور فى تجاهل :

— هيا بنا .

وفى المساء ذهب الدكتور وزوجته إلى السفارة ، ورفعا تهانيهما إلى ملكة انجلترا فى عيد جلوسها ، وبدأ الرقص والشرب ، ورقصت ماريانا مع براون ومع كثيرين غيره .

ولكن الدكتور كان عازفاً عن كل ذلك ، وكان يتأمل الراقصين الذين ازدحمت بهم الصالة الواسعة وكأنه لم يشهد هذا المنظر من قبل، ولم يسهم فيه عشرات المرات .

لكنه حين دار الشراب ، أسرف فيه حتى أخذ يهذى ببعض الشىء ، وتنبهت امرأته إلى ذلك ، فاصطحبته إلى السيارة ، ووضعته إلى جانبها ثم جلست إلى عجلة القيادة ..... وكلمات هذيانه ، ما تزال تتردد فى أذنها :

— لماذا أحقد عليك يا أحمق ؟ إنى أريد أن أعيش .. فقط أعيش ، فى غير غربة عن نفسى .. ، لقد تحول بيتى إلى ما يشبه بيوت الزجاج لتربية النباتات الغريبة .. فهمت يا أحمد افندى .. إنك ذكى .. وستفهم .. وليس فيكم غبى غيرى ..

* * *

كان أحمد واقفاً في حمام مسكنه الصغير الذى يتقاسمه مع صديقه زكريا ، وكان البخار الدافىء يتصاعد فى غزارة من إناء فوق الموقد ، فيتلقاه أحمد بجسمه ، ويهش لنعومته ودفئه ، ويقلب نظره فى الجو الضبابى من حوله ، ويرى فقاعات الماء الصغيرة تتصاعد من قاع الإناء ، وكأنه على وشك الغليان ، فيقول فى نفسه :

— « اللهب يصعد أشياء كثيرة ويتسامى بها »

ثم يتفكر قليلا فلا يلبث أن يضيف :

— « ويحرق أشياء أكثر !! »

وانطلق صوته حزيناً مثقلا بالشجن ، يغنى لحناً تبادر إلى خاطره ، ويبذل جهده أن يقلد صاحبته أم كلثوم ، ولعله رفع من قوة اللهب حين دفع (الكباس) فى الموقد بضع دفعات ليتساوق صوته اللافح مع جيشان نفسه وهو يغنى بصوت راعش أبيات شوقى :

ولى بين الضلوع دم ولحم   هما الواهى الذى ثكل الشبابا
تسرب فى الدموع فقلت ولى   وصفق فى الضلوع فقلت ثابا

وأحست نفسه إحساساً زاخراً بمعانى تلك الأبيات وما فيها من لوعة الحرمان ، وقسوة الحيرة والتمزق ، وكأنه لم يسمعها من قبل ، أليس بين خفق الضلوع وحبس الدموع تتبعثر أيامه ! !

وكان زكريا مستلقياً على سريره فى الحجرة التى تواجه الحمام ، وسمع أنات صديقه التى ينطوى عليها غناؤه ، وأحس ما فيها من لوعة حارقة ، ومن إحساس كامن بالضياع ، فتملكته رجفة خفيفة ، لكنه مالبث أن نهض على الفور .. محاولا أن يسيطر على تيار أفكاره فى قدرة جبارة ، وأفاق أحمد على طرقات عنيفة على باب الحمام ، وزكريا يقول فى لهجة مسرحية مضخمة :

— ثكلتك أمك ..

ثم أضاف مقلداً صديقه ومحاولا أن يبدو مضحكاً :

— من الذى شـكل الشبابا ؟

ومط الـكلمة الأخيرة مطاً شديداً .

فانقلب أحمد لمجاراته على الفور ، واعتدل فى وقفته أمام البخار الصاعد والتفت إلى الباب هاتفاً :

— من الهاتف الداعى ؟ .... قيساً أرى .. ماذا وقوفك والفتيان قد ساروا ؟

فقال زكريا ، محاولا تقليد صوت عبد الوهاب فى مسكنته ورقته ؟

— ما كنت ياعم فيهم .

— أين كنت إذن ؟

فقال فى لهجة غنائية مضحكة :

— فى السرير حتى شدا لى حمار .

فقال أحمد مغتاظاً لتوقف الحوار :

— يا سافل .

فأضاف زكريا وهو يتمايل أمام باب الحمام ، ونظارته تتراقص فوق أنفه بطريقة مضحكة ، وكأن صديقه يراه :

— أنا السافل ياحضرة الفائز الحمار؟ تغنى الذى شـكل الشبابا فى هذا اليوم .. واليوم هو الخميس الموافق ٢٦ منه ، منه لله . غنى يا أستاذ .. غنى .

وبدأ زكريا يوقع على باب الحمام براحتيه توقيعاً منتظماً قاسياً يكاد يخلعه ، وهو يغنى بصوت أجش ، خشن النبرات :

اتمخطرى ياحلوة يا زينـــه   يا وردة من جوه جنينــه

يا عـــود قرنفل ياعروسة   والورد ضلل علينـــا

ثم أطلق زغرودة طويلة مرحة ، وأضاف :

— هكذا يجب « أن تغنى الجائزة يا أستاذ ، أم تراك تريد أن تقلبها مندبة لتأكل حتى فى سهرة وأكلة كباب .

لم يكن أحمد ماهر على هذا النحو الذى وصفه صديقه . كانت تتملكه فرحة طفلية حلوة منذ قرأ برقية التهنئة من أخته ، واحتار فى الأمر لحظة ، ولكنه حين ذهب إلى « نادى الطليعة المسرحى » تأكد من معنى البرقية، لقد فازت مسرحيته التى كتبها للمسرح المدرسى بالجائزة الأولى ، وقد نشر النبأ بالصحيفة التى يحملها ، ولكنه لم يقرأها .. لقد كان يوماً عاصفاً فى الخارج وفى داخل قاعة المحاضرات.. حقاً إن الجائزة ليست عالية القيمة من الناحية المادية ، ولكنها فى رأيه بداية موفقة ، أزالت بعض شكوكه من نفسه ، ومدى قدرته على التعبير الفنى ، وأن الجو أصبح ممهداً للتعرف على بعض الذين يتعشقهم من كتاباتهم .

لكن هل نسيها ؟ الشينارو المتمنعة أبداً ، تصليه نارها من بعيد !! هل تنسى فى مثل تلك اللحظات المتفجرة بالفرحة ؟ كلا !! لقد كانت فرحته تسرى من خلالها .. فتصبغها بلون آخر فيه أسى وشجن .. وهمس لنفسه فى ارتياب :

« إن بعض الطلبة لابد أن يحضر حفل توزيع الجوائز .. ولابد أن تحضر هى أيضاً » .

ولما كان فى شك من ذلك فإن فرحته ظلت ناقصة ، هائمة ، فيها ظل كآبة وضياع ..

وخرج أحمد من الحمام بالثياب الداخلية فقط برغم برودة الجو ، ولف رأسه فى المنشفة ، وما كاد زكريا يراه حتى سارع إليه يغمره بغطاء من الصوف ، وهو يقول فى خوف مضحك :

— حاذر يا أستاذ من البرد ، أنت الآن تساوى خمسين جنيهاً ، أم تريد أن تموت قبل أن تقبض الجائزة وتضيع على أكلة الكباب ؟

فصعد أحمد إلى سريره ، ثم ارتدى ثوبه ، والتف بالغطاء الصوفى حتى

صار كالمومياء الفرعونية ، ثم رشف من قدح الشاى الذى أعده صديقه ، القابع على السرير إلى جانبه ، وقال :

— بالمناسبة .. لو أنك مكانى .. ماذا تفعل بالخمسين جنيهاً ؟

وأجاب زكريا على الفور وكأنما أعد الجواب :

— اسمع .. أنا راجل واقعى ، لست خيالياً مثالياً مثلك .. أنت تقسم الإنسان إلى جسم وروح ، وتردد كلمة : « إنسانية الإنسان » وكأنك وقعت على كنز أو اكتشاف .. لكننى أومن بالمزج بين الجسم والروح ، وأن كل إنسان هو إنسانى بطبعه وغريزته .. إننى متفائل ، أما ..

— هوه .. حاسب .. السؤال ما يزال مطروحاً دون إجابة !!

— هذا صحيح !!

واكتست جبهة زكريا ببعض التجاعيد ، ولمعت عيناه ، خلف نظارته السميكة ، وارتعدت شفتاه فى افتعال وهو يضيف :

— لكن .. يجب أن تعرف كيف أفكر حتى أبرر لك تصرفى ، الإنسان جسم وروح معاً .. مزيج منهما .. وهذا المزج ليس فيه انفصام من الناحية العضوية أو الوظيفية .. ولأكون واضحاً :

ليس للروح مطالب منفصلة عن مطالب الجسم .. كلاهما له نفس الحاجات ، وإرضاء أحدهما إرضاء للآخر .

— شف يا أخى !!

— فاستطرد غير ملتفت إلى السخرية التى أطلقها صديقه .

— وعلى ذلك .

— وعلى ذلك ؟

— لن تنفع الخمسون جنيهاً بشىء ، اجعلها خمسمائة .. لو أنها معى .. أتدرى ماذا أفعل ؟

— لا أدرى إلا أن الذى معى خمسون لا خمسمائة !!

— لو كان .. لو كان .. افتتح بها مطعماً !!

— ياسلام على الحكم !!

وتجهم قليلا .. من الذى سخر منه بهذه الكلمة من قبل ؟

أوه .. إنه الدكتور راضى ، « يا إلهى لقد نسيته فى فرحتى فلم أعتذر إليه .. » ومضى زكريا يتكلم :

— ليس مطعماً عادياً .. القاهرة تغص بهذا النوع ، سأفتتح مطعماً للحمام .. الحمام فقط يا أستاذ ، مشوياً ومقلياً ومسلوقاً ومحشواً .. وعلى الطريقة الصينى والأمريكانى و .. و .. الخ الخ ، وأتخصص فى هذا النوع .

— وتربى كرشاً وتصير مليونيراً .. عليك اللعنة .

— لا .. لن أربى كرشاً .. سأربى كروش أمثالك ممن يربحون الجوائز ولا يعرفون أين ينفقونها !!

فتفكر أحمد ملياً ، ثم قال بهمس وكأنه يحلم :

— لا تظن ذلك .. إننى أعرف طريقى ..

فتغنى زكريا مردداً قول الشاعر :

— وطريقى ما طريقى .. أطويل أم قصير ؟

فاسترسل أحمد بذات النبرة الحالمة ، غير متنبه لنبرات صديقه العابثة :

— إنه طويل .. باق على امتحان الليسانس خمسة أشهر أو ستة .. والوقت غير متسع للرحلة ولكنى أتمنى أن أنشر مسرحيتى ، إن أدباء هذا العصر اتعظوا من تجربتهم ، أصبحوا يعترفون سريعاً بالمواهب الجديدة ، وساجد من يقدمنى ، ويشجعنى ، فإن لم يكن ، فسأقوم برحلة بين المدن الكبيرة أشجع مدارسها على تمثيل مسرحيتى ، وأشرف على إخراجها . وقال بحدة وفى عينيه بريق التصميم :

— أنا المؤلف .. هذا الذى على الورق ليس حبراً .. إنه دمى .. ولا يعرف أسراره سواى .. أريد أن أتعهده وأراه يتحرك على المسرح فيهز القلوب ويدمى الأكف ..

فقال زكريا مجارياً لهجته ، ساخراً :

— وشرفك ياجميل لن يدمى إلا قلبك بضياع المبلغ .. سأقبضه أنا .. لن تأخذ منه مليماً .

ثم « أضاف ضاحكاً » :

— سأحجر عليك باسم القانون .. والعود ، والكمان ..

وفى الصباح كان الصديقان يسيران فى حديقة الكلية ، وعلى فم أحمد ابتسامة حية متواضعة ، مثل عروس لا تملك أن تدارى فرحتها ، وكان يتساءل :

« ما عسى أن يكون أثر ذلك على سامية ؟ »

ثم سأله صديقه :

— هل ستدعو سامية وفريدة ؟

فقال زكريا بخبث :

— العلاقة بيننا وبين سامية لم تصل إلى حد الدعوات .

— والحل .. ؟ لابد أن تحضر .

— الحل .. الحل .. أن تدعو فريدة .. والباقى مفهوم .

— بل تدعوها أنت .. من أجلى ، إنها ستجن من الفرح .. لعل وعسى أن تحضر سامية .

قال ذلك بمسكنة رق لها قلب زكريا صديقه ، الذى لم يستطع الصمود أمام ضعفه ، فغير وجه الحديث .

— اسمع .. سيسألك الصحفيون ، ومندوب مجلة الهواء ، وشريط الأنباء ، والتلفزيون .. جهز الإجابة من الآن .. إنها أسئلة تقليدية :

— ماهو شعورك؟ هل مسرحيتك عن تجربة واقعية ، هل لك محاولات سابقة ، من الذى يعجبك من كتاب المسرحية ؟ ماذا ستفعل بالجائزة ؟

والإجابة على هذا السؤال دعها لى ، ودع لى أيضاً الدعاية هنا فى الكلية . . اسمع إنها فرصة العمر . . انتخابات الاتحاد على الأبواب ، ويجب أن تستغل مرشحى اللجنة الثقافية .

وبعد ساعات كانت لوحات الإعلان مزدحمة بالتهانى والرسوم ، وكان أحمد يقرأ بسرور يحاول أن يخفيه « الزميل فلان مرشح اللجنة الثقافية يهنىء صديقه أحمد ماهر بفوزه بالجائزة الأولى للمسرح المدرسى » .

قرأ مثل ذلك عشرات المرات . . وكانت حلاوته تتضاعف فى نفسه . . خاصة عندما يتخيل سامية تقرأه ، ويمنى نفسه بلقاء معها . . ولو على البعد . . فى « نادى الطليعة » . . فى ذلك المساء . .

* * *

لم يكن الأستاذ حسين مدرس اللغة العربية بمدرسة .. الثانوية للبنات ، على أى قدر من تلك الوسامة العجيبة التى تجتذب الأنظار للوهلة الأولى إلى ابنته سامية ، وربما كان ذلك من مرشحاته للتدريس فى مدارس البنات الناضجات .

كان مديد القامة فى شىء من الإسراف ، هش البناء ، طويل الأطراف ، طويل العنق صغير الرأس ، ودقيق الملامح ، وردى البشرة ، رقيق الصوت . وكان فى المدرسة — وخاصة أمام الناظرة — رجلا هادئاً صموتاً . . ولكنه كان فى بيته يحظى بسيادة تجعل الآخرين يرتجفون أمامه .. وقد عاشت سامية ترتجف منه ، تخشاه حين تقوم بحل الواجب ، فتكاد ترى عينيه النافذتين مثل ثقبين غائرين تشملانها بنظرة حزم منذرة ، وترى أصابعه النحيلة الطويلة تمسك بيدها حتى لا تلوث كراسها بالحبر . فإذا جاء وقت تصحيح الواجب جثمت جبال الدنيا كلها فوق صدر الطفلة الصغيرة التى لم يمض بها يوم دون عقاب من لطم أو حبس أو حرمان من المصروف . فلما كبرت سامية ، ودخلت المدرسة الإعدادية ، ثم الثانوية ، قضت هذه السنوات جميعاً فى رعاية والدها ، الذى عاملها باعتبارها ابنته التى تستحق منه عناية تربوية خاصة ، وإشرافاً أبوياً على نحو متشدد ، ولم يعاملها معاملته لطالبة عادية ممن يتعلمن تحت يده ، فلم يكن يسمح لها أن تغيب عن عينه .. كانت تغادر البيت معه فى الصباح ، وتقضى اليوم كله تحت عينه . ثم تعود معه عند العصر . وقد أكسبها ذلك شخصية خاصة ، منعزلة بعض الشىء عن زميلاتها اللاتى ربما حسدنها ، أو ضقن بها وبوالدها ، وبإسرافه فى مباشرة الإشراف عليها .. وكن يتحاشينها ، وكانت هى بدورها لا تجد فى نفسها الجرأة لأن تشاركهن اللعب فى الحديقة ، ربما سقطت وهى تقفز فيبلغ الخبر والدها !! كما أنها لم تجد فى نفسها الشجاعة لتبادل أحداً من زملاء والدها المدرسين حديثاً أو دعابة أو حتى سؤالا !! ربما أساء الفهم — أو اكتشف فيها لوناً من الغباء فيخبر والدها !! وكانت تسمع

همس الفتيات عن فتيان المدرسة المجاورة ، أو عن مدرس شاب فى المدرسة ، فيرتجف قلبها جزعاً خوف أن يضبطها والدها متلبسة بسماع مثل هذ الحديث ! !

ولما زاد نضجها ، كانت تتلصص عامدة بعينيها أو بأذنيها ، لتسمع بعض ماتقوله الفتيات أو مايتلقينه من رسائل أصدقائهن .. فيراودها أمل غائم .. كالحلم .. فى فتى من مثل هؤلاء الفتيان الذين ترى صورهم ورسائلهم مع زميلاتها .. يتقدم إلى أبيها .. أبيها هذا الذى لا تستطيع أن ترفع نظرها إليه .. لكن الفتى يحدثه ، حديث الرجل للرجل ، ويعلن له حبه لابنته وأنه يريد أن يتزوجها ، وأنه من أجل ذلك سيصحبها معه إلى بيته !!

كم رأت نفسها تغير موطنها ، وتنتقل من حماية أبيها بحزمه القوى ، إلى حماية حبيبها بحبه القوى .. إنها ستخضع له ، ستعبد إشارته ، وتقدس كلمته .. ليس باسم القوة .. ولكن باسم الحب !! لكنها تريده قوياً حتى يستطيع مقابلة والدها وطلب يدها منه !!

كم خلصت نفسها لهذا الحلم وهامت به ، وطافت معه الآفاق ، وخاصة حين يهجع من فى البيت إلى فرشهم ، وتسهر هى لتذاكر دروسها .. فى تلك الساعات الساكنة ، المليئة بالوحدة ، المزدحمة بالأطياف ، فى تلك اللحظات التى لم تكن تسمع فيها سوى أنفاسها تردد .. كانت سامية تلتقى بنفسها التائهة عنها .. الغريبة عليها ..

كانت تترك كتابها مفتوحاً فوق المكتب ليكون درعاً واقياً إذا ما تلصص أحد عليها . لكنها كانت تنهض لتقف فى اتجاه المرآة وقد انسدل شعرها فوق جبينها المكدود ، وخالط صفاء عينيها الزرقاوين الرائقتين شىء من احمرار وكلال .. ويلذ لها أن تلعب بشفتيها ، فتعضهما أو تقلبهما ، وكأنها تستعرض بهما كافة الأوضاع الممكنة .. ثم تهمس لنفسها :

— من أنا ؟ من أدرانى أنى موجودة ؟ وأننى أعيش حياتى تلك التى أفكر

فيها الآن ؟ لماذا لا أكون مخدوعة فى كل ما أرى ، وما أنا إلا وهم وما الناس من حولى إلا ظلال ..

وتمر يدها بطيئة منحدرة فوق جبينها ، وتنحدر فوق صفحة وجهها وجانب عنقها ، فتلذ لها بضاضته .. وتهمس :

— « أهذا كله خيال ؟ .. ربما ؟؟ من أدرانى أنى حقيقة .. إن أحداً ما لم يكلمنى بما يدل على أننى حقيقة . . وأن الآخرين يشعرون بى » .

وهنا يلوح فى عينيها بريق شارد وهى تهمس لنفسها فى شىء من الحدة :

— « لكنه سيأتى .. إنه شجاع .. لكن شجاعته من نوع آخر .. ليس فيه قسوة أبى . . سيواجهه ويأخذنى ويبسط على جناح حمايته .. سأفنى فيه .. سأعبده .. سأحبه .. سأهبه عمرى ..

فى تلك اللحظات التى كانت تداعبها فيها هذه الخواطر ، كانت سخونة جسمها ، وثورة خواطرها ، وإلحاح حرمانها ، تهيىء لها أن حبيبها قادم .. بل كانت تحس به إلى جانبها وتحس لمساته فى جسمها ، ومداعباته لها ، وهمساته فى أذنيها . فى تلك اللحظات كانت تستسلم فى خدر لذيذ لحلمها ، وشرودها .. وتهيم مع ذلك الحبيب القادم من أجلها ، تحادثه ، وتستجيب له ، وتعبده .

وربما فجأة . . التقطت عينها تاريخ اليوم على ورقة نتيجة الحائط ، أو التقطت أذنها دقات المنبه فوق المكتب . فتعود من رحلتها الشفافة فى لحظة ، لتدرك أنه لم يتبق على الامتحان إلا بضعة أيام ، أو أن النهار قد اقترب ولم تنته من مذاكرة واجباتها ..

وهكذا كان خضوعها المباشر لرقابة والدها ، ثم شرودها الكثير مع أحلامها ، سبباً فى انعزالها عن المشاركة فى النشاط المدرسى ، أو فى ألعاب زميلاتها مما تسبب عنه عدم توجيه الدعوة لها من بنات فصلها للاشتراك فى شىء .. بل عدم مجاملتها فيما يختص بعلاقتهن كطالبات وبوالدها كمدرس لهن .. فكن يتهامسن عليه ، ويطلقن عليه الأسماء الضاحكة ، ويسخرن من مشيته ، أو طريقة كلامه ،

كن يفعلن ذلك فى غيابها .. أو بصوت خفيض .. لكن إحداهن لم تكن تعبأ كثيراً إذا أفلت منها شىء أمام سامية .. بل ربما تعمدت بعضهن التغافل عنها وإهانة والدها بشىء من عبث البنات ، اعتماداً على أنها لن تجسر على خوض معركة أو نقل ذلك إلى والدها . وكانت سامية تسكت .. لأنها لم تتعود أن ترد ، أو أن تدافع حتى عن نفسها ، لقد تعودت أن تسمع ، وأن تجيب إذا طلب منها الجواب ! لكن عزاؤها الحقيقى كان فى سخريتها المرة فى داخلها من هؤلاء البنات جميعاً .. فهن جبن وتفاهة ، وهن يخشين والدها ، وإلا فلماذا يتهامسن فى غيابه ، ولا تجسر واحدة على أن تخاطبه بشىء مما تهمس به ؟ إلى أن كان يوم ...

فى لحظة صمت ، فى بداية الحصة ، وكان والدها يستعد لكتابة عنوان الدرس على السبورة ، سمع جميع من فى الفصل مواء قطة صغيرة .. وتجاهله الأستاذ حسين ، ولكن المواء تكرر ، فتوقف عن الكتابة والتفت خلفه وأجال نظرة متوعدة ، ولكن المواء تزايد .. فألقى بالطباشيرة فى عصبية إلى أن بلغ الصف قبل الأخير ، وتحقق من الدرج الذى يصدر من داخله الصوت ، فبعثر كتب الطالبة التى رصتها فوق الدرج ، وكشف الغطاء لتظهر قطة صغيرة جاثمة فيه .

كانت الطالبات يكتمن ضحكاتهن بصعوبة ، وفى أعينهن ترقب وتحفز ، وميل عجيب لحدوث صدام ، وكانت الطالبة صاحبة الدرج الذى وجدت فيه القطة تدارى فعلتها بدهشة مصطنعة وعبسة زوت لها ما بين حاجبيها .. ومن العجيب أن الأستاذ حسين نادى الفراش فأخذ القطة ثم عاد إلى مكانه أمام السبورة ، وبدأ الشرح وكأنه لم يحدث شىء .

وظل السؤال الحائر يؤرق على سامية خواطرها . وفى طريق العودة للبيت سألت والدها :

لماذا يا أبى لم تطردها ؟

وتنهد الأستاذ حسين .. ونظر إلى ابنته نظرة غائمة حزينة .. والتقت عينا سامية بعينى والدها ربما لأول مرة .. ، ورأت ما فيهما من ذل حزين ،

فطفرت دموعها وملأت مآقيها ، وصارت وكأنها ترى والدها من وراء زجاج يسيل عليه المطر ..

فبدا لها ضعيفاً مهيضاً لا حول له ، فى حاجة إلى الحب والشفقة والحماية . وسألها والدها :

— هل تعرفين ماذا يشتغل والد تلك الفتاة ؟

وأومأت برأسها وقد خنقتها العبرات أن نعم.

فعاد يقول :

— إنه يستطيع أن يكون مصدرمتاعب لى طول العمر .. وسينعكس ذلك عليك يا ابنتى .

أوشكت أن تنسى أنها فى الطريق فتحتضن أباها مجهشة باكية ، ولـكنها تحاملت فاتكأت على ذراعه وهى تحاول احتضانها بيديها .. ولعل الرجل أحس بخفقات القلب الثائر ، ولوعة الخواطر الحزينة ، فقال فى رجاء وتوسل :

— إسألى الله لنا الستر يا ابنتى ..

ها هو والدها قوى متنمر فى البيت ، لـكنه ضعيف خوار أمام الأقوياء .. مما أشربها الذل وأذاقها معنى الهوان ، ألا لعنة الله على الأقوياء الجبارين جميعاً ، ولعنة الله على الضعفاء أيضاً ، لماذا يرضون بأن يكونوا الضعفاء ؟؟

منذ ذلك اليوم وسامية ترى فى كل رجل معنيين متجاورين ، من القوة المستبدة الغاشمة أمام الضعفاء ، ومن الخور المزرى أمام الأقوياء . فنفرت نفسها من كلا المعنيين ، وتمنت أن تعيش منفردة بنفسها ، قوية بلا ضعف ، وضعيفة بلا ذلة .. لـكن كيف ؟ ؟

وعندما التقت بفريدة من مطلع دراستها الجامعية ، ورأت جرأتها على الفتيان وتصريحها بأسرارها دون خوف ، أحبت فيها تلك الجرأة ، ولـكنها لم تتمن أن تـكون مثلها ، وإن لم ترض عن واقعها .

ودارت أيامها .. إلى أن التقت بنفسها فى عينى أحمد ماهر .. القوى بلا ضعف والضعيف بلا ذلة .

لـكن كيف .. كيف تنطلق ؟

قال زكريا بسرور فياض :

ـــ أنت عريس هذا اليوم ، ولك أن تتمنى على !!

فقال أحمد وهو يخطو نحو كشك بيع الكتب ، فى فناء الكلية ليتلقى الشمس فى ظل جداره الشرقى :

ـــ تمنيت عليك كوباً من الشاى !!

ـــ وأيضاً ..

ـــ أن تصمت !!

ـــ كذاب .. والله العظيم كذاب .. أنت صادق فى أمنيتك الأولى .. ولكن أمنيتك الثانية ..

ـــ أمنيتى الثانية فوق تناولك !!

فتنهد زكريا فى غير ارتياح ، وأصلح وضع نظارته فوق أنفه ، وقال فى لهجة تنم عن القلق والتردد :

ـــ لو أنك نزلت من سمائك لانتهت المشكلة .

فقال الآخر فى سخرية خفيفة :

ـــ أنا على أرض الكلية والله العظيم .

ـــ أنت على أرض الكلية حقاً .

ونسى زكريا نفسه وقد استبد به حماسه ، فراح يدق بيده فوق الحائط الخشبى وهو يزفر بين كلماته .

ـــ .... ولكنك تفكر بعيداً عن الواقع !! إن أسلوبك هذا يصلح لفتاة مثل فريده ... ولكن سامية .. شىء آخر يجب أن يفهم على نحو خاص ! !

ـــ وكيف تفهم سامية ياحضرة المحلل النفسانى ! ؟

— اسمع ياسيدى ..

واستقبل زكريا بوجهه مشرق الشمس ، وملامحه تلين أمام دفئها وتنقبض مع ثورة أفكاره وتذبذبها . .

— سامية فتاة من طراز خاص .. لا نحكم عليه بالجودة أو الرداءة لأننا لم نجربه ، أو لم نعش تجربته .. كما أننا لا نعرف سرها .. لكنها على أى حال .. فتاة ذات كبرياء ، وترفع ..

— حاسب !! هل أجرتك لتنظم فيها قصيدة مدح ؟ عليك اللعنة .

وأحس أحمد بغيرة قليلة تشوب إحساسه حين سمع إطراء صديقه لها ، ولذ له أن يقول :

— تكلم فى الصميم .. إننى أعرف بها منك .

— طيب .. إنها ترى المستوى الذى تهبط إليه العلاقات بين الطلبة والطالبات ، وكبرياؤها يمنعها أن تكون مثلهن . ورأيها هذا جدير بالاحترام ، وجدير بأن يوحى إليك بتصرف معين .

وأحس أحمد بما فى كلام صديقه من تجاهل لما يحسه فى نفسه من امتياز خاص يعلو به فوق زملائه من الطلبة ، فارتعشت أهدابه فى انفعال ، وقال متحدياً :

— وهل أنا مثل هؤلاء الطلبة الذين تتحدث عنهم ! ؟

ففطن زكريا إلى قسوة لهجته على صديقه ، فاقترب منه متحبباً ، وألقى بيده على عاتقه وهو يحاول أن يضمه إليه ، حتى لامست شفتاه كتف صديقه فى قبلة صغيرة ، وقال فى نبرات نادمة :

— هل أعلمك ما أنت أعلم به منى ؟ المرأة هى المرأة .. لم يذكر التاريخ فيلسوفة واحدة على ما أعلم !! فلا تطالب سامية بأن تفلسف حبك .

فقال أحمد وكأنه يلزمها هى الحجة :

— لكنها صادقة الإحساس .. ولها نظر .. وهى أيضاً .. وأخذ نفساً عميقاً ، وقال وهو يتنهد وقد انزاح عن صدره جبل ثقيل :

— وهى أيضاً تحبنى .. كما أحبها .

وخفق قلب زكريا وهو ينظر إلى صديقه فى عطف وعزاء :

— أنت تحب .. وجدير بكل حب .

وراح أحمد يفكر .. إن إحساسه يعذبه .. فإذا كان جديراً بكل حب ، فإنه هو نفسه يوقن بذلك فى شىء من الثقة أو الغرور ، وفريدة نفسها حاولت أول الأمر أن تجتذبه نحوها ، وأن تقنعه بحبها له ، ولكنه لم يتوان عن إطلاعها على حقيقة مشاعره نحو صديقتها ، فتنصلت فى غير براعة مما أبدت ، وصححت نفسها — كما زعمت — قائلة : « إنها تقصد زكريا التى لاحظت ميله إليها .. وزكريا يكن لها بالفعل بعض الميل الذى يحاول أن يداريه بسخريته اللاذعة التى ينتهجها حيالها .. وهو الذى اختار لها اسم الشيرمان ليكون رمزاً بينه وبين صديقه . والاسم برغم ما ينطوى عليه من سخرية لا يخلو من إيحاء بالضخامة والقوة المتجبرة المطلقة التى لا يوقفها شىء ، والتى تمثلها أكبر الدبابات الأمريكية التى تحمل هذا الاسم !!

وسامية هى الأخرى تحبه ، حباً حزيناً مكبوتاً . . يغلفه سياج عجيب من الدهشة والحيرة والحياء والخوف والترفع .. وكأنها لم تحدث رجلا طول حياتها !!

— الشيرمان ظهر ! !

قالها زكريا بهمس ، لكنه أوقف شلال الخواطر الثائر المتدفق فى رأس أحمد ماهر ، ونظر إلى حيث يتجه وجه صديقه وتمتم فى لحن حزين :

اتنظر يا ابن عوف حىّ ليلى تدجج بالسلاح ولا تراها .

لماذا ترى فريدة .. ولا ترى سامية من خلفها ؟ أم تراك لا تبصر إلا ماتحب؟

فقال متضاحكاً :

— وأنت سيد العارفين ، نظارتى لا ترى إلا ما يخصها .. مثل مصارع الثيران لا يرى إلا قرونها ..

وأضاف وهو يضحك :

— والتشبيه بدون فارق !

وقطع ضحكته وهمس :

— لنصمت حتى لا نتهم .. إنها قادمة .. ترى هل تأتى معها الشينارو ؟؟

كانت لحظة العمر بالنسبة لأحمد ، لم تتحملها أعصابه الرقيقة المسرفة الحساسية كانت فريدة قادمة وقد حملت كتبها فى يد ، وأمسكت بيدها ذراع صديقتها ، وسامية تمشى بإزائها وكأنها منومة .. وقد ارتخت ملامحها وسقط ذراعها الذى يحمل كتبها إلى جانبها وكأنه خلا من الأعصاب .

أما أحمد فقد كان الموقف أكبر من أن يحتمله ، فدق قلبه دقات متوالية ، وهرب ريقه ، وراح يهيب بشجاعته أن تواتيه على احتمال اللقاء ، والتحكم فيه ، وراح يفكر فى سرعة جبارة كيف يسأل . وكيف يجيب ، وكيف يستبقيها أطول مدة ممكنة ، وكيف يعطيها صورة طيبة عن نفسه فى أول لقاء مباشر بينهما ..

أما زكريا فكان ينقل عينيه بين القادمتين وبين صديقه وهو يهمس له بخبث :

— تجلد .. شدة وتزول ..

ووقف أحمد متصلباً وكأنه فقد القدرة على الحركة .

— مبروك يا أحمد .

قالتها فريدة بنغمة ذات مغزى ، وغمزت بعينيها جهة صديقتها وهى تصافح أحمد ثم تجتاز سوقفها أمامه لتقف فى مواجهة زكريا وتصافحه بكلتا يديها وهى تقول :

— ومبروك أنت أيضاً .. أليس صديقك ؟؟

ولم يرد أحمد على تحية فريدة .. كان معلق النظر والقلب بسامية ، فلم يعد

يرى أو يسمع سواها . . كان ينتظر تحيتها ليكون الرد لها . ولكن سامية تقدمت على استحياء وخطت فى خطوات صغيرة ومتعثرة ، وألقت بأناملها فى راحة أحمد ، بشىء من التردد والحذر ، لكنه كان قد فتح لها قلبه ، وأوشك أن يفتح لها ذراعيه وبسط لها راحته . . فاحتضن يدها ، وراعتها الحركة المباغتة ، فأجفلت قليلا ، وكادت تنتزع أناملها . وارتعدت يدها قليلا ، واختجلت فى وقفتها . ثم مشت خطوة فانسلت أناملها من يد أحمد ، الذى تراجع نصف خطوة ، وكأنه على وشك السقوط ليحتمى بحائط الكشك .

قال زكريا :

ـــ الآنسة سامية ستشرف حفل الليلة طبعاً .

فقاطعته فريدة وهى تتغامز فى دلال لا يتلاءم مع عودها الممتلىء :

ـــ ولم لا تدعو الآنسة فريدة أيضاً ؟

فقال متخابثاً ، ومتحاشياً إطالة النقاش معها :

ـــ أنت من أهل البيت . . إن هذا مفروغ منه . .

فتمايل جسمها الفارع فى حركة نزقة رقيقة وقالت :

ـــ وستحضر الآنسة سامية معى .

وأخيراً استطاع أحمد ماهر أن يحرك لسانه ، فقال وهو لا يكاد يتبين مواقع كلماته ، فتبدو له غير ذات معنى :

ـــ إننى آمل ذلك .

فارتبكت سامية ، وتصاعد الدم إلى وجهها فزاده احمراراً ، وعبثت أناملها بأسورة الساعة فى معصمها . . وقالت فى كلمات متقطعة :

ـــ إننى لا أستطيع أن أخرج بالليل . .

فقال زكريا مازحاً فى خبث :

— لن تكونى وحدك .

وأشار إلى فريدة التى تحاصره فى وقفتها ثم أضاف :

— البركة فى شيخ الخفر . .

فوضعت فريدة يدها فى خاصرتها مقلدة بنات البلد :

— ماذا تعنى يا نمرة ١٧ .

نمرة ١٧ . .

— نعم . . ولن تعرف سرها حتى أعرف سر الشيرمان . .

وأخذ زكريا يكرر فى ارتباك وقد أخذ بالمفاجأة :

— شيرمان !! شيرمان !! ما معنى هذا ؟

— اسأل نفسك — أما أنا فلن أقول لك يا نمرة ١٧ .

وأحس أحمد أن الموقف ينفلت دون الوصول إلى ما يشتهى ، فعاد يقول فى مسكنة :

— أرجو أن أراك هناك .

ونظر إلى سامية فوجد فى عينيها نظرة حب والهة ، تتسم بالعجز والحيرة وإن شفت عن الفناء فيه . . فردد على غير وعى منه وفكرة غامضة تداعب خاطره . .

— كلا . . لا تخرجى فى الليل .

— إننى مقيمة عند خالتى . . ولا أخرج فى الليل .

وهمت بالانصراف مع صديقتها ، ونظرت فريدة إلى أحمد قائلة فى خبث :

— سنحضر معاً . . ستأتى سامية . .

فقال زكريا :

— إن هذا يسعدنى . .

وفى المساء لبس أحمد البدلة « الكحلية » ، ورباط العنق الأحمر ، وكان زكريا ينثر فوقه العطر وهو يداعبه ضاحكاً ، ويزعم أنه يستعير عينى سامية وأنفها ويرى وقع ملابسه وعطره عليها ..

وذهب أحمد وصديقه إلى « نادى الطليعة المسرحى » ليتسلم الجائزة ..

وجد أمين النادى ، وأكثر أعضائه ، وبعض أبناء كليته .. ووجد فريدة وحدها وأحزنه أن سامية لم توجد .. ترى هل هى لا تخرج حقاً فى الليل ؟ ألم تكن المناسبة قادرة على إخراجها عن عاداتها دون أن تتناولها ألسنة زملائها التى تخشاها ؟ وعندما انتهى الحفل ، واخذ حزنه لغياب سامية يخف تأثيره عليه ، تبين له أنه لم يلتق بما أمل من شهرة ومجد .. لم يلتق بصحفى واحد .. ولا بإذاعى ولا بالتليفزيون .. كان الحفل مثل زفاف امرأة سبق لها الزواج ، يفرح لها الجميع .. ولكن لا أحد يجد فى نفسه الحماس لإعلان فرحته لها ..

ولكن لو علم .. لقد رأته سامية كما اشتهى أن تراه !! رأته بعين خيالها وقد مضت آلات التصوير من حوله ، وأحاط به مندوبو الصحف ، والإذاعة ، وصفق مئات الناس لتحيته ..

وقضى ليلته يحلم . فما عساه أن يقول لها فى الصباح .. يجب أن يتطور الوضع وإلا .. انتحرت المسرحية ..

« يا إلهى .. أين أنت يادكتور راضى ، وما عساك تقول بعد أن تجاهلتك ؟»

حقاً لقد انتهى الأمر بالدكتور إلى الإيمان بأنه يعيش حياة غريبة شاذة .. أشبه بالبيوت الزجاجية التى ينشئها العلماء لتربية بعض أنواع النبات فى غير بيئتها الطبيعية ، وهو إذ يؤمن بأن حياته لا يمكن أن تطرد على هذا النحو الغريب ، فإنه لا يعرف له مخرجاً ، وهذا ما يعقد الموقف ، ويصيبه بقلق دائم أليم ! !

إنه لا ينسى اليوم الأول ، الذى التقى فيه بماريانا ! !

كم كانت جميلة ورقيقة غضة ، فى ذلك اليوم ! !

وكم كانت مجاملة ودوداً عندما أشعرته منذ أول يوم أقام فيه مع أسرتها أنه ليس غريباً عن الأسرة ، وأنه ليس غريباً عن نفسها ، ولا بعيداً عن إحساسها وذوقها ! !

وإذا نسى كل ما فعلته له ، فإنه لن ينسى لها أنها كانت قلبه النابض ، وذهنه المتوثب ، وروحه المتشوقة للمعرفة والانطلاق فى بلدها . . فكان أن حنت عليه وعطفت على آماله ، وغفرت له ضعفه ، وسترت نواحى نقصه فى التعرف على مدنية بلادها ، فأخذت بيده تصلح لغته ، وتلقنه قواعد المعاملة كما يعرفها شعبها ، وتتخير له الكتب ، وتصحبه إلى الندوات وقاعات الدرس .

وكان الدكتور الشرقى ذو الدم الحار ، والبلاد ذات التقاليد العريقة ، التى تتوارث النظر إلى حواء وكأنها لغز لا حل له ، كان مسكيناً فى مواجهة الحياة الجديدة ، حائراً فى مستوى تعامله مع أساتذته وصديقته . . وبين إعطائها الأستاذية ، وإهدائها مكان الصديقة ضاعت أيام كثيرة . . إلى أن جاء الربيع ، ولاح لها أن تصحبه فى رحلة إلى اسكتلندا لتريه بعض آثار العصور الوسطى من قلاع وحصون ، وهناك تزحلقا على الجليد . . وهناك فى تلك الرحلة التى استمرت أسبوعاً ، أحس بأنه لا يستطيع أن يحيا بدونها ! !

وهكذا عاش ثلاث سنوات يأخذ منها كل ما يشتهى دون أن يعطيها شيئاً ! ! وعاشت هى تهبه فوق ما يشتهى ولا تطلب منه أى شىء .

وفى الشهر الذى حصل فيه على الدكتوراه ، وأخذ يستعد للعودة إلى وطنه . أعطاها شيئاً واحداً رأى أنه بديل طيب لكل ما قدمت له . . قسيمة الزواج . . فإذا كان لا يستطيع أن يقضى عمره فى بلادها ، فإنه سيأخذ قطعة من هذه البلاد إلى وطنه لتمده بالحياة التى أحبها وتفتحت عليها مواهبه ! !

ولقد كانت ماريانا أمينة فى أداء رسالتها ، بل لقد كانت كما تمناها الدكتور ! ! إذ جعلت بيتها قطعة من إنجلترا . . ابتداء من شكل البناء الخاص الذى بناه الدكتور لنفسه فى مدينة الجامعيين ، إلى أصغر شىء فيها . . مثل لون جواربه أو لون مفرش المائدة . . وأقيمت فى بيته الحفلات على الطريقة الإنجليزية فى أمسيات السبت . . دائماً . .

وكان أصدقاؤه دائماً فى السفارة ، يدعوهم إلى حفلاته ، ويدعونه إلى حفلاتهم ، ويحتفل معهم بعيد جلوس الملكة . . وربما ببعض ذكريات الانتصار . . وكان سعيداً بكل ذلك ، لأنه يصنع له الجو الذى أحبه ، الجو الذى تنفست فيه أفكاره الجديدة ، وقيمه الجديدة ، الجو الذى جعله يعيد نظراً فى كل ما قرأ ، وكل ما رأى ، وكل ما ورث من خصال . .

ولكنه — بعد مدة — أدرك بديهية بسيطة . . لكنها عميقة القيمة . . أنه لا يستطيع أن يعيش حياة إنجليزية إلا فى انجلترا . .

أما فى مصر فإنها تستحيل إلى لون من التعذيب . . أو التحنيط . .

ولقد بدأ يحس بذلك منذ بدأ يحاضر فى الكلية ، وتمتد علاقاته . استجابة لدواعى العمل ، بزملائه من الأساتذة ، وبتلاميذه ، وتلميذاته . .

منذ رآهم ، وتوثقت صلته ببعضهم ، وهو يدرك أنه يعيش غريباً فى نفسه ، واستحكم بنفسه هذا الإحساس فبدأ يتمرد ، ويحاول أن يغير من ظواهر بيته ، فاستغنى عن الطباخ اليونانى واستبدله بآخر مصرى ، ونهر الخادم الصغيرة لأنها نادت ابنه مرسى باسمه الذى اختارته أمه : ماسى . . وبدأ هو ينادى ماريانا باسم

منى .. وازداد قلق الدكتور ، وكثر سهره ، وقلت عنايته بنفسه .. وبمن فى البيت . ولكنه لم يجد فى نفسه القدرة على الإفضاء بذات نفسه لزوجته . ولم تهتم له ماريانا إنها تعرفه ، وتعرف نزواته . . إنه لا يطيق صبراً على فراقها ، ولا يستطيع أن يستمر فى تمرده ، وغداً يسعى إليها معتذراً عن جفائه وحتى يأتى إليها تائباً منيباً فإن فى سهرات النادى الإنجليزى ، وبيوت أصدقائها من بنى وطنها ما يسرى عنها ، ويمسح على أعصابها المتوترة . .

وعندما سكر الدكتور فى ليلة احتفال السفارة ، ووشى به لسانه وهو ملقى إلى جانب زوجته فى عربته الصغيرة ، عرفت ماريانا أن عاصفة ستهب !!

ولما أخبرته بما قال فى الصباح ، راوغ وتهرب ، لكنه حمد فى نفسه الفرصة التى أتاحت له إطلاعها على إحساسه الجديد . .

وعندما كانت سيارته تمرق فى فناء الكلية ، أشار أحمد إليها قائلا لصديقه:

— صاحبك حضر ..

فقال زكريا فى تهكم خفيف لا يخلو من خوف :

— بل صاحبك أنت . .

وصمت لحظة ثم أضاف :

— ألا ترى أنه من الأوفق أن تزوره فى مكتبه ؟

— نعم . . إن ذلك ما أفكر فيه .

وبعد دقائق كان الدكتور يقف بقامته المديدة ، وملامحه الدقيقة تنبسط بابتسامة واسعة وهو يصافح أحمد بحرارة ، ويقول فى ود صادق تعليه روحه الرياضية أحياناً :

— مبروك يا أحمد . . لقد سرنى فوزك ، ولو أننى علمت قبل الحفل لحضرته لأصفق لك .

فقال أحمد وقد أخجلته تحية أستاذه ، فتقطعت نبراته من الانفعال :

— العفو يا سيدى . . ما أنا إلا تلميذ صغير من تلاميذك . .

— بل أنت فتى ناضج يرجى منه الخير . اجلس .

وجلس أحمد وزكريا أمام مكتب الأستاذ منكمشين بعض الانكماش ، وضغط الأستاذ زر الجرس ، وأمر الفراش بإحضار الشاى ولم يسمح لاعتراضهما.

ورأى أحمد — بعد المقابلة الطيبة — أن عدم حضوره منذ أول أمس يحتاج إلى تبرير واعتذار ، فدعك يديه فى ارتباك ، وقال وهو يتحاشى أن تلتقى عيناه بعينى الدكتور :

— إنى آسف لتأخرى فى الالتقاء بك ياسيدى .

— ليس هناك ما يدعو للأسف .

قالها الدكتور بلهجة تقليدية لا حياة فيها وكأنه غير مقتنع ، فقال أحمد توكيداً لما يحسه من أسف :

— ربما كانت الفرحة أكبر منى ، فأنستنى موعدك . .

فقال الدكتور مهوناً الأمر ، وبدافع روحه الرياضية أيضاً :

— لم يكن موعداً . . إنه مرهون بإرادتك . . فإذا أردت أن تفضى إلى بشىء.. كأستاذ أو أخ أكبر فانى أرحب بذلك .

— إننى الذى يسعده ذلك يا سيدى .

وهنا قال زكريا بأدب شديد :

— ربما أغضبناك فى المحاضرة يا سيدى ، وإنا لآسفين . .

فقال الدكتور وهو يضغط بيده فوق مكتبه وكأنه يوشك أن ينهض خطيباً :

— إننى لم أغضب ، بالعكس ، لقد سرنى وعيكم وحرصكم على الفهم السليم ، وإذا غضبت — وتحت الثقة الجديدة يمكننى أن أقول — فإننى أغضب من نفسى ،

ويلذ لى أن أعترف بذلك .. إننى آخذ بمبدأ الاعتراف لأنه يطهر النفس ويعيد إليها فطرتها السليمة البريئة .. و .. ولم يكن أحدكما سبباً فى غضبى .

فقال زكريا بلباقة :

ـــ يعز علينا أن تغضب منا .. أو من غيرنا . .

قال الدكتور وهو ينفث دخان لفافته ، ويتناول قدح الشاى من الفراش الذى أحضر ثلاثة أقداح :

ــ لا مفر من أن نغضب ، ونسخط أحياناً .. ويزداد ذلك إذا عشنا حياة مزدوجة لا نشعر بالرضا عنها ! !

وأحس الصديقان بما لحديث أستاذهما من دلالة ، ولكنهما لم يعرفا ماذا يجب أن يقولا فى مثل هذا الصدد ، فلزما الصمت .

وربما أحس الدكتور بما تورط فيه ، وأنه لا يجمل به أن تستحوذ عليه أفكاره ومتاعبه فتفلت من لسانه ، فعاد يسأل :

ـــ هل بدأتما المذاكرة ؟

فتبادل أحمد وزكريا النظرات ، وكأن كل منهما يدعو رفيقه للاجابة ، فقال زكريا :

ــ لم نبدأ بشكل جدى حتى الآن .. ثلاثة أشهر تكفى على أى حال .

وأضاف أحمد :

ــ لم نركز جهدنا بعد على كتب الكلية ، إننا نتجول برفق بين بعض المراجع ..

فقال الدكتور بلطف مخاطباً أحمد :

ــ أظنك حريص على أن تكون الأول هذا العام وقد فاتك ذلك فى العام الماضى .. ولذلك فإنى أدعوك مع صديقك لزيارة مكتبتى .. ربما وجدت فيها ما ينفعك ..

فتمتم الصديقان وقد أخذا بالدعوة المفاجئة :

— شكراً يا سيدى .. هذا كرم عظيم .

وأحس الجالسون بباب الحجرة يفتح من خلفهم ، فالتفت أحمد وزكريا .. فوجدوا رأس فريدة يظهر من فرجته ، فلما رأتهم — وقد فوجئت بوجود أحمد وزكريا — أوشكت أن تنسحب ، ولكنها وجدت النظرات تحاصرها ، فدفعت الباب برفق لتدخل ، وارتبكت دقات قلب أحمد ، وتهيأ لاستقبال سامية التى لابد أن تكون خلفها ، وفكر فى سرعة كيف يكون وقع هذا الموقف عليها ؟

ولكن فريدة أغلقت الباب من خلفها ..

وقد ترك ذلك أثراً غريباً فى ثلاثتهم ، وظلت نظرات أحمد معلقة بالباب وكأنه يتوقع دخولها .

وتقدمت فريدة تحيت الجالسين ، وأعادت تهنئتها لأحمد ، وظلت واقفة ومظهرها لا يخلو من وجوم ، ودعاها الدكتور للجلوس ، وهو يسألها فى غير اهتمام كبير .

— أين صديقتك ؟

فقالت وقد طفرت دموعها فجأة :

— إنها فى المستشفى منذ أمس ..

كانت سامية ترقد فى سريرها الأبيض بلا حراك . . وماكادت تملك رشدها فى الصباح ، وتشعر بشيء من صفاء الذهن بعد زوال أثر المخدر ، حتى راحت تستعرض بعض ذكرياتها العزيزة عليها برغم ما تنطوى عليه من قسوة أحياناً . . ما كانت تظن أنها تستطيع يوماً أن تمد يدها لأحمد . . أو أن تفتح فمها لمخاطبته . . كان إحساسها ومشاعرها تحيط به أينما ذهب . . مثل هالة الضوء التى تغمر الملاك ، ولكنها كانت غارقة فى مشاعرها الحبيسة ، تطلقها بين الحين والحين ، فى آهة مكتومة تخشى أن تشى بها .

كان ماضيها البارد الصامت يلح عليها ، ويطاردها مثل شبح مخيف ، ويجعل من نفسه رقيباً على تصرفاتها من حيث لا تدرى وكانت تحس ثقله أحياناً فتتمنى لو تمزق ثيابها وتنطلق متجردة من كل ما يعوقها عن تحقيق ذاتها وإرضاء أحاسيسها وخيالاتها ولكنها . . أبداً لم تكن تستطيع . وعندما أحبها أحمد ، بكل قوته ، وحرارته ، وشبابه أحست بحبه وألسنة اللهب التى تذيب ركام الجليد الذى يغلف حياتها . . ومشاعرها . ولكن أحمد أخطأ طريق البداية !!

لقد عرف أن صاحبته ، منعزلة ، لا تشترك فى أى من أنواع النشاط الثقافى أو الرياضى فى الكلية ، بل إنها تتحاشى الالتقاء بزملائها وتتجنب مخاطبتهم . . وخاف أحمد إن هو استدرجها للحديث أن تقف منه موقفاً سلبياً فتغور به الأرض !!

وقام أحمد بحركة استكشاف سريعة . .

فى حديقة الكلية ، فى تلك اللحظات التى تخلو من المحاضرات ، كانت سامية تقضى وقتها بين أحواض الزهور ، متنقلة أو جالسة مع صديقتها فريدة . وكان أحمد حريصاً فى أيام حبه الأولى ألا تغيب عن بصره . . كان يتبعها من بعيد مع صديقه زكريا ، فكانوا إذا التقوا تبادل أحمد مع فريدة التحية . . وكانت ترد . . ولكن سامية كانت تهرب بعينيها منه عند اللقاء ! . . . الذى كان يعذبه أنها كانت حريصة ألا تغيب عن بصره إذا تبعها . كانت تحس بقوته فى قلبها ، وكانت تستسلم لتسلطه

على مشاعرها ، ولكنها كانت تخشاه وتفر من الالتقاء به ، فإذا وقعت فى حيز نظراته ، أسبلت جفونها فى استسلام حبيب ، وكأنها فراشة تعشق نور الصباح ولا تملك إلا الاستجابة . وكان أحمد ينظر إلى استسلامها الحلو ، ويلذ له أن يقسو عليها ، ولا يرحمها ، فيظل مسلطاً نظراته عليها ، ويرى ارتباكها يتزايد ، وجهها يصطبغ بحمرة شفقية رائقة ، وشفتاها الرقيقتان مثل أوراق الورد تتجمعان وتتكوران بعض الشىء ، وكأنها تستعر بقبلة تذوب فيها ، وحاجباها المتباعدان يتقلص طرفاهما حول الأنف الدقيق ، ويتقاربان قليلا فى عبسة صغيرة ، يهش لها أحمد ، وتذوب أضلاعه حناناً ، ويكاد يفقد سيطرته على نفسه ، ويتناسى ما يحيط من جو الكلية ، فيقبل على صاحبته وقد فتح لها ذراعيه ، وضمها إلى جوانحه ، وأوسعها لثماً وتقبيلا ، ويذهب معها فى غمرة حب لا نهاية له . كانت باستسلامها له تثير كوامن رجولته ، وتستنهض همته القوية ، وإحساسه الطاغى ، ولكن ضعفها الذى تحرسه الكبرياء كان يخيفه ويشقيه .

كان يخشى إن هو حدثها حديث الزمالة الذى ليس به شىء من حب أن تنصرف عنه ، ولا تستجيب له مثلما تفعل ، وكان يخشى إن هو ترفق بها ، وأخذها همساً ونجوى أن تسىء فهمه فتحسبه يتذلل !!

وطالت حيرته ..

وسامية أيضاً طالت حيرتها فيه !! وأوشكت أن تصاب باليأس منه ، لولا أن قلبها كان معه .. ضد عقلها ..

كانت تفرح به إذا تحدث فى محاضرة ، وراق حديثه لأستاذه أو زملائه .. فرحة أم بوليدها الذى كبر .. وصار له بين الناس ألف حساب .. كانت تحس بكلمات الإطراء التى توجه إليه وكأنها أوسمة تعلق على صدرها ، وكانت تجد لها برد الراحة فى قلبها .. ولم تكن تبخل عليه بنظرة عبادة صامتة تباركه بها وتهنئه ..

— وفى يوم ربيعى .. امتلأت فيه أحواض الزهور بحديقة الكلية بألوان متباينة .. منسجمة جلست الصديقتان على حافة أحد تلك الأحواض ، وربما لاحظت

سامية أن أحمد وصديقه ليسا فى مكانهما المعهود .. وربما تكدرت قليلا ، ولكنها مالبثت أن استسلمت لدفء الشمس الحانية . وكانت فريدة قد ألقت بكتبها إلى جانبها ، ووضعت كيس نقودها فوق الكتب حتى لا تتطاير الأوراق . وارتكزت بكفيها على الحشائش تحتها فبرز صدرها وقد ألقت برأسها إلى وراء وكأنها تتأهب لعناق . . وراحت تستسلم لبعض أفكارها الدافئة .

ومضت لحظات صمت أطلقت فريدة على أثرها ضحكة صغيرة مكتومة ، رفعت لها يدها من فوق الحشائش ونفضتها مما علق بها ، وراحت توارى بها ضحكتها النزقة ! !

وتنبهت سامية لما تفعل صديقتها ، ودهشت لطريقة جلوسها ، فقالت فى سخرية خفيفة :

— اللهم اجعله خيراً .

— خير .

وابتسمت فريدة وعادت تقول ، وهى ما تزال مستسلمة لدفء الشمس فى جلستها الغريبة :

— من فوائد اقتراب الامتحان أنه يهز الأعصاب ! .

— سلامة أعصابك . . هذا واضح جداً . .

— ولكن من المؤسف حقاً أن تتقدم إحدى عجلتى السيارة بينما تتوقف الأخرى . . إنها تدور حول نفسها . . وربما تتحطم .

فقالت سامية وهى تنصرف بعينيها عن صديقتها :

صدقينى . . إننى لا أفهمك .

قالت وهى ما تزال فى شرودها :

— ومن الذى يفهمنى ؟ بل من الذى يفهم شيئاً فى هذا العالم ؟ من الذى يستطيع أن يزعم أنه يفهم شيئاً ما فى هذا العالم ؟ إنها وقاحة . .

— فعلا .. يا سفسوطة هانم .

— سفسوطة !!

— نعم .. إن ما تقولينه هو السفسطة .. ولم أجد ما أطلقه على حضرتك سوى .. سفسوطة هانم ..

فشملت فريدة صديقتها بنظرة ساخرة . وقالت باحتقار مصطنع :

— فقد اهتزت أعصابك أنت أيضاً .. وعلى كل حال .. مبروك .. المواهب متكافئة !!

وابتسمت فريدة في خبث وقالت وهى تمسك بذقن صديقتها :

— بذمتك .. أما فهمت شيئاً ؟

قالت سامية وهى تنحى يدها :

— بذمتك .. مافهمت شيئاً !!

— هذا رأيي !! المهم .. لقد اهتزت أعصاب صاحبنا .. ولكني ..

وفى لمحة .. حدست سامية كل شيء ، ولكنها قالت فى تجاهل :

— من صاحبنا ؟

— وكم صاحب لك ياحبيبتى ؟

ولم تجد نتيجة للتغابى ، فقالت مستسلمة وهى تتنهد :

— آه .. وماذا يريد ؟

قالت ساخرة وعلى فمها ابتسامة لا تخلو من غيظ :

— بعث إلى يخطب ودى ، يريد أن يستطلع رأيى .. أن يسمعنى أعزف له لحن الحب ، أن أرفرف بجناحى من حوله .. أن أدعوه معبودى الأوحد ..

— مسروق .

— آه !!

— هذا الشعر مسروق .. وقد تعلمت اللصوصية .

— لا تهربى .. إنه يريد منك كل ما سمعته منى .. طبعاً هو لم يقل كل ذلك .. ولكن الحال أفصح من المقال ..

قالت سامية وقلبها يفيض بأسى عميق :

— ماذا قال على وجه التحديد لك ؟

— على وجه التحديد .. قال .. ربما لا يعجبك ما قاله .

قالت سامية بنفاد صبر :

— قولى .. سيعجبنى ..

— هذا هو الحب .. لقد خمنت ذلك .. الماء الخادع تحت التبن ، يا .. يا .. سلة كليوبترا ..

— سلة كليوبترا !!

— التين والثعبان ! !

— ألا تكفين عن معاندتى وتكلمين إلىّ رسالته بثقة ؟

— نعم .. وبكل أمانة .. وأنت المسئولة .. قال ..

وبدأت فريدة تحاول أن تقلد صوت أحمد ، وحركته أثناء الكلام ، حين يضع يده فى جيب سترته ، ويهتز معها برفق ، متساوقاً مع النغم :

— جدتى فقط هى التى ظلت خلف الحجاب حتى أتى إليها جدى فأخذها إلى منزله ، ووضعها خلف حجاب آخر .. أما أنا .. الحفيد .. فى القرن العشرين .. فلست مثله وربما أننى لن أضع زوجتى .. أحم .. أحم .. خلف الحجاب .. فلا بد أن تتحرر من حجابها قبل الزواج ..

— لم أفهم شيئاً ..

— هذا رأيى .

ثم عادت تقلد صوت أحمد وحركته :

— أرى أنه لا بد من لقاء بينكما .. لقاء متكرر .. على الطريقة التى ترضاها نفسك .. هنا فى الكلية مثلا .. حتى يحدث التفاهم المطلوب .

وصمتت سامية بعض الوقت ، ثم قالت بصوت مختنق متحشرج :

— وأنت ما رأيك ؟

قالت بحزم :

— لو أننى مكانك .. لاستجبت فوراً .. أحمد أهل الثقة ، ويحبك .

— والناس ؟

— ملعون أبو الناس .. إنهم لن يقدموا لى عريساً .. زوجى هو كل الناس عندى ..

كم أهانها أحمد وجرح كبرياءها .. فى هذا الجانب الخاص الخفى من عواطف البشر ... يذهب ليحدث فيه صديقتها ؟ .

لو أنه بعث به فى رسالة .. أو همس به فى أذنها فى مكان موحش ليس فيه أحد .. أما الوساطة .. ما أردأها من وسيلة بين المتحابين .. إنها رقابة وتوجيه .. وقد ملت الرقابة والتوجيه ، وحسبت أن المهرب فى حب أحمد .. ولكنه لا يفترق عن الآخرين كثيراً ..

ماذا يريد منى ؟ أن أحبه ؟ إنه يعرف ذلك .. ما هذا الذى يقرأه فى عينى إن لم يكن الحب ؟ ؟ لكنه لا يقنع بذلك ولا يصبر عليه ، ثم لا يسلك إلى المزيد الطريق المألوف فيذهب إلى والدى .. كلا .. إنه لا يريد فتاة تفكر بطريقة جدته .. أنا مثل جدته ، ولكى لا أكون مثلها يجب أن أقف معه الساعات الطويلة فى حديقة الكلية نتهامس بين الأشجار ، ونلغى عقلنا .. ورأى الناس فينا .. هذا ما يريده .. واهتزت المعالم أمام ناظرى سامية ولكن ثقتها فى أحمد

لم تهتز .. لقد ظلت تحبه ، وتفنى فيه ، وتشعر به سيدها .. ومالك قلبها .. فقط زاد انطواؤها فكثرت نظراتها المتلصصة عليه .

وصل أحمد فى تيه لا حدود له .. ولكنه لم يمل السير علّه يصل إلى ساحل أمان .. وظل يرقب الفرصة إلى أن لاحت يوم فاز بالجائزة . ولمس أصابعها .. فأحس بأن تغييراً ما يجب أن يهز العالم مثلما اهتز قلبه . وبات يحلم بتطور جديد يقضى على أسطورة الدكتور راضى . ولكنه فوجىء فى الصباح بعدم حضورها .. وعندما أخبرتهم فريدة أن سامية فى المستشفى ، لم يكن أحمد يعلم بأن سامية نفسها سعيدة سعادة لا حدود لها حين وجدت نفسها فى عزلة عن الكتب ، مجبرة على السكون عن أى حركة .. إنها فرصتها لتفكر فى قضية طال خوفها من الخوض بها .. قضيته معها ..

وربما كان أحمد فى أعماقه ، بعد أسفه وحزنه فوجىء — سعيداً بمرض سامية الذى لا يدرى كنهه .. ألم يمكن يكون له ، دخل فى هذا المرض .. ثم .. أليس مرضها فرصة جديدة لتوثيق صلته بها ..

وإظهار حبه لها ..

لكن إذا ابتسمت شفتاه ابتسامة باهتة لهذا الخاطر الغريب هل يطاوعه قلبه على الخفقان به ؟

كانت سامية جائشة النفس بالمعانى المتضاربة عقب لقائها بأحمد .. وكانت سعيدة .. لأنها استطاعت أن تمد يدها لأحمد .. أن تنتصر على تعثرها وخوفها منه .. أن تنقل إليه إحساسها المضطرم فى لمسة يد .. وفى لمحة طرف ..

كانت خفقات قلبها الغاص بالمشاعر ، الذى علت دقاته واضطربت .. كانت تلتذ بها ، وتتحملها فى رضا وحنان .. كأنما قامت هذه الدقات التى تكشف إحساسها وتشى به ، برسالتها ونقلتها إليه ..

لكن هذه الدقات السعيدة ما لبثت أن تعثرت وتحولت إلى ارتباك أغرقها عندما راحت تستعيد تلك اللحظات التى وقفت فيها أمامه ، وتسترجع ما قالته له ..

كم بدت لنفسها ثقيلة الظل سخيفة عندما تذكرت أن الكلمة الوحيدة التى قالتها له : « إننى لا أخرج فى الليل » ما معنى هذه الكلمة ؟ وهل يمكن أن تكون ذكرى عزيزة لأول ما يسمعه منها ؟ ذكرى يفتشى لها ويجد مذاق حلاوتها فى قلبه ؟ هل تكون هذه الكلمة الجافة معبرة عن صورتها هى فى نفسه ، ومحددة لمعالم شخصيتها التى لا شك أنه يتوق إلى تحسس جوانبها واكتشاف مخبآتها ..

وتعجلت سامية فى العودة إلى البيت ، لتنفرد بنفسها ، كان رأسها الملىء بالأفكار المتضاربة ، وقلبها الغارق فى لجج العواطف ، فى حاجة إلى لحظة صمت .. صمت لا يزعجه ضوء الشمس ..

وعندما أغلقت سامية باب حجرتها من الداخل واستدارت لتستلقى على سريرها الصغير فى جانب الحجرة . وقبل أن تتحرك . رأت صورة وجهها فى المرآة التى تواجه الباب ، ودهشت لما ترى على وجهها من شحوب وعلامات إعياء ، وتحركت صورة وجهها الشاحب الحزين فى خاطرها فتقدمت نحو المرآة حتى لامستها بجبهتها وأنفها ، فاستراحت لمسها البارد الناعم وحدقت فيها بعينين شاردتين ، وعادت تستعرض ماحدث فى هذا اليوم .

« أنا لا أخرج فى الليل . . ما أغبانى ، وإذا لم يدرك من ذلك أن غبائى لا حدود له فإنه يكون غبياً ... اللهم .. ها .. لقد بدأ يصعد السلم .. إنه متوهج مثل شعلة لا ينفذ زيتها .. وهو فى حاجة إلى رفيقة تضع يدها فى يده ، فهل أستطيع أن أكون تلك الرفيقة ؟ لو أن الله قسم جسارته وحدة لسانه علينا بالتساوى ، وقسم صمتى وهدوئى علينا بالتساوى لكنا اثنين لا نظير لنا . . ولكن . . آه يا إلهى . . كم أحبه على هذه الصورة .

وراحت سامية بخواطرها المرهقة تتخيله فى الصورة التى تمنتها له وقد حمل عنها نصف صمتها وهدوئها فبدأ غريباً على نفسها لا يثير فيها أى إحساس جذاب ، فقلبت شفتيها فى امتعاض ، وعادت تتمتم : بل إننى لا أهواه إلا فى تلك الصورة .. كم أتمنى لو رأيته فى لحظة وميضه وتألقه . . هذه الليلة . . ولكن كيف ، والناس لا يرحمون . ربما ذهبت عشرات الفتيات من الكلية ، ولن يلتفت لذلك أحد من زملائهن ، ولكن إذا ذهبت سامية فإن الأنظار والألسنة ستسد أمامها الأفق والوشايات والاختلاقات ستفسد على ما بقى لى فى الكلية من أيام . .

لا . . لن يحدث ذلك . . لن أذهب .. إن الله الغنى . . سيراه كثيرون . . ولكنه من هناك . . لن يرى غيرى ، وهذا عزائى الوحيد . .

وبعد ساعة . . وهى ماتزال واقفة أمام المرآة تقلب الأفكار والمواقف ، أحست بألم خفيف يعبر بطنها من الجانب الأيمن ، فتجاهلته قليلا ، وحسبته ليس إلا صدى لخواطرها المتألمة ، وعادت إلى أفكارها ، لكنه اشتد بها مرة أخرى ، فأخذت تدلكه براحتها ، وهى تتأوه من عذاب روحها ، وحيرتها . . وسكت عنها الألم ، لكنه عاد فى منتصف الليل قوياً عاصفاً ، يكاد يمزق أحشائها ، ويخترق جدار بطنها ، فلم تستطع كتمان صرخة جزعة ، أيقظت خالتها . . . وبعد لحظات استيقظ كل من فى المسكن الصغير ، وحملتها سيارة إلى المستشفى ، وبعد ساعات كانت فى غيبوبة كاملة بعد إجراء جراحة خفيفة .

واستيقظت فى الصباح على يد فريدة ، تمسح جبينها برفق ، وتصلح وضع خصلة

من شعرها المتهدل . . وما إن فتحت عينيها ورأتها ، ورأت ما على وجهها من حنان وحب يفيض من عينيها وتنقله إلى أعصابها لمسات أصابع صديقتها وهى تسوى شعرها ، ما إن رأت ذلك حتى ابتسمت فى إعياء ، وهى تحاول أن تخرج يدها من تحت الغطاء لتمسك بيد صديقتها ، ولكن فريدة أحاطتها بذراعيها تمنعها من الحركة ، وانحنت عليها برفق وقبلتها فى جبينها ، ثم قبلت أطراف أناملها التى ظهرت من تحت الغطاء ، وهى تهمس فى حب متفجر :

— « حبيبتى » .

قالت سامية وعلى شفتيها ابتسامة ذابلة . . زادها الألم رقة :

— لقد أوشكت حبيبتك أن تموت أمس .

قالت فريدة ، ودمعة ساخنة تفر من عينيها :

— لا تقولى ذلك يا حبيبتى أنت بخير .

— من أخبرك بأننى هنا ؟

قالت فريدة وهى تجلس على حافة السرير :

— لقد مررت عليك فى الصباح ، ولما عرفت ما حدث ، ذهبت إلى الكلية لأخبر صديقاتنا ، ثم عدت إلى هنا فى الحال .

فصمتت سامية لحظة وهى تحاول أن تستعيد صورة وجوه صديقاتها ، وتحاول أن تتخيل ملامح كل واحدة حين تسمع نبأ مرضها ، وراق لها — لحظة قصيرة — أن تكون موضع استثارة خاصة بين كل هؤلاء ، وأنهن لا بد أن يزرنها فى المستشفى ، ولابد أن تمس قلوبهن جميعاً .

وفرغت من ذلك فى سرعة كأنها مسحته بيدها من صفحة مخيلتها ، لتخلص لصورة أخرى يهمها أن تراها حين تسمع نبأ مرضها . . أحمد ماهر . . كيف تلقى النبأ ؟ لكن ما أدراها . . لعله لم يعرف حتى الآن . . ربما شغلته الجائزة عن ملاحظة تغيبها عن الكلية وهنا قالت سامية وهى مغمضة العينين :

— لقد أثرتم الدنيا على أمر بسيط لا يستحق كل هذا الاهتمام .

— مرضك أمر بسيط ؟

— إنه على أى حال لا يهم سوانا ..

فقالت فريدة مؤكدة :

— بل يهم أناساً كثيرين .. وقد عرفه كل من يهتم به حتى لا يكون هناك مكان لعتب .

كانت فريدة قد وجدت من نبأ مرض سامية المفاجىء ، فرصة جديدة لمحادثة زكريا ، والدكتور راضى ، ومن ثم فقد حملت إليهما النبأ ، واستطردت فى ذكر بعض ما سمعت من خالة سامية ونسجت حوله كثيراً مما لم تسمع ، ولوحت لكل من حدثته بأن الزيارة أمر واجب .

فقالت سامية بارتياح :

— لا داعى لإزعاج الناس .

ورأت أن هذا لا يكفى للوقوف على : هل عرف أحمد نبأ المرض أو لم يعرف ، فأضافت :

— وخصوصاً إذا كانوا فى أيام سرور نادرة ..

فتنبهت فريدة لمرامى صديقتها ، وقالت على الفور :

— لقد حدثت مفاجأة لم أتوقعها .. خمنى ..

وخمنت سامية — فى سرها — وتمنت أن تكون المفاجأة أن أحمد قد حلم بمرضها ، وأنه أخبر به فريدة قبل أن تخبره ..

وظلت سامية صامتة .. فعادت فريدة تقول :

إنك لن تصدقى .. لقد كان أحمد وزكريا فى الاستراحة يشربان الشاى مع الدكتور راضى كأعز الأصدقاء ..

فاهتزت سامية للمفاجأة قليلا ، ولكنها تمالكت قائلة :

— ولماذا لايكونون أصدقاء ، ماذا يوجب العداء بينهم ؟

فقالت فريدة بمكر :

— وهل تجهلين ما حدث . . أو تجهلين أسبابه ؟

— لا شأن لى بأسبابه .

— كيف وأنت السبب الأول ؟

فقالت سامية فى هدوء وكأنها تشرح موقفاً تؤمن به ؟

— إننى لا أستطيع أن أتصور أن الدكتور راضى يحبنى بالمعنى الذى يحبنى به أحمد . . إنه مثل والدى . . ومتزوج . ثم إن علاقتنا به كما تعرفين لا تتعدى التوجيه فى الدراسة .

— والحديث فى الحب أحياناً . . هل ننكر أنه يختار ألوان ثيابنا ، وتصفيفات الشعر أحياناً وإننا نتأثر برأيه وذوقه .

فقالت سامية بألم حقيق رغم تسليمها بالواقع : هذه مبالغة ، إنه يتحدث أمامنا أحياناً بمشاهداته فى أوربا ، وأذواق الناس هناك .

فأكملت فريدة بنبرات لاتخلو من قسوة : فنتأثر بآرائه وتجاربه .

فشهقت سامية مستدركة : ربما ولكن بغير تعب .

— هذا لايغير من الواقع .

— وهل هذا هو الحب ؟

— تلك علامته . .

— كلا لا أظن ذلك صحيحاً ، يمكن أن نتأثر بحديث فى الراديو وبصورة فى

بجلة (صمتت قليلا ثم أضافت) : لقد لاحظت أحياناً أنه يتحرف بحديثه معنا ، ولكن ما أحسبه يحبني ، وإذا كان فإنه يحبك أنت .

قالت ذلك بلهجة من برأ نفسه من تهمة كانت ثابتة عليه .

فشهقت فريدة وضربت بيدها على صدرها قائلة ، وهي لا تملك نفسها من رنة فرح متوارية .

— أنا . .

وسيطرت سامية مرة أخرى على توجيه الحديث حين اكتشفت أنه يبعد بها عن معرفة صدى نبأ مرضها على أحمد .

فقالت :

— نعم أنت .. أحمد مثلا .. يحبني ، ولذلك فإنه حريص على إرضائي حتى ونحن لا نتحدث ولا نلتقي ، وهو نفس مايفعله الدكتور معك ، يتحدث دائماً عن الجمال المصري ، والقوام المصري ، والسمرة الرائقة ، وخفة الدم . . ويعلم الله أنه يعنيك .

فاستخفت فريدة الفرح ، وقالت بتحفظ مشبوب :

— أخجلتم تواضعي . . وبالمناسبة . .

فتنهدت سامية في ارتياح وهي تخمن ماستسمع . وأسبلت جفنيها لينطلق خيالها وراء ماتنتظر من كلمات .

وقالت فريدة بخبث :

— لقد حملني الدكتور أطيب أمنياته . . وربما أتى لزيارتك . .

— طيب .

— طيب . . بمثل هذا الجفاء تستقبلين زيارته ؟

— وهل تنتظرين مني أن أذهب لشكره . .

وتريثت فريدة قليلا ، ثم قالت بنبرة ذات مغزى :

— وأحمد وزكريا يستأذنان فى الزيارة — يستأذنان ؟

— لم يقولا ذلك ، ولكن دل عليه كلامهما .. ما رأيك ؟ أنهما طبعاً سيحضران فى موعد أكون فيه معك .

« هل أصبحت مخيفة إلى هذا الحد . . ألا يستطيع أحمد أن يقدم لزيارتى دون أن يمهد لذلك عند فريدة . . إن هذه الفتاة . . أصبحت تضايقنى . . لولاها لكان أحمد هنا الآن . . لكنه يعبر الطريق الأسهل .

هكذا حدثت سامية نفسها ، فعلا وجهها شحوب حزين ، ثم رقت ملامحها حين رأت بعين خيالها أحمد وقد وضع يده فى جيب سترته ، وشعره الأسود اللامع متهدل قليلا فوق جبينه ، وهو يدخل من باب حجرتها وكله حب وإشفاق ، ولا يدرى كيف يحييها ، وخفق قلبها خجلا وارتباكا وهى فى حيرة كيف تستقبله . .

وهنا قالت سامية :

— إننى لا أستطيع أن أستقبله فى السرير ؟

— أنت مريضة ، ولا حرج عليك . . ثم إن زكريا سيحضر معه . . دعينا نراها بعيداً عن جو الكآبة . .

قالت سامية فى استسلام .

— افعلى ما يحلو لك .

فقالت فريدة فى انتصار :

— لقد فعلت . . سنلتقى هنا غداً بعد الظهر . .

ورمقتها سامية بنظرة متسائلة حائرة وكأنها تقول :

— أيتها السافجة الماكرة .. أين أعماقك ؟

لم يبدأ الجفاء بين الدكتور راضى وبين حياته المنزلية ، وتفكيره الدائم فيما تنتهى إليه أموره ، لم يبدأ ذلك دفعة واحدة ، وعلى حين فجأة . .

بدأ . . ربما . . برائحة شهية نفاذة ، تسللت إلى أنفه من وعاء فيه (ملوخية بالأرانب) أو طبق من (محشى الكرنب) أو (الفتة بالثوم) على مائدة بعض أصدقائه . .

لم تكن هذه الأكلات الشعبية هى التى تثير حبه للحياة التى افتقدها ، فإنه يستطيع أن يعثر عليها إذا غير الطباخ اليونانى الذى يعمل عنده بآخر مصرى . . وقد فعل . . ولكن هذه الأطعمة المصرية الصميمة ، كانت توقظ فيه ذكريات عزيزة ، وتحوطه بجو غريب حبيب إلى نفسه . . ربما فيه ذكريات حاجة وعوز، وكفاح ضد الضياع ، أيام كان طالباً صغيراً بالكلية . ولكن هل ينسى أن تلك الأيام القلقة هى التى صنعته ، وأنها الآن أحلى أيام العمر .

وربما ذكرته بجلسات الطفولة إلى جانب أمه فى القرية ، وهى تمد يدها إليه من تحت (الطبلية) بقطعة من اللحم أكثر مما يستحق : وتواريها حتى لا تغضب أخواته الآخرين ؟؟ إن حياته الحاضرة لا يمكن أن تكون امتداداً لتلك الحياة التى عاشها من قبل ، لقد فقدت الشجرة جذورها ، وأنها لا يمكن أن تعيش سالمة ؛ وحدث مرة إن دعا الدكتور راضى صديقاً للغداء ،وفى اليوم المحدد ؛ وبينما هو يتأهب لاستقبال صديقه دق التليفون يحمل اعتذار الصديق عن عدم قدرته على تلبية الدعوة لأمر طرأ فجأة .

وسأل الدكتور صديقه فى شىء من العجب :

ــ هل حدث ما يستوجب بقاءك فى المنزل ؟

ــ لقد زارنى والدى ووالدتى فجأة . . وهما قادمان من الريف ، ونحن لا نلتقى إلا قليلا وأرجو أن تقدر عواطفهما وتدعنى لهما هذا اليوم .

وقال الدكتور مستسلماً :

— كما تشاء .

ووضع السماعة وانتهى الحديث عبر الأسلاك ليبدأ حديث النفس :

« والده الريفي وأمه في زيارته .. وهو يلغي موعده معي في آخر لحظة احتراماً لعواطفها ، وإرضاء لعاطفته .. فهل أتحت لك الفرصة لتفعلها يا حاج مرسى !! أين أنت وأين أمي !! تباً لهذه الحياة التي أحياها ، لقد أفسدها التصنع ، وغلفها برود قاتل ، برود غشى كل شيء حتى العواطف !! » .

مثل هذه اللمحات السريعة كانت تعمل عملها في نفس الدكتور ، كانت تجذبه إلى ماضيه ، وتسلط أضواءها على واقعه الذى يحياه ، فيبدو له بارداً جامداً ، يصيبه بالتصلب والموت ، ويقضى على أعز ما كان يملك من عواطف وأحاسيس. ولم تكن ماريانا تهتم له كثيراً . كانت ترى وجومه وشروده ، وتلحظ كثرة صمته وتجافيه ، لكنها كانت قد اعتادت منه مثل هذه النوبات التي يعود بعدها إليها طالباً الصفح ، مبالغاً في الاندماج بالجو الذى تحيط به بيتها ..

لقد آمنت ماريانا بثقة ، أنها إن لم تكن ضرورة عاطفية لزوجها ، ترضى عواطفه وغرائزه وتنجب له الأطفال ، فإنها ضرورة ذهنية له ، تساعده في القراءة، وتناقشه ، وتراجع مايترجمه ، وأنه من أجل ذلك كله لا يمكن أن يفكر في إغضابها .

ولما التقى الدكتور بسامية وفريدة ، أعجبه هذا الثنائي اللطيف ، وآثره على سواه ، إذ استطرف اجتماعهما على صداقة وطيدة برغم ما بينهما من تضاد في بعض الطباع .. فريدة جريئة لبقة ، لاذعة النكتة .. ساخرة ، لاتتردد ولا تستشعر خجلا وسامية حيية وادعة ، تغرق في شبر ماء ، وتسلم بأشياء كثيرة قد لاتريدها أو ترغب فيها ، لمجرد أنها تود إنهاء الموقف .. ولا تقوى على حدة النقاش..

وقد بدأت صلة الدكتور بتلميذتيه في أعقاب عودته من أوربا .. ففي محاضرته الأولى عرف طلبته بنفسه ، وبنوع دراسته وتخصصه ، وعلى سبيل التبسط ، وتوثيق

العلاقة بينه وبينهم ، أخذ يسرد بعض ما رأى فى انجلترا ، وبعض المآزق التى وقع فيها ، وأخيراً قال :

— إذا كان هناك أسئلة بهذا الخصوص ، فإنى على استعداد للاجابة عنها .

وبدأت أسئلة خجلة ، مقتضبة ، عادية ، ولكن الدكتور أجاب عنها بصراحة وشجاعة تتطلب المزيد . وهنا قامت طالبة بشىء من التردد ، وسألت سؤالا بدا عادياً مألوفاً .

— ما أهم تغيير نفسى حدث لك بسبب زيارتك لأوربا مدة طويلة ؟

ودهش الدكتور الشاب للسؤال الذكى ، وعلى صاحبته وكانت تقف فى الصف الأول ولعله نسى نفسه للحظات قصار فشملها بنظرة فاحصة ، فتجاوب ارتياحه للسؤال مع ارتياحه لصاحبته بسمرتها الرائقة، وعودها المشوق الممتلىء بعض الشىء، وعينيها السوداوين الصافيتين ، وضفيرتيها المرسلتين من خلفها بلا تكلف . . ولم يغب عن خاطره أن صاحبة السؤال فتاة ، وأنه من أجل ذلك يجب أن يرتب إجابته على نحو خاص ، فقال : — هناك — بلا شك — تغييرات كثيرة ، وهامة ، ولكن أهمها فيما يتعلق بالجانب النفسى لى كرجل ، وهو النظر إلى المرأة على أنها ليست كما ينظر إليها هنا . . وإنما على أنها شريكة متساوية الحقوق فى البيت مثل زوجها تماما ، وبلا أدنى تفضيل يتيح له أن يتحكم فيها ، أو يسىء استعمال سلطته عليها ، فالبيت الأوربى يعطى المرأة نفس الحرية المعطاة للرجل .

قالت الفتاة التى كان يجب أن تكتفى بهذه الإجابة وتجلس :

— وهل سعدت بذلك المرأة الأوربية ، واستقام حال البيت الأوربى ؟

— بدون شك .

قالت الفتاة :

— سيدى . . إنكم دائماً تسألوننا عن (المراجع) ! !

فابتسم الدكتور فى جذل ، وتراقص فى وقفته مسروراً بلباقة الفتاة ، وقال وهو مايزال مبتسما :

— المساواة عدالة . . هذه حقيقه مطلقة لاتحتاج إلى دليل من المراجع !

— نعم . . ولكن هل أستطيع أن أقول : أن للمراجع التى أملكها ، وهى نفسى ، نفس فتاة ، تقول إن المساواة تضر بالمرأة ذاتها ، وتفسد عليها عواطفها وأحاسيسها . . إنى لا أستطيع أن أتخيل أن المرأة الأوربية سعيدة بالمساواة ، وأن البيت الأوربى مثالى نتيجة لهذه المساواة . . إن التمييز واجب فى بعض الأحيان . إنه اعتراف بالمواهب ، وبالقدرات وهذه حقيقة مطلقة أيضاً .

واعترضت الطالبات ، أو كثير منهن ، وضج الطلبة مشجعين ، وانتهت المحاضرة بجدل عنيف بين الطلبة وزميلاتهن . . وظل الجدل تخف حدته مع الأيام إلى أن انتهى تماماً . . ونسى هذا الحديث . . ولكن صاحبة هذا الرأى صارت صديقة أثيرة لأستاذها الذى كان أهم تغير نفسى حدث له فى أوربا هو إيمانه بالمساواة !!

وهكذا بدأت صداقة الدكتور بتلميذته فريدة .

وعن هذا الطريق تعرفت سامية بالدكتور ، الذى رأى فيها نموذجاً آخر يغرى ضعفه ببسط الحماية ، وإظهار البطولة أحياناً !!

وكان يشعر فى التقائه بهما بارتياح عجيب، تحول مع اعتياده إلى شغف بلقائهما وبدأت الغيرة تدب فى نفسه عند ما لمح اهتمام أحمد وصديقه بسامية وصديقتها . وإذا كان قد اعتاد التفكير فى الفتاتين معاً ، جملة واحدة ، والالتناس بهما معاً ، فإنه بعد أن اكتشف بذور الغيرة التى تحركه ، وتتحكم فى حديثه أحياناً ، بدأ يسأل نفسه أيهما أقرب إلى نفسه ؟ وهل يمكن أن يتطور هذا الوضع إلى ماهو أعمق ؟؟ وكان يظن أن إقباله على الطالبتين لايثير أفكاراً عند أحد ، ولكنه بعد ماسمع من زكريا وأحمد فى محاضرة « الحركة المسرحية » اكتشف أنه مخدوع فى ظنه . وتمنى أن

يبرأ من قلقه كله ، بأن يعود إلى سابق عهده فى الاندماج فى الحياة التى رسمتها زوجته وصنعتها .. ولكن بلا جدوى !

وعند مرضت سامية مرضها المفاجىء ، وجدها فرصة لزيارتها على انفراد ، بعيداً عن جو الكلية ، بطريقة لاتثير ارتياب أحد . ولا تعتدى على خشيتها وعزوفها عن الالتقاء بأحد منفردة .

كانت الشمس تجمع خيوط أشعتها الأخيرة التى بعثرتها هنا وهناك استعداداً للمغيب . عندما فوجئت سامية الراقدة فى سريرها بالدكتور يدخل متسللا فى رفق .

وأخذتها المفاجأة . واستاءت لاستلقائها أمامه فى السرير . وحاولت النهوض . ولكنه أسرع خطوة . ووضع صندوق الحلوى الذى يحمله جانباً . وضغط كتفها برفق . فتهاوت فى فراشها تفادياً للمس يده . وهى لاتدرى ماذا يجب أن تفعل .

وأحضر الدكتور لنفسه كرسياً من جانب الحجرة . وقال وهو يجلس :

— لقد تركت فراغاً كبيراً فى قلوبنا ياسامية بغيابك .

وكانت سامية مشغولة ببعض أفكارها . فلم تلتفت إلى حديثه . وقالت :

— لماذا أتعبت نفسك ياسيدى .. لقـــد بلغتنى فريدة سؤالك عنى . وإنى لشاكرة .

وتطلع إليها الدكتور . وقد شحب لونها قليلا . فبدت رقيقة مثل الطيف . وفمها الوردى الدقيق منطبق فى فتور يزيده جمالا .. ويغرى بالتقبيل . فأسند راحته على الوسادة إلى جانب رأسها وهو يقول :

— أنت أهل لكل خير ياسامية . ولك عندى منزلة خاصة كلها احترام لك وثقة فيك .

قالت الفتاة وقد أفزعتها حركة يده فخلت وغاض لونها .

— لو أنك أخبرت فريدة بموعد قدومك ياسيدى لكانت هنا ، ولجبرت تقصيرى فى تقديم التحية لك .

قالت ذلك وأخرجت كفها من تحت الغطاء الصوفى فى حركة غير واعية ، تتحسس الفراغ من حول رأسها ، وكأنها تخشى أن تكون يد الدكتور ملامسة شعرها . وهنا حرك الدكتور يده قليلا فأمسك براحتها الدافئة الرقيقة ، وفاجأتها الحركة فتركت يدها له .

وحدق فيها الدكتور بمسكنة من خلف نظارته ، وراوده خاطر أن النظارة لاتناسب هذا الموقف ، فرفعها من أمام عينيه ، ووضعها فى جيبه بيده الأخرى ، وقال ، وهو يقاوم ابتسامة مرتجفة :

— يدك دافئة ياسامية !!

— . . . . .

— هل تشعرين بحرارة ؟

— قليلا . .

— ومع ذلك فإن هذه الحرارة تزيدها جمالا ، وإنى لأرجو أن أنعم بلمسها فى . .

— إنك تلمسها الآن يا سيدى !!

— فى مناسبة أخرى . . لاتكونين فى المستشفى ولا فى الكلية . .

وبدأت تحس بضغط أصابعه النحيلة الطويلة على راحتها ، فازداد إحساسها بالضيق ، وسحبت يدها برفق ، وهى تكبت ثورتها ، وقطبت قليلا ، وقالت بلا غضب ، كأنما أمدها مرضها بشجاعة غير عادية :

— إنك بذلك تحرم على مجرد التحدث معك . ولو كأستاذ فى الكلية .

وابتلعت ريقها بصعوبة . وقالت وهى تلهث لهاثاً خفيفاً :

— إنى آسفة ياسيدى الدكتور لسماع ذلك منك أنت .

وبقى الدكتور إلى جانبها بضع دقائق . يحاول أن يقول شيئاً . ولـكنه كان يشعر بسخف كل مايقول . فتوقف ، وخرج مهزوماً محطماً ، يجر جسمه جراً ، وقاد سيارته بجنون إلى بيت أحد أصدقائه ، وظل معه بضع ساعات ، وكأنه يخشى أن ينفرد بنفسه .

وعندما عاد إلى بيته فى الليل ، كانت ماريانا قد أوت إلى الفراش ، فاستلقى إلى جانبها وأحس بحاجته إلى السلوى . وظن أنها أحست به . فاقترب منها قليلا . وهو يتوقع أن تلتفت إليه . ولـكنها ظلت مستغرقة . فأحاط عنقها بذراعه وجذبها إليه برفق فتأوهت وكـأنها تستيقظ من كابوس . فاطمأن إلى أنها استيقظت . وانزلق بيده إلى خصرها . ولـكنها رفعت يده وهى تهتف فى ضيق شديد :

— دعنى . . دعنى . . اذهب حيث كـنت . . ودعنى حيث أنا .

ونهض بصدره محاولا عناقها واستعطافها . فالتقط أنفه رائحة شراب خفيف ينبعث من فمها ، وهنا ذهبت رغبته . . فأطفأ النور . وأحس بالغثيان يستولى عليه وظل يحملق فى فضاء الغرفة المظلم فى ذهول إلى أن . . نام .

كم تبدو الأشياء الجميلة تافهة غير ملفتة إذا لم تكن فى خدمتنا ! !

كان صباحاً نادراً من شهر يناير .. رقت نسمته كأنها آهة عاشق ، وانداحت شمسه الدافئة على الأجسام مثل قبلة دافئة تغمر كل الوجوه .. ولكن أحمد ماهر كان يسير فى فناء الكلية ، لا يشعر بشىء من لمسات الطبيعة الحانية ، ولا يلفته تفرق زملائه وزميلاته فى جوانب الفناء الواسع مثل باقات زهور لم يخطئها الذوق الرفيع !! بل ولم يلق باله إلى زكريا السائر إلى جانبه هو الآخر فى صمت .

كان أحمد يفكر متى تمضى ساعات الصباح ، وينقضى اليوم الدراسى حتى تسبقهما فريدة إلى المستشفى ، ثم يلحق بها مع صديقه .. وكان كلما فكر فى هيئة ذلك اللقاء الذى سيتم على نحو لم يكن يتوقعه اختلط تفكيره ، وارتبك !! إنها حبيبة مريضة .. فلأيهما يكون الحديث ؟ وكيف يبدأ معها حديثاً لا ينهيه إلا فى الكلية ؟ حديثاً يكون بداية لأحاديث كثيرة ؟

أما زكريا ، فبعد أن قرر أن تلك الزيارة لحساب صديقه فإنه عاد ليتفحص موقفه على ضوئها ، ماذا هو فاعل مع فريده ؟ هل سلم بحبها ؟ هل هى حبه المأمول؟ أم أنها — كما اعتقد طويلا — ترضى ذوقه ولكنها لا تناسب طموحه ؟

ومضت الخطوات الذاهلة للرفيقين تجوب أنحاء الحديقة على غير وعى ، وبغير خطة كأنها تبحث عن شىء مفقود .

— مبروك .

قالها زميل وهو يضرب بكفه على كتف أحمد الغارق فى مفاجأة نفسه ، فأفاق لها وكأنه يصحو من حلم . وذكر فى ومضة ذهنية خاطفة ، أنه فى مثل هذا اليوم ، يوم مملوء بالتوتر وبالترقب ، وفى لحظة عاصفة ضاقت عليه فيها نفسه ، جاءه من يقول له مبروك ، وبشره بأول جائزة فى حياته . لكنه واثق أن هذه ليست بشرى بجائزة ، وقال ملهوفاً مستوضحاً :

— ماذا ؟

— عريس .. عقبى لنا .

وأوشك أحمد أن يغاضب زميله ، الذى ظنه يسخر منه ، ولكن الزميل كان قد وضع فى محازاة وجهه برقية صغيرة فيها .

« احضر اليوم لخطوبة أختك »

والتوقيع والدتك

كان زكريا قد شاهد الحوار الدائر ، ولم يستسلم للحظة شرود مثل أحمد ، ولكن عينيه ، من خلف نظارته السميكة ، التقطتا ما فيها ، فانجلى له الموقف بسرعة ، وأدرك كل شىء .

وهنا تقدم من صديقه يعانقه بخفة ، ويضمه إلى صدره وهو يمسح على كتفه فى حنان عميق ، وصوته يختلج بالانفعال ، وهو يكرر :

— مبروك يا أحمد .. عقبى لك .. نفرح بك جميعاً .

فقال أحمد ، وقد أخذته المفاجأة فلم يشعر لها بفرحة :

— أى عريس ؟ إننى .. ليس عندى أية فكرة عن مثل هذا المشروع .

فألقى زكريا نظرة فاحصة من حوله ، كأنه يكشف المجال ، ثم قذف صديقه بنظرة محذرة ، وجذبه من دراعه فى مرح مصطنع ، وهو يبعد به عن موقف الطلبة :

— أيها الغبى .. ما هكذا يجب أن تتحدث عن صهرك !!

وتبادلا ضحكة حاولا أن تبدو مرحة .

ومضى الصديقان إلى طرف الفناء ، حيث يقل السائرون .

ولم يكن أحمد قد استطاع أن يتحرر من عبوسه ، بل كان يتساءل طوال

سيره « من هذا الزوج الذى هبط لأخته من السماء ، فلم يعلم عنه شيئاً إلا وهو يريد أن يخطبها !! ثم .. آه » .

لم يغب عنه فى تلك اللحظات الحرجة المملوءة بالقلق والحيرة أن البرقية تحتم عليه أن يلغى زيارته لسامية فى المستشفى .. وأن تضيع فرصة نادرة من بين يديه :

— عليه اللعنة .. ماذا أتى به اليوم ؟

وخمن زكريا كل شىء على الفور ، بل لقد عرف ذلك قبل أن يقوله أحمد ، وراجع موقفه ، وكيف يتصرف فى الموعد المضروب بعد أن يسافر أحمد ؟

قال زكريا متضاحكاً :

— من فضلك لا تشتم عريس أخت صديقى .. آ .. إننى على استعداد للدفاع عن ذلك حتى ضد صديقى نفسه .. آ .. لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى .. حتى يراق ..

فقاطعه أحمد فى نبرات حزينة يائسة :

— تكدرنى أشياء كثيرة تمنيت لو لم تكن .

فخلع زكريا عن نفسه هيئة الهازل فى سرعة ، وألبس وجهه قناعاً من الجد ، واقترب من أحمد ، وتأبط يده .. كأنما يريد أن يحوز ثقته بأسرع ما يمكن ، وقال فى لهجة أمومة حانية :

— ماذا يكربك ياحبيبى ؟

وظل أحمد سائراً إلى جانب صديقه ، فى خطو وئيد ، وأطلق زفرة طويلة ، وهو ما يزال ناظراً إلى الأرض ، ولم يجب ، ومضى زكريا صامتاً .

وتفكر أحمد ، ربما أغضب زكريا ألا يبوح له صديقه بسره ، وربما أيضاً أمده بالرأى الصائب . فقال بصوت ذبيح :

— صدقى .. إننى لا أستطيع أن أتخيل أن أختى ستتزوج ! لقد اعتدناها .. وكأنها جزء من حياتنا لا يمكن أن ينفصل .

— إنك يا صديق جزء منفصل منذ أربع سنوات ، ولم تتحطم حياة والدتك ولا أختك .

— ومع ذلك فأنا أخصهما .. ملك لهما إن صح هذا التعبير ، وأحق .. أحسهما معى .. ولو على البعد .. أما حين تتزوج !!

— يا لك من أنانى .. هل تنكر على الناس ما تبيحه لنفسك !!

هل تنكر على أختك حقها فى السعادة ؟

وأحس أحمد « السعادة » التى سمعها من صديقه بلذعة حارقة اهتز لها كيانه وارتجف تحت وقع الغيرة الصاعقة ، أحقاً تجد أخته السعادة مع رجل آخر .. غيره ..

أليست سعيدة مع أمها .. وهى ما تزال فتاة صغيرة .. لم تكمل تعليمها الثانوى بعد .. وأكمل زكريا حديثه بلباقة :

— ثم .. أليس هذا ما ستفعله أنت مع سامية .. اذهب بارك الخطوبة يارجل .. وكن لأختك أخاً وأباً يعرف مسئولياته ويقدرها !!

آه .. إن ما يعذبه .. هو مسئولياته .. حقاً ..

واستدرك زكريا .. وكأنه يطلق الحديث عفوياً .. بلا خطة !!

— وبالمناسبة .. طبعاً لن نستطيع زيارة المستشفى .

— طبعاً .

وبعد ساعة كان أحمد جالساً فى سيارة إلى جانب النافذة ، وقد ألقى ببصره إلى الحقول الخضراء الممتدة إلى ما لايدرك البصر ، وهى تمضى أمامه كشريط متحرك بما عليها من شواخص ، وعينه لا تلمح إلا خضرة خالصة ، لا تكاد تقف عند شىء مما ترى .. وكان يفكر فى أشياء كثيرة .

كانت خطبة فاطمة — أخته — نهاراً كشف له كثيراً من الخيالات المبهمة التى لم يقف فكره عندها كثيراً !

كم بدت له فاطمة .. طفلة صغيرة .. مرت سنوات عمرها وهو غافل عما بدا على جسمها من علامات الاكتمال .. أخذ عمرها يخطو .. خطوة .. خطوة .. ولم يلحظ أنه يكون كتلة كبيرة الحجم تدفع بالأنثى من الطفولة الغضة إلى الصبا النضير الذى يستهوى الرجال !!

وأدرك فجأة .. أنه هو أيضاً قد كبر .. صار رجلا مكتملا فى حاجة إلى من تؤنس له وحدته .. وأنه لابد أن يفكر فى ذلك بطريقة جادة عملية . وأدرك أن تزويج أخته سيخلف له أماً ليس معها رفيق .

وأنه من أجل ذلك يجب أن يأخذها معه إلى القاهرة ..

وضحك من نفسه فى حماس وهو يكتشف أنه يتعجل الحوادث والنتائج ، وأنه لا زواج هناك الآن ، وإنما هى خطبة لا يعلم من أمرها شيئاً ، وأشفق به ذلك على الجانب الذى يشقيه فى الموضوع كله .. يحطم معنوياته ، ويهين رجولته ، وينال من كبريائه ومثاليته ولكنه ضن بأن يكشف جراحه أمام صديقه زكريا ، واحتفظ بها حتى يلتقى بأمه وأخته ... وله معهما كلام آخر .

كم بدت له فاطمة ناضرة فتية وهى تحتضنه فى لهفة الشوق ، وكم كانت رائعة الجمال حين غلف الحياء وجهها بحمرة الشفق عندما قبلها أخوها فى جبينها وهو لا يملك نفسه من تدليلها « بالعروسة » .

وكم بدت له أمه ضامرة عجفاء ، حين سقطت بين يديه فى عناقها الملهوف ،كأنها تعلن عن قرب النهاية .. كأن ما أخذ منها .. وضع عند فاطمة .. ما أعجب الأيام ..

وعلى انفراد ، سأل أحمد أمه فى شىء من التحفز وإن حاول أن يبدو بسيطاً :

ـــ أمى .. لماذا أنا هنا اليوم ؟

قالت فى دهشة ، وهى لا تجد لسؤاله مبرراً :

ـــ لقد وصلتك برقية .. ولقد أتيت بناء عليها ؟

قال وهو يكبت غضبه :

— هل أنا هنا لأبصم على الخطوبة ، وأصافح العريس ، وأقدم الشروبات المدعوين ؟

— معاذ الله يابنى .. كيف تنطق بهذا الكلام ؟ أنت سيد البيت ، وزينته ، ولا يربط فيه أمر ولا يحل إلا بمشورتك ورأيك .

— إن البرقية تستدعينى لحضور خطوبة أختى .. كأن الأمر لا يعنينى إلا كشاهد !!

واقتربت السيدة الكبيرة من ولدها ، يجذبها حنانها ، وجلست إلى جانبه ، ملتصقة به ، كأنما تريد أن تنقل إليه مشاعرها بخفقات قلبها الدافق بحبه ، والذى تعجز الكلمات فى موقفها عن الإبانة عنه . وقالت :

— يعز على « أن تغضب ، وأنت ما بقى لى فى الحياة .. كل مابقى لى ، فاطمة إن لم تتزوج هذا . فستتزوج غيره . . مصيرها إلى رجل . . وعندما يغلق عليها بابه فإنها تكون قد انخلعت من حياتى .. أما أنت .. فلاذى الوحيد .. الدائم .. إنما فعلت ذلك حتى لا أزعجك بالبرقية فلا تظن شراً نزل بنا .. والأمر بين يديك . .

وسكت أحمد .. راح فى أفكار بعيدة .. لا يدرى لماذا حضرته فى تلك اللحظة صورة شجرة عجوز ، من نوع نادر ، مغروسة فى حديقة الكلية ، وكلما أحس البستانى باقتراب الشجرة من الفناء عمد إلى بعض غصونها فاقتطعه ، وغرسه فى أرض جديدة ، فيزدهر القديم فى الجديد .. وتسرع علامات الفناء إلى الأصول الضاربة فى الطبقات البعيدة !!

ما أعجب الحياة .. وما أقسى قانونها .

— ولكن .. كيف جاء هذا العريس .. كيف تعرف عليها ؟

قالت أمه وقد أدركت قلقه ، وآثرت أن تهون الأمر .

— ليس الأمر كما تظن .. أعنى .. لقد عرفها هنا فى بيتنا ..

— بيتنا ؟

— إنه مدرسها .. كانت ضعيفة فى الرياضة ، وهو مدرسها .. فجاء يعطيها درساً خصوصياً هنا .. أمام عينى .. وتحت رقابتى ، وأمس فقط أبدى رغبته فى خطوبتها ، على أن يقدم « الشبكة » غداً قبل أن يسافر لأهله فى عطلة نصف السنة ، ويتم الزفاف بعد خمسة أشهر بعد أن تحصل أختك على الثانوية .

— ما شاء الله .

— وطبعاً لم نجبه إلى شىء من ذلك حتى تحضر ، وسيقابلك هو ، ويطلب منك ذلك باعتبارك رجل البيت ، وتستطيع أن تقول له ما تشاء .

« رجل البيت » .. ما أجمل هذا الاسم نظرياً ، وبعيداً عن المشكلات ، إنه أشبه بعباءة الخلافة .. تلك التى كان يتوارثها خلفاء بنى العباس .. فيها المهابة والحماية ، ودلالة العظمة والخطر .. أما الآن .. كم يثقل عليه هذا الموقف ، ويضايقه .

ونظر إلى أمه ، فالتقى بعينيها ، ورأى فيها نداوة الدمع تغشى صفاءهما ، وبدت له ضعيفة ، تتعلق بأمل ، وحزينة تحلم بلحظة فرح ، تتمنى ألا يفسدها بالمعارضة ، وأشفق على أمنيتها ، وإن كانت شكوكه لم تذهب نهائياً ، فقال فى إخلاص حقيقى عميق :

— وأنت يا أمى .. ماذا تفعلين من بعدها .. وقبل أن تستقيم حياتى فى القاهرة .

قالت بصوت متهدج بالانفعال :

— أنا لا أفكر فى نفسى .. ليس أنا .. بل كل أم .. أسعد لحظات عمرها أن ترى ابنتها عروساً تزف إلى رجل يسعدها ويسترها ، وترى ابنها أباً .. تفرح هى بأولاده فتستعيد شبابها من جديد .

وجاشت نفسه بالمعانى التى يسمعها ، وإن سلم سلفاً بأنها قانون الحياة ، واختنق بعبراته ، وشرق بريقه ، وأخذ يسعل بحدة ، وقبل أن تقوم أمه فتسعفه بكوب الماء ، كانت فاطمة قد حملته إليه ، كأنما كانت فى الانتظار . وبعد أن تناوله منها ، ورشف قليلا ، وضعه إلى جانبه ، وأمسك بيد أخته التى مدتها لحمل الكوب ، وأجلسها إلى جانبه من الناحية الأخرى ، ووسد يده عاتقها ، فالتصقت به فى حنو ، وبدت له من خلال خواطره ، ساذجة خطرة .. وتساءل فى نفسه ، كيف استطاعت هذه الطفلة أن تحول للدرس إلى عريس ..

— طبعاً لن تفكرى فى الجامعة بعد الآن يا فاطمة ، وذهبت كل مشروعاتنا فداء العريس .

ووارت بيدها ابتسامة خجولا ، وقالت بتمتر :

— إن ذلك لا يتنافى مع الجامعة .

فقال متضاحكاً ليضحكها ، وقد استولت عليه نوبة أبوة رفيعة ، متنزهة عن الغيرة والشكوك :

— حكم .. خلاص .. جهزت كل شىء ..

— أبداً .. كل شىء بأمرك ..

فقال بسعادة غامرة ولذته بإسعادهما تتضاعف :

— أمنا موافقة ، وأنت أيضاً .. وأنا .. مبروك .

وسكت لحظة ثم استدرك :

— وموافقتى مبدئية إلى أن أراه .

وأمسك ذقن أخته ملاطفاً بإصبعيه ، وهو يرفع وجهها إليه قائلا :

— أتظنين أنه سيعجبنى .. ؟

— .....

— لا تردين .. لقد أعجبك .. ولكي يعجبني يجب أن أنظر إليه بعينيك هاتين الجميلتين .. هكذا قالوا .. لكي تعجب بليلى انظر إليها بعيني قيس ، وفي حالتنا هذه الأمر على العكس .. لكي تعجب بقيس .. انظر إليه بعيني .. فاطمة!!

وضحك أحمد من قلبه ، وضحكت أمه حتى سالت دموعها ، وضحكت فاطمة حتى شرقت . وجاء العريس فقابل أحمد .. لم يسترح له كثيراً ، ولكنه أيضاً لم يجد فيه ما يعيبه فوافق . ودوت الزغاريد في المسكن الصغير ، والأقارب مجتمعون ، ووضعت فاطمة الدبلة في أصبع عريسها ، ووضع العريس الدبلة في إصبعها .

ورددت الألسنة ، مبروك يا أحمد .. وعقبى لك .

ونظر إلى إصبعه في عفوية ، وراح بخواطره إلى المستشفى ، فرأى الابتسامة المترددة الخائفة توشك أن تنفرج ، ويتهلل وجهها للقائه ، وعاد بعينيه إلى موقفه فوجد ابتسامة فرحة متهللة تملأ وجه أخته ، وعريسها يجلس إلى جانبها وومضات آلة التصوير تحيط بهما .. وأدرك أنه قد فاته أن يقف إلى جانب أخته في صورة ، وقبل أن يعالج ذلك كان عريسها قد أدركه ، فقام إليه وعانقه ، وأخذه من يده ، وأجلسه إلى جانب عروسه من الجهة الأخرى ، وأخذت الصورة .

وعندما كان أحمد يعد حقيبته للعودة في اليوم التالي قال لأمه في شيء من الحيرة :

— الدرس ..

— ماله يا بني ؟

— هل ستأخذ فاطمة عنده درساً ؟

— طبعاً لقد كان يعطيها قبل أن يخطبها .

قال مقطباً في حزم :

— لا يجوز أن يحضر إلى هنا في غيابي حتى ولو كان خاطباً ..

— كيف تقول هذا يا بني ؟ لقد كان يأتي إلى هنا بدون أي رباط بيننا وبينه ،

وكنا نأمنه ولم أكن أفارقه .. كان مدرساً لها فقط ، والآن صار بيننا ثقة ، ومستقبل ، هل أمنعه من دخول البيت ..

— ...

— لا تخف يا أحمد .. هل جربت على تهاونا فى أمر ؟

— معاذ الله يا أمى .. هذه فقط تقاليد يجب أن تكون محل رعاية ، وإذا كنا واثقين فى أنفسنا .. فإن ألسنة الناس لا ترحم ..

— لا تخف يابنى .. توكل على الله .. لا تشغل بالك بنا .. سنفرح بك بعد خمسة شهور .. عقب الشهادة ..

وأخذ أحمد الطريق إلى موقف السيارات فى خطوات سريعة ، كان برفقته خاطب أخته ، وكان يريد أن ينفرد بنفسه ، وأن يناقشها الحساب ، وأن يسترجع ما قال وأن يستعد لما هو مقبل عليه ..

« سامية .. أين أنت وكيف فكرت بعد إهمال زيارتك .. »

لقد قلت لأمى :

— إذا كنا واثقين من أنفسنا فإن ألسنة الناس لا ترحم !!

لقد تكلمت بلسانك اليوم يا سامية .. يا حبيبتى .. فأين أنت أيتها الذكية الساذجة ؟

* * *

مالبثت سامية بعد أن استسلمت لموجة التحدى والسخرية التى استولت عليها حينما داعب الدكتور راضى يدها ، وعرض بزواجها .. ما لبثت بعد أن خرج ، وراجعت موقفها أن سقطت فى قبضة حزن مرير .

هاهى للمرة الثانية تتصرف كحمقاء لا حنكة عندها ولا دراية بأساليب التعامل بين الناس ، فهل كتب عليها أن تعيش وحيدة منبوذة من البشر ..

إنها لم تنس بعد أنها كانت صنماً بارداً سيء التصرف فى المقابلة اليتيمة التى التقت فيها بأحمد ، حين قالت إنها لا تخرج بالليل ، ولابد أن هذه الكلمة أعطته صورة سيئة عنها على الأقل لأنها لم تقل غيرها .. وها هو الدكتور يتوسل إلى غرضه فى رفق مهذب ، وكان يجب عليها ، إن لم تتجاوب معه أن ترده رداً رفيقاً ، لكنها فرحت بنصر رخيص ، واستسلمت لزهوها الوقتى ، وردته فى جفاء ، بل وسخرت منه .

ووضعت يدها على جرحها وتمتمت متوجعة :

« لو أنه غفر ذلك لى باسم المرض »

وهكذا أخذت تتبع أخطاءها ، وتلوم نفسها على تخبطها واندفاعها ، وعاهدت نفسها على أن تتروى فى الأمور ، وأن تقلب ما يعرض لها على وجوهه حتى ترى فيه الرأى السليم ، لكنها حين سألت نفسها كيف يتم إصلاح الأمر مع الدكتور راضى ، ليعود كما كان . لم تجد جواباً .

وعندما زارتها فريدة فى اليوم التالى ، تطلعت فى عينيها بتمعن استلفت نظرها .. وظلت صامتة كأنها تحدق فى بئر مجهول القرار ، حتى قالت فريدة فيما يشبه السخرية :

— إنك ترتدين غير ثيابك اليوم ، فيم تفكرين ؟

— فيك .. وتنهدت

— وفيمن أيضاً ؟

فاعتدلت فى فراشها فى نصف جلسة ، ووضعت من خلفها وسادة صغيرة ، عاونتها فريدة فى وضعها ، ثم قالت وهى تسوى الفراش من حولها :

— هل قابلت الدكتور راضى اليوم ؟

— طبعاً .. لماذا ؟

لا شىء .. فقط أردت أن أعرف هل الحياة تسير فى الكلية بدونى كما لو كنت موجودة أم لا . وهنا لم تستطع أن تمنع ابتسامة واسعة ، وقالت فريدة ساخرة :

— جل جلالك .... يا ... سامية هانم ...

فاستعادت جديتها وراحت تسأل ، وخوف غامض يمازج نبراتها :

— أحقاً قابلت الدكتور ولم يقل لك عنى أى شىء ؟

— هذا ما حدث ..

— عجيب ..

— بل العجيب أمرك ..

— هو كذلك فعلا .. آه .. لأن .. لأنى طردته ..

— ط .. آه ..

— طردته .. غازلنى وداعب يدى ، فطردته ..

فضربت فريدة صدرها فى فزع براحتها ، وقد استدارت عيناها وهى لا تكاد تصدق ما تسمع .

— لماذا لم يقل لى إنه زارك ؟

— إنه لم يقل بسبب ما حدث له هنا .

قالت فريدة وما زالت تشك فى إمكان ما حدث :

— كأنك تقولين الحقيقة ؟

ـ ولا شىء غيرها ..

فتكورت فريدة على نفسها، إلى جانب السرير، وهى تقول فى لحن متألم :

— أيتها المنكودة .. أهكذا تعاملينه وهو الذى صنعنا !!

قالت ساخرة وكأنها تريد أن تثبت أنها على حق :

— إنه لم يصنعنى .. الذى صنعنى هو شخصيتى ..

فقالت فريدة بسخرية لا تخلو من اشمئزاز :

— شخصيتك ؟ أين هى .. إنى لا أراها ..

وخافت سامية من توتر الجو بينها وبين صديقتها ، فمالت لملاطفتها ، بما تحب أن تتحدث فيه .. فقالت برقة :

— استعيرى نظارة زكريا .. وأنت ترين شخصيتى من خلالها ..

فلم تملك فريدة نفسها من الابتسام ، وإن ظلت نفسها تترى بالألم ، وجارت صديقتها فى إنهاء التوتر ، وقد لاحت لها فكرة استراحت لها مبدئياً ، وتركت مناقشتها حين تخلو إلى نفسها ، وقالت فى تهكم خفيف :

— لابد أنها شخصية ضئيلة جداً .. تلك التى لا يمكن رؤيتها إلا من خلال نظارة نمرة ١٧ .

قالت سامية وقد خفت حدة التوتر :

— فما قولك يا شيرمان هانم ؟

فنظرت إليها متوعدة وقالت وهى تحتضنها بذراعها :

— أقول إن الشيتارو تستحق الضرب .

قالت سامية فى استجداء :

— والحل ياشيرمان .. ألا يمكن إصلاح الوضع ؟

— كلا .. لا يمكن .. إنه أستاذ فى الجامعة ..

هل هو بائع فى الطريق .. تغضبه كلمة ، ويصالحه نصف قرش فوق السعر ..

قالت بندم :

— لابد من حل ؟ إننى .. إننى لم أقصد إهانته .. إنه هو الذى أهاننى حين غازلنى .

قالت فريدة :

— لقد تصرف الدكتور التصرف اللائق .. لو أنه فعل ذلك معى لجاوبته بمنتهى الاحترام ، وافقت أو رفضت هذه مسألة أخرى ، لكنه اعترف بك كطالبة جامعية لها كيانها المستقل ويجب أن يكتشف مشاعرها نحوه قبل أن يحدث أهلها .. هكذا سأفعل أنا .. لن أتزوج إلا الذى يخطبنى من نفسى أولا ، وأوافق ، ثم يحدث أسرتى فى الرسميات التى لا شأن لى بها ..

وصمتت قليلا حتى هدأت أنفاسها اللاهثة ، وقالت :

— ترى لو أن الدكتور خطبك من والدك مباشرة .. هل تقبلين ؟

— لم لا تردين ؟

— إنه على أى حال لم يفعل ، والذى أعرفه أننى لست فى حاجة إلى ضرة ، ولا إلى صلعة ، ولا إلى .. معذرة يافريدة .. نظارة سميكة .

— أهذا كل ما ترينه من الدكتور راضى ؟

— وماذا فيه غير ذلك !

— لقد فعلت خيراً بطردك له .. إنك لا تستحقينه ،

ـــ مبروك عليك انت .

ـــ على أنا .. ولماذا ؟ هل جاءنى خاطباً ؟ ثم .. أنت عارفة .. زكريا .. ينتظر التخرج فقط .

قالت سامية وقد بلغت بها الحيرة غايتها :

ـــ كيف أفعل فى الكلية حين أعود ؟

ـــ لا شىء . . . أنت ضيفة .. بقيت لك شهور قلائل .. ثم .. مع السلامة ..

قالت بأسف عميق :

ـــ إنه وداع غير منتظرَ .

ثم قالت فى نفسها :

ـــ أحمد ماهر .. هذا وقته .. إنه هو الذى يستطيع إنقاذى . لماذا لم يحضر إلى الآن ؟

ونظرت سامية فى ساعتها ، فتابعتها فريدة فى النظر إلى ساعتها أيضاً ، وقالت على الفور :

ـــ لقد شغلتنى ، إن أحمد وزكريا قادمان بعد دقائق فى تمام الرابعة كما اتفقنا منذ أمس .

ومضت الدقائق ثقيلة بطيئة ، مملوءة بالترقب ، مثل الجو الذى يسبق معركة ، أو مقابلة تحدد مصير إنسان باقى عمره ، ومضت الساعة الرابعة بدقيقة .. باثنتين .. بثلاثة .. بعشرين دقيقة . . . ولم يطرق باب الغرفة ، وأحست سامية بأنها ضائعة ، كأنما كان من حولها زحام يسترها ، ويسرى عنها ، ويدارى ضعفها ، ويبث الشجاعة فى نفسها ، ومرة واحدة انفض كل شىء .. وبقيت وحيدة .. وهنا انزلقت فى فراشها ، وأغمضت عينيها وأشعة الشمس الغاربة تنتشر فوق وجهها ، فتكسبه فى حزنه العميق رقة موجعة ، ينفطر لها أقسى القلوب .. أما زكريا فإنه بعد أن ودع صديقه على إثر وصول البرقية ، عاد إلى مسكنهما يفكر فى أمره ..

وزكريا تعيش عواطفه فى جو ضبابى غير واضح المعالم .. ليس ذلك بالنسبة للآخرين بل إنه — فى هذا الجانب فقط .. ربما — غير واضح لنفسه أيضاً .. لقد رأى صورة فاطمة ذات مرة مع أخيها أحمد ، فراودته للحظات فكرة الزواج بها ، ولم يكن هذا لمجرد الإعجاب بشكلها ، بل إنه أحب أحمد ، ووثق فيه ، واطمأن لمستقبل أيامه ، فرأى أن الارتباط معه بمصاهرة أمر لا يخلو من جوانب تستحق النظر ، لكنه لم يفاتح صديقه فى شىء من ذلك ، بل ولا ألمح إليه فى كلمة عابرة ، فلما جاءت البرقية تحمل نبأ خطبتها ، انتابه حزن عميق للحظات قصار ، لكنه عاد يتدبر موقفه ، ويفكر فيما يجب عمله حيال الموعد المضروب بينه هو وصديقه ، مع فريدة فى المستشفى عند سامية ..

وساءل نفسه فى همس خافت كأنه يخشى أن يسمعه أحد :

«إن أحمد سيغضب إذا عرف أننى ذهبت منفرداً .. لكن يجب أن أقابل .. أقابل من ؟ فريدة .. كذب .. تضليل .. إلى متى هذا العماء ؟ سامية ؟ وارتجف قلبه فى استنكار ، وتملكته قشعريرة كأنه أصيب بهزة كهربية مفاجئة ، وتلفت حواليه جزعاً ، وهو يتمتم :

« أعوذ بالله .. إنها عروس صديق ، وحبيبى ، وهى أيضاً تحبه ، ولا ذنب له فى زواج فاطمة ، إننى لم أحدثه بكلمة واحدة بخصوص هذا الأمر » .

وعاد يحدث نفسه وإحساس بالمرارة يستولى عليه :

« على أنه إذا كانت فاطمة قد ذهبت ، فلماذا لا تتيح الفرصة لفريدة ربما أثبتت جدارتها وكسبتنى .. إننى لا أقاوم الهوى ، لكنى لا أخلقه .. تفضلن يا نساء العالم .. سددن سهامكن نحوى .. فمن أصابت كبدى .. حتى ولو كانت أسوأ بنات حواء .. فإننى مستسلم لها .. أنا قلعة مهزومة .. أنا سفينة .. تبحث عن ربان ، أنا لا أعلم من أنا .. هل تستطيع الشياطين أن تهدينى ؟ »

ولاح له أن يركب السيارة إلى كوبرى الزمالك ، ثم يسير على شاطىء النيل ،

فى اتجاه المستشفى ، فإذا ظهر له أن الامتناع عن الزيارة مراعاة لصديقه عمل أكثر لباقة ، عاد وقد اغتنم السير على النيل ، ربما ساعدت نسماته الباردة على تبديد حرارة رأسه وقلبه ، وإذا بان له أنه لا يجوز أن يتخلف ، ويجب أن يعتذر عن صديقه الذى سافر بغير اعتذار ، كان على مقربة من المستشفى ..

وبعد دقائق كان يسير على شاطىء النيل ، يحدق فى كل شىء ، وفى لاشىء مثل الأبله .. مرة يتتبع سرباً من الطيور يعبر النهر عائداً إلى أعشاشه ، ومرة يتشمم رائحة خادم يحمل صينية بطاطس . وقد عاد بها من الفرن !! ومرة يتسلى بقراءة أسماء العوامات وتأمل أحجامها وأشكالها ..

وفجأة وجد نفسه أمام المستشفى ، ولم يكن قد قر رأيه على الذهاب أو عدمه ، فقال لنفسه باستهانة ، كأنما وجد متلبساً بما لا يقره :

— ما هذا .. لماذا أضع نفسى موضع الشكوك ، وأتعذب ، إننى أحاسب نفسى بقسوة لا مبرر لها .. أنا ذاهب للاعتذار عن صديقى . وللقاء بصديقة اليوم .. وزوجة المستقبل هل فى هذا ما يضايقك يا أحمد ماهر ؟

سار زكريا فى طرقات المستشفى الرطبة ، الصامتة ، وقد اكتست بضوء رمادى يجسم هدوءها ورطوبتها ، فخفف من وقع خطواته على أرضها ، حتى صار مشيه تسللا ، فخالطه شعور بالمرارة .. كأنه يسعى إلى عمل حقير لا يستطيع دفعه عن نفسه ..

وبعد لحظات كان يطرق باب الغرفة بخفة ، ثم يدفعه ببطء شديد ، وأطل بعينيه على الداخل ، متلصصاً ، فوجد فريدة جالسة وقد اعتمدت بخدها على راحتها . أما سامية فكانت فى إغفاءة لم تتنبه منها بعد ..

وأشارت فريدة لزكريا ألا يدخل حتى لا يزعج النائمة ، ثم تسللت هى إليه ، ومدت يدها تصافحه ، فقبض على الكف الدافئة ، وكأنه يتعلق بها من برودة المكان وصمته ، وينجو بها من إحساس الحقارة الذى يمازح نفسه منذ ساعة !!

قالت فريدة هامسة :

— أين صديقك ؟

— لقد سافر إلى بلده .. جاءته برقية لحضور خطبة أخته ..

فنظرت إليه متطلعة فى أمل ، وتراقصت أهدابها فى ارتباك وهى تقول بهمس :

— مبروك وعقبى لك .

— قال وهو ما زال قابضاً على يدها ، وزاد ضغطه عليها قليلا :

— وأنت أيضاً يا فريدة .

وعاد الصمت يلفهما ، فقالت فريدة :

— هنا استراحة للزوار .. هيا بنا إليها حتى تستيقظ سامية .

وتبعها زكريا مستسلماً :

كانا وحيدين فى الاستراحة ، وجلس زكريا فى مواجهتها صامتاً ، وعيناه من خلف نظارته السميكة تتطلعان إليها فى رغبة ، وتحاولان التجول على جسدها دون خشية ولم تجد فريدة ما تقوله .. وقال زكريا :

— لقد جئت لأعتذر عن أحمد ، وحتى لا نرمى بقلة الذوق عندكما .. إننى حريص على أن يكون رأيكما فينا طيباً .

— إنه لكذلك بالتأكيد .

وعاد الصمت مرة أخرى يلف المكان . فجمع زكريا شجاعته وقال ، وكأن الفكرة واتته فى اللحظة :

— لماذا لا تخرجين معى الآن ؟

لم تفاجأ فريدة .. كأنما كانت تتوقع ذلك .. قالت :

— إن سامية نائمة ، ولا أستطيع أن أغادرها كذلك .

— هل نفترق على موعد ؟

— قالت وهى لا تعنى ما تقول :

— لا أظن .

— هل أستطيع أن أعرف لماذا ؟

أخافتها لهجته التي بدا فيها التعجل وضيق الصدر ، وخشيت أن ينصرف عنها دون أن تصل معه إلى خطوة أوفق ، وهذه فرصة جاءتها دون تدبير أو انتظار فقالت :

— لأنني أحبك ..

— أنت لا تحبينني ..

— أنت تعرفني أكثر مني ، وتعرف أنني أحبك ..

— الحب ثقة .. ثقة مطلقة .. فماذا تخافين ..

— ...

— سنلتقي غداً .. سيأتي أحمد لزيارة سامية في نفس الموعد .. سآتي معه .. وبعد أن ينصرف لن أعود معه ، سأعتذر بأي شيء وأنتظرك في النادي على ناصية الجسر .. لا تتأخري كثيراً الدنيا برد .

— لن أتأخر .. هناك حجرة زجاجية .. اجلس فيها بعيداً عن البرد ..

— شكراً .. ووداعاً .. وإلى اللقاء ..

— وداعاً .. وإلى اللقاء .

قال وقد تحشرج صوته :

— هكذا بغير قبلة صغيرة ..

— عيب .

— العيب أن أخرج غاضباً .

وتقدم نحوها فجأة وأحاط خصرها بيديه ، ولثمها بسرعة ، ثم قال وهو لا يكاد يتحكم في لسانه :

— إذا كانت سامية نائمة ، وأحمد غير موجود ، فلا داعي لإخبارهما بهذه الزيارة ..

قالت وهي تومىء برأسها .

— لا مانع .. بل لعل هذا أوفق .

هل كانت سامية راضية عن نفسها ؟

كلا .. فقد استاءت من تخبطها ، وعدم تحكمها فى الكلمات ، ها هى أغضبت الدكتور راضى ، وأوشكت أن تغضب فريدة .. صديقتها الوحيدة ، وها قد مر اليوم كله ولم يحضر أحمد ماهر لزيارتها كما اتفق مع صديقتها .. أى نحس لازمها فى هذا اليوم . كم خاب ظنها حين حسبت أن المرض فرصة طيبة لإذكاء مشاعر أصدقائها وأحبائها ، ومسح الغبار عن العواطف الدارجة المعتادة ، وهز القلوب التى استنامت إلى طمأنينة الصداقة . ولكن ها هى أيام المستشفى تمضى ولا تجلب لها إلا التعاسة وقسوة حساب النفس ولومها .

وودت سامية لو أنها خلقت من جديد ، خلقاً أصيلاً تتخير فيه صفاتها ، وخط حياتها ، وتكيف فيه وجودها ، أو لو أن ماحدث منها ، حتى سماحها لأحمد بالزيارة قد محى من أذهان الناس ، وتحول إلى وهم ليس له ظل من الواقع .. فإنها تستطيع أن تتصرف بأصالة ، يتحكم فيها هذا الماضى ويوجهها .

وهنا قالت لنفسها :

« لو أننى استطعت أن أتغلب على نفسى وأجعل فترة المستشفى فاصلا بين عهدين فأمضى فى الكلية كالسيف القاطع ، فإنى لابد أن أحظى بما أطمع إليه من تألق وتفرد . إن الفتاة الجامعية الاجتماعية أصبحت نموذجاً مكرراً مملولا .. ويجب أن أقدم هنا نموذجاً جديداً لم يسبق التعرف عليه ، كما لا يمكن التقريب إليه .. ولكن .. أحمد ؟ آه .. أحمد .. إنه شىء أكبر من الكبرياء ذاتها ..

وانتشر العرق البارد فوق جبينها ، وهى تتأمل وجهه الذى رسمه خيالها فوق حاشية الأفق ، وكأنه غطاء ضخم للدنيا كلها .. وأحست بالأمان فى ظله وعادت تفكر : « ترى ما الذى منعه من زيارتى وقد كنت أحسبه يتلهف على ذلك ؟

هل أخطأت فى حقه ؟ لقد أحبنى على تلك الصورة ، وها أنا محافظة عليها ؟ » .

قالت ذلك ، وراحت تتأمل — من نسج خيالها — كيف هو الآن فى الكلية ، واقفاً فى القاعة بقامته المديدة ، وقد وضع يده فى جيب سترته ، وراح يناقش بحماس وهو يقلب صفحات الكتاب ، أو لعله قد وقف يستقبل الشمس إلى جانب كشك بيع الكتب ، وقد كسر رجله قليلا ، كأنه فارس يتأهب لامتطاء جواده . ولاح لها خاطر مقبض :

« ألا يمكن أن يكون أحمد يتابع فتاة أخرى من الكلية ، وأن الفرصة قد حانت لتلك الفتاة كى تختطفه فى غيابها ؟ » .

وارتجف فؤادها ، وأحست كأنما يد قوية تعتصر عنقها ، وهى تتخيل نفسها وقد عادت إلى الكلية دون أن تثير التفاته ، بل تجده قد وقف فى ظل شجرة مثل الآخرين ، مع زميلة وقفت فى مواجهته . وقد احتضنت كتبها ، وراحا يتكلمان همساً ساعات طويلة وهى تتراقص أمامه فى وقفتها ، وتثرثر بلا انقطاع حتى لاتترك له فرصة للافلات .

« ولكنه . . أحمد . . إن هذا لا يمكن أن يكون . . إنه ليس الذى يفعل مثل ذلك » .

وحاولت أن تهرب بخواطرها إلى موضوع آخر ، ليس شائكاً بهذه الدرجة ، ولكن إحساساً غامضاً ظل يسيطر عليها ، وإن كانت لا تدرى ماذا تفعل بعده ، وهو أنه يجب أن تعجل فى الخروج من المستشفى ، وأن تذهب إلى الكلية فور قدرتها على ذلك .

أما أحمد ماهر فقد استلقى على مقعده فى السيارة التى انطلقت عائدة به إلى القاهرة وهو يفكر فى مسئوليات رجل البيت . . تلك الكلمة التى سمعها من أمه فهزته بعنف كأنما كان فى نوبة نعاس ، بين اليقظة والنوم ، وصفعته فجأة حفنة من ماء بارد ، فانتبه فى ارتباك لا يعرف إلى أى الجهات يلتفت . .

« تـكليف لا تشريف »

هكذا وصف أحمد ماهر مهمة رجل البيت ، وقد أدرك على ضوئها أشياء كثيرة كانت غائبة عن خاطره ، الذى شغله الامتحان والكتب ، والحب والمستقبل ، والأدب .. إنه رجل البيت ، وإنه لقلق على ذلك البيت .. إنه يثق فى أمه ، وفى أخته ، ولكنه لا يثق فى الناس .. لا يثق فى ذلك المدرس الذى لم يلتق به إلا ساعة من نهار ، ووافق على تزويجه بأخته استناداً إلى رأى أمه فيه ، ولا يثق فى قدرة أخته على مواجهة لحظات الضعف التى تنتاب النساء إذا التقين بالرجال فى حالة اطمئنان .. وفكر أن يضم أسرته الصغيرة إليه فى القاهرة ، بذلك تهدأ مخاوفه ، ولكن أنى له القدرة على ذلك ، ومواردهم المالية تعجز عن تحمل نفقات القاهرة ، كما أن فاطمة لم يبق لها فى المدرسة الثانوية غير شهرين أو ثلاثة .. فهل تستحق هذه المدة إقلاقها ، وإضاعة وقتها فى تحويل الأوراق وتغيير المدرسين ، ثم إنه لم يبق له فى الكلية غير وقت ضئيل ، وبعدها سيكون فى مفترق الطريق ، لا يعرف كيف يصبح ، وأنه لن يعرضهم لكل هذه الهزات .. وليحاول أن يعالج قلقه ومخاوفه باستنبات الثقة ، وإذكاء القوة فى نفس أخته عن طريق الرسائل .

وقد أسلمته خطبة فاطمة إلى نقطة أخرى .. لازمه ..

هى :

متى يخطب ؟ وهل يستطيع أن يتقدم لخطبة سامية دون تعرف كاف عليها هى ، ودون أن ترفع الحجب النفسية التى تفصل بينها وبينه ؟ كم يبدو ذلك مضحكاً لو أنه فعله وهو الشاب الجامعى الذى يعتز بأنه صورة عصر القوة والوضوح والانكشاف ، عصر الحياة فى النور .

وتململ فى جلسته وهو يتذكر شيئاً جديداً تدفعه إليه أفكاره تلك كلها .. ألا يجب عليه أن يفكر فى تنمية موارده ؟

وهنا تذكر « نادى الطليعة المسرحى » النادى الذى أعطاه تذكرة المرور إلى

دنيا الفن هل يعامله معاملة اللقطاء ؟ يمنحه الحياة ثم يتركه فى الطريق ؟ كلا .. إنه ابن شرعى لذلك النادى ، ويجب أن يتمتع بثقة واحترام الأبناء الشرعيين مثله .

وحاول أن يرتب شواغله الكثيرة ، حتى لا تستوعب وقتاً طويلا ، فيتاح له الخلوص إلى الكتب وقد هبت روائح الامتحان ، ولكنه عجز عن ذلك لسبب بسيط لا يمكن أن ينساه .. إنه لم يقم بزيارة سامية بعد ، وأنه لا يعرف كيف تصرف زكريا . هل أعطى موعداً ، أو لا ... ومن أجل ذلك فإنه انتظر حتى التقى بصديقه . وعندما التقى به بادره زكريا فاتحاً ذراعيه بأقصى ما يستطيع ، وضمه إلى صدره بحنان خالص لاتشوبه شائبة ، ويقبله فى عنقه قائلا ، وكلماته تتوافق مع توقيع قبلاته :

— مرحباً بأخى العروس .

قال أحمد وفى عينيه بوادر دموع التأثر :

— عقبى لك يا زكريا .. وكل من يتمنى مثل تلك اللحظة .

قال زكريا وهو يحمل عن صديقه حقيبته ، ويجلس أمام المكتب ملتفتاً إليه :

— وهل ذقتها حتى تصفها بأمانة ؟ إنك بذلك تخالف مفهومك فى التجربة .

— لقد لمستها ، عشتها بوجدانى ، بل هذه التجربة عاشت فى قلبى ..

واستطرد وقد هامت نظراته فى الفضاء البعيد ، من خلال النافذة ، وتاهت مع زرقة السماء التى مازجتها أمشاج من سحاب أبيض صاف كأنه بوادر دخان :

— ما أسعدها من لحظة يا زكريا .. عندما تصل عواطف الحبيبين إلى التركيز القوى .. حينما تستغنى عن كل النساء بحب فتاة ، وعندما تستغنى الفتاة عن كل الدنيا بالتعلق برجل .. وتسلم قيادها إليه مطمئنة .. تلك هى الخطبة .. إنها الحياة كلها مختصرة فى لحظة سعيدة .. كما تنطوى الشجرة العملاقة فى بذرة صغيرة ..

— لقد جعلتك الخطبة فيلسوفاً إنسانياً .

— قد نختلف فى الكلمة الأولى ، لكنى إنسانى بطبعى .. بالسليقة . نازعتنى بعض الخواطر المؤلمة ، ولكنى ملكت زمامى ، وعلوت فوق الأحداث ولم أملك إلا أن أكون أباً .. نعم .. أباً برغم سنى الصغير .. أباً لأختى .. فأتمنى لها السعادة فى إخلاص عميق ..

واهتز كيان زكريا لكلمات صديقه ، فبدت وكأنها تكشف دخيلته ، كأنها تعرى أفكاره ، كأنها عقاب له .. عتاب حزين صامت من قلب لم يعرف إلا الحب الخالص ولم تنبت له أظفار يقسو بها على الناس ..

وهمس زكريا فى نفسه بألم لاذع :

— « ما أصفى نفسك يا أحمد .. كأنك قرأت أفكارى بالأمس ، ورأيتنى فى المستشفى أبيح لنفسى ما لا ترتضيه » .

وأطرق زكريا لحظة .. ثم بدا له أن يسرى عن صديقه الذى ذاب فى خواطره الحزون وأن يهرب أيضاً من تأنيبه لنفسه ، فقام إليه معانقاً فى تمازح وهو يقول :

— شعر ورب الكعبة .. ولكن هل أعجبك العريس ؟

— لا بأس ..

— ينجح بتفوق ؟

— كلا .. يأخذ .. جيد .. عاليه .

— مثلى .. أعنى .. مثل تقديرى فى الكلية .

— لكنك خير منه .

— وما أدراك ؟

— أنت إنسان صادق مع نفسك .. وشجاع ..

قال زكريا وقد أحس بالصغار والمهانة أمام ما يصفه به صديقه به :

— ولكن هل يكفى أن يكون الإنسان صادقاً مع نفسه؟ إنه حيوان اجتماعى.. ومن هنا يتحتم عليه أن يكون صادقاً مع الآخرين ..

— تلك صفة تكفلها الشجاعة .. وأنت شجاع أيضاً .. وأظننى قلت ذلك .

قال زكريا فى شبه مزاح :

— إذن لقد سبقنى هذا العريس لما كنت جديراً به .

أحس أحمد بصدمة خفيفة ، ولكنه قال مجارياً :

— أنت خير منه بلا شك ، لو أنك قلت لى من قبل لأجبتك ، وعلى أى حال مازلنا فيها .

قال ذلك وضحك .. وكأنه يفتح النقاش فى هذا الأمر ..

إن أحمد يحب صديقه ، ويثق فيه ، وربما تمنى يوماً أن يزوجه أخته .. ولكنه ترك لها الخيار عندما تدخل الجامعة .. إلا أن الأمر قد تم على غير ماينتظر، ومع ذلك فإنه كان يؤمن فى قرارة نفسه أن زكريا خير من الرجل الذى خطب أخته .. وهنا قال بصدق :

— إنك خير منه .. عندى على الأقل ، ولو أن لى أختاً ثانية لزوجتها لك .

— بالأمر .

— كلا برغبتك .. ورغبتها .

— هذا أملى فيك .. وقد اختارت أختك من يروقها فلا تأس من أجلى .. غداً أواجه قدرى المخبأ لى .

وتفكر أحمد ملياً ، وقد أطرق إلى الأرض ، ثم واجه صديقه وفى نظراته حيرة .

— هذا أمر محير . . كنت أريد أن أرفض هذا الرجل الذى رضيته أمى

وأحق ، وأن أختار لها من أعتقد أنه أكثر نفعاً لها وحرصاً عليها .. ولكن صدمني ما أنا بسبيله من الالتقاء بسامية .. كم نبدو متناقضين يا زكريا ؟

قال زكريا وفي ذهنه صورة موقفه من فريدة في المستشفى بعد أن تلصص على سامية في حجرتها :

— وهل الحياة إلا مجموعة من المتناقضات .. ولكنك ياصديقي بعدت بنا كثيراً .. لم تسألني عن موعدنا مع فريدة ؟

قال أحمد وهو يتنهد :

— لقد شغلتني مهام « رجل البيت » حتى عن نفسي .

— لكن سامية أعز عليك من نفسك ..

— هذا حق .. وليتها ترتضي ذلك ثمناً لحبها .. هل نستطيع أن نراها هذا المساء ؟

— كلا .. إنني لم ألتق بفريدة ، ويجب أن نقابلها غداً في الكلية ، ونحدد الموعد لعل وعسى .

قال ذلك وقد احتبست الكلمات الكاذبة في حلقه وكأنها تريد أن تخنقه .

* * *

كان أحمد ميالا للعمل الجاد العنيف ، الواضح ، وكان دائم الحركة .. نشط الخيال ، ولكن خياله كانت تتحكم فيه الطريقة المسرحية ، فهو يتصور كل شيء على هيئة موقف ، وحوار دائر بين جماعة ، يتلقفه كل منهم عن الآخر في براعة وذكاء ، والغلب لمن يكون أسرع حركة ، وأعمق فهماً للحوار ، وأقدر على توجيهه .

وكما تتولد المسرحية الكاملة .. من موقف يفضى إلى موقف آخر ، مرتبط به ، ويتطور عنه ، وحدث يدفع إلى حدث آخر هو مترتب عليه ، ونتيجة له .. كذلك كان يتخيل أحمد الحياة .. مجموعة من المواقف والأحداث المترابطة التى يفضى بعضها إلى بعض .

وقد فكر طويلا ، وبعاطفة حادة متلهفة ، فى زيارته لسامية ، وقرر أن يتحكم فى هذه الزيارة التى لن تجود الظروف بمثلها ، فيجعلها قمة مشكلة حبه التى يعقبها الحل ، الحل النهائى الذى يشتهيه .

فى اليومين اللذين قضاهما عند أمه وأخته ، وفى الليلة التى عاد فيها إلى القاهرة ، منتظراً الالتقاء بفريدة فى الكلية ليجدد معها الوعد ، فى تلك الليالى الثلاث لم يكف خيال أحمد عن تصور ذلك اللقاء ، وتحديد معالمه !!

لقد أفلت منه اللقاء الأول عند كشك بيع الكتب ، ومضى دون أن يكون رابطة قوية بينهما ، ولكن اللقاء الثانى يجب أن يكون فى خدمة قضية قلبه ، إن سامية لم تطلع منه إلا على الجانب العقلى ، ذلك الجانب الذى يتوهج فى قاعات المحاضرة ، بمجرد أن تلتقى عيناه بخصلة من شعرها ، أو بطرف إصبعها الخالية التى يحلم بأن يطوقها بالذهب ، أما الجوانب الأخرى فإنه لا علم لها بها ، وإذا كانت لا تعلم الغيب ، فإنها لا شك تجهلها .

كم بدا أحمد لنفسه فى تلك اللحظات ظالما ، متعسفاً ، شديد التجنى على حبيبته ..

إن تاريخ الفكر الإنسانى لم يعثر على فيلسوفة حقيقية واحدة ، وإن كان قدم كثيرات حاولن تحطيم الفلاسفة ، فلماذا يطالبها بما تنفر منه طبيعتها ؟ !

لماذا يطالبها بأن تفلسف وضعه ، وأن تؤمن به ، وأن تسلم قلبها إليه دون أن يقدم لها ما يسوغ ذلك كله..

حقاً لقد قدم لها قلبه ، وإيمانه بها .. لكن هل سمعت ذلك منه ، أو وثقت فيه ؟ وكور قبضته فى ضيق وتحد ، وأنفاسه حبيسة يضيق بها صدره ، كأنه يدخر طاقته لمعركة ، وصمم على أن يكون لقاء الغد ، فى المستشفى ، إنهاء رائعاً لمشكلة طالت ، ومضى يقلب الرأى فيما يستدعيه هذا الموقف من إظهار التدله وهو ماتنفر منه نفسه ، أو تصنع الخشونة ، أو التصرف بطبيعة لا انفعال فيها ، أو ليترك الشراع للرياح تدفع به ، تلقائياً إلى شاطىء الأمان .

لكنه رأى — أخيراً — أنه مما يزيد موقف الغد إشراقاً أن يمضى إلى مقابلة « رئيس نادى الطليعة المسرحى » وأوشك أحمد أن يخبر صديقه بما يرمى إليه من لقاء رئيس النادى ، ولكنه خشى أن يبدو صبيانياً فى تصرفه هذا أمام صديقه ، وإن اقتنع بأهمية هذا اللقاء بالنسبة لمشاكل كثيرة أصبحت تشغل باله أخيراً على قمتها تحديد موقف سامية منه :

وهنا قال لصديقه وهو يرتدى ثيابه ، وهو واقف فوق السرير ، متأهباً للخروج :

— أين ستقضى هذه الليلة ؟

قال زكريا وعيناه من خلف زجاج النظارة لا تخلوان من تساؤل ، وهو يشير إلى صديقه الذى يرتدى ثياب الخروج :

— عن ذلك أسألك ؟

— أنا ..

وتردد قليلا ، ثم استطرد فى ارتباك لم يتعوده :

— أنا خارج !!

فأطلق زكريا ضحكة رنانة ، والتفت من جلسته أمام المكتب إلى صديقه الواقف فوق السرير ، وصفعه بشدة على ساقيه فى مرح ، وهو يقول :

— أفادكم الله .. الحكمة استنارت .

قال أحمد فى ضيق ، وإن حاول أن يجارى صديقه فى مرحه ، ولكن الشعور بالذنب كان يغلبه على أمره :

— أعنى .. أنا خارج لأمر خاص .

— عرفته .. خمنته .. قبل أن تفكر فيه ..

— كذاب ..

— لست كذاباً .. لأنى أفكر فيه مثلك .. وكنت على وشك أن أفاتحك فيه .

قال أحمد دهشاً ، وهو يحجب باحثاً من مرامي صديقه :

— إنك لم تعرفه إذن لأنك لا يمكن أن تفكر في مثله .

فقال زكريا ، وما تزال موجة المرح مسيطرة عليه :

— إن موقفك هذا يذكرنى بالنكتة المشهورة .

قال أحمد متبرماً :

— ثرثر .

— ولو .. سأقولها .. لأعرفك أنى أعرف فيم تفكر .. جلس حبيب مخضرم صبابه .. مثلك لا .. مثلى .. حتى لاتغضب ، نعم .. حبيب مثلى جلس مع حبيبته ، وبعد أن تحدثا قليلا ، لاذ كل منهما بالصمت ، فأرادت هى أن تمزق السكون ، نعم .. الصمت .. أقوى من أن تحتمله أعصاب النساء .. لأنه تفكير إلى الداخل .. المهم أرادت أن تمزق الصمت فسألت صديقها ، فيم تفكر ... ولما كان يفكر تفكيراً بريئاً جداً فإنه قال لها بثقة ، أفكر فيما تفكرين فيه ...

وهنا قامت الحبيبة وصفعته بقوة على وجهه وهى تزيد : آه يا قليل الأدب ..

وضحك زكريا مشجعاً نفسه ، وضحك أحمد فى داخله حتى اهتز كيانه ، ولكنه قال :

— سخيفة .

— أنت الكذاب هذه المرة .. أنك تفكر فى شراء شىء تقدمه لسامية عند اللقاء . وقعت الكلمات المفاجئة موقعاً غريباً على نفس أحمد !!

حقاً .. أهذا ممكن ؟ ترى .. لماذا لم يخطر له مثل هذا الخاطر ؟ وقال لزكريا فى اعتراف :

— أقسم لك أن هذه فكرة لم تراودنى ، لكن أتظن ذلك ممكناً ؟ أتظن سامية تقبله ؟

— ولماذا لا تقبله ؟

— إنك إذن لا تفهمها .. الشينارو يا أستاذ .. هل نسيت الشينارو .. تلك التى قضينا معها أمسية مذهلة ، هل تقبل بأن نرفع الكلفة معها إلى هذا الحد .

وهنا استرجع زكريا موقفه مع فريدة فى المستشفى ، وأوشك أن يقص على صديقه كل شىء ، ليبرهن له أن كل شىء مع النساء ممكن ، وأنه ليس من حق الواقفين على الشاطىء أن يتنبأوا بما فى جوف البحر .. بالتجربة فقط تعرف كل شىء .. بالتجربة العملية وليس بتلفيق النظريات واستنباط النتائج .. وتراقصت الكلمات على لسانه ، ولكنه تراجع فى اللحظة الأخيرة ، حين أدرك أن أحمد لن يقبل منه مثل ذلك ، وأنه ربما كان خاتمة الصداقة بينهما ، واكتفى بأن قال :

— إنك تشاهد بداية الخط ، وهو خط مستقيم مثلا ، ولكن عندك دليل قاطع على أن ما تشاهده ليس خداع نظر ، وأن هناك تعرجات خفية ، أو أنه فى منطقة لا تقع تحت عينيك .. ممتلىء بالتعرجات ؟

قال أحمد وهو يصر على أسنانه ، وقد ارتجف فؤاده تحت كلمات صديقه :

— أيها المدمر الهدام .. كفاك جنوناً ..

قال زكريا وخياله يتشعب وراء أكثر من شيء ..

— ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ..

قالها متغنياً ، ثم أردف :

— وأنا أيضاً خارج لأمر خاص .. وعاجل .

ورمق صاحبه بنظرة حاول أن تبدو ماكرة ليثير غيظه ، وقد أثر هذا فى أحمد ، فقال بطيبة متناهية ، ولم يفارقه الشعور بالذنب لمحاولة إخفاء غرضه عن صديقه :

— أنا ذاهب إلى رئيس النادى .. ربما عاوننى فى الاتصال بصحيفة تنشر لى شيئاً . ولم يرد زكريا .. لقد كان يفكر فى أمر آخر !!

وذهب أحمد إلى رئيس نادى الطليعة المسرحى ، وحدثه بإخلاص عن رغبته فى أن يطرق الحديد وهو ساخن ، أن يستغل البريق الذى أضفاه الفوز عليه فيتمكن من وضع رجله فى الركاب . وأنه يطمع فى أن يزكيه عند بعض أصحاب الصحف . وكان رئيس النادى رجلا طيب الحاشية ، فرق قلبه لأمانى الطامح الصغير الجديد ، فأعطاه بطاقة توصية تقدمه وتزكيه وتشيد بقدرته إلى الأستاذ شافعى رئيس تحرير مجلة الفكر .

ولم يفلت أحمد الفرصة ، وحمل البطاقة من فوره ، وذهب إلى لقاء الأستاذ شافعى ، وقابله الرجل بلطف متحفظ ، ووعده بأن ينشر له مسرحية من فصل واحد ، فى وقت قريب .

وامتلأ قلب أحمد بفرحة عميقة لا تغيض ، وهو يتخيل اسمه منقوشاً بحروف ملونة كبيرة ، فى صدر صفحة من مجلة الفكر ، ودهش للمنظر الذى سيراه مرسوماً فوق كتابته ، ورأى كلماته موزعة فوق الأعمدة فى صفحتين أو أكثر ، ورأى آلاف العيون تقرأ اسمه ، فتذكر المناسبة التى لمع فيها ، ثم تنحدر إلى قراءة كلامه ، فتهتز له ، وتذكر صاحبه بالإعجاب .

ولكن واحدة .. فتاة واحدة . اختصر فيها قراءه جميعاً الذى يحلم بهم .. سامية هل تقرأ ما كتبه ؟ وهل يكون ذلك شافعاً له عندها ؟

وداعبته أمنية عذبة ، فقال للأستاذ شافعى ، وهو يحاول أن يدارى لهفته وتشوقه :

— ومتى تنشر مسرحيتى ؟

قال الرجل بثقة ، وكأنه ينهى المقابلة :

— إن شاء الله فى العدد بعد القادم ، وسنرسل لك على عنوانك نسخة لتحتفظ بها ..

وتمتم أحمد فى خجل وهو لا يقدر على مداراة سروره :

— شكراً .. شكراً يا سيدى ..

وعادت نفس الأمنية تداعبه ، فقال وهو يغادر مقعده استعداداً للانصراف :

— ولكن .. ألا يمكن أن تنشر فى العدد القادم الذى سيصدر بعد يومين ؟

فابتسم الرجل بسخرية خفيفة لم يلحظها أحمد ، لما غرق فيه من تخيل سامية ، وقد التقى بها بعد يومين ، وقدم لها فى فراش المرض عدداً من مجلة الفكر ، هدية منه كما شاء زكريا ، ولكنها هدية غير متكلفة ، ولا ترفض ، وتسمو به عندها . وتطلعها على جانب من نفسه فى تجربته المسرحية ، قال الرجل :

— أظنك على غير خبرة بالإخراج الصحفى ! وستعلم مستقبلا أن ذلك مستحيل .

وتمتم أحمد فى ارتباك وهو يصافح الرجل :

— على أى حال أنا شاكر لصحيفتكم سعة صدرها الكتابى .

ومضى يستخفه الزهو ، وإن خالجته مسحة حزن خفيفة .. كم تمنى أن يتحقق هذا الأمر الأخير .. أن يضرب أرض المعركة بالمدفعية الثقيلة أولا حتى تذهل فلا تقوى على مقاومة ؟ ! ولكن مادام الأمر هكذا فلا بأس ..

وامتعض من نفسه .. أهذه اللحظات الجميلة من حياته يكدرها أمر

بسيط .. بل لعله لو تحقق لكان ضاراً .. وعاد يبتسم فى رضا ، ويقول فى نفسه .

— لا بأس .. بل لعل هذا أجود ، سامية فتاة رقيقة .. ولا تتحمل الاستعراضية ، إنها مثل أوراق الورد لا تقوى على ملامسة أى جسم خشن .. وجدير بلقائنا الحاسم أن يخلو من مظاهر الزهو والتباهى حتى نلتقى على ثقة وعزيمة .

وانتعش فؤاده لإحساس آخر لم يستطع أن يمنعه عن نفسه ..

— حقاً .. ما لا تراه اليوم فستراه ، غداً ، كم أدخر لهذه الحبيبة من أشياء رائعة ...

كان يغادر دار الصحيفة ، وصدره جياش بهذه المعانى ، والريح الثائرة تكنس الشارع الخالى ، والسماء تبدو من خلال السحاب المنطلق ، مثل ثوب ممزق ، والقمر يبدو من خلال تلك السحابات كوجه حبيب غاضب .. يظهر حيناً ويتوارى أحياناً .

وتعلقت نظرات أحمد بالبدر الذى يبدو باهتاً من وراء غمامة ، واعترته رجفة من نسمة طارئة ، وضم يديه إلى صدره وهو يذكر حبيبته الراقدة وحدها فى المستشفى ، وهتف من أعماقه بعاطفة فياضة :

— ماذا يخبىء لى الغد ؟ .. رفقاً يا أحلامى .. يا إلهى ..

هل ينسى زكريا تلك القبلة السريعة التى تركتها على زاوية فم فريدة فى المستشفى ؟ كلا .. فهو .. ابن تاجر .. زاول العمل فى دكان أبيه أحياناً كثيرة .. وهو يعرف معنى جنى الثمار .. معنى الربح بعد التعب الطويل .. وقد تظاهر طويلا بأنه لا يكترث بفريدة .. أو على الأقل ، تظاهر بأنه ليس متلهفاً عليها .. ولكن الحقيقة غير ذلك .. لقد كانت حياته خواء من الحب ، وكان يحس بحاجته للحب .. فإذا تعرضت له فريدة ، وقدمت له قلبها ، فإن ذلك ما يشتهيه ، وهى ليست أقل من مستوى أمانى القلب المحترق للحب ، لكنها .. ربما تتعارض مع طموح عقل متوثب يحول كل شىء إلى أرقام ، ويستمد التصرف المناسب من نتائج عمليات الجمع والطرح !!

إنه يحلم بالحب .. ولكنه لن يبيع قلبه رخيصاً .. يجب أن يستفيد من كل إمكانياته ، وأن يستثمر كل ملكاته .. والحب فى هذه الحالة يجب أن يكون فى خدمة المجد !!

يجب أن يدفعه إلى الأمام بوسيلة ما .

لكنه — وقد ذاق حلاوة القبلة الخاطفة — عرف معنى الصبر الجميل ، وتيقظت أحاسيسه وتنبهت فجأة إلى ما تقاسى من جفاف الحياة .. فألحت تطلب المزيد .

وبعد أن خرج أحمد لمقابلة رئيس نادى الطليعة ، وجد زكريا نفسه وحيداً فى المسكن الصغير ، وأدرك — لوهلة قصيرة — أن خطط صديقه بدأت تتعارض — أولا تتفق — مع خططه هو ! !

فهاهو أحمد يراوغ للكشف عن هوايته ، فإذا أحس بأنه موضع اتهام قال لحقيقة ، لعلها ليست الحقيقة !! وفكر زكريا فى نفسه أيضاً فلم يغب عن خاطره أنه يختلف مع صديقه اختلافاً داخلياً أساسياً ، لكنهما حافظا على صداقتهما صافية

طوال دراستهما الجامعية ، فلما تشاركا فى المسكن زادت الروابط بينهما ، وصارا متآلفين إلى حد بعيد ، وقد مكن لهذا التآلف اتحاد المؤثر عليهما !! وإن اختلفت طريقتهما فى تلقى التأثير !! كلاهما عاش حياة قلقة ممزقة يؤرقها الطموح .. والبحث عن مثل صالحة للاعتناق الدائم .

لكن زكريا بعد أن دخلت حياته قبلة سريعة ، قبلة حلم بها طويلا .. أصبح يفكر فيما هو أكثر منها ، ويحلم به ، ويرسم الطريق إليه .

من أجل ذلك لم يستطع زكريا أن يبقى فى البيت طويلا .. فخرج إلى الشارع وهو عازم على أن يذهب إلى المستشفى .. وفكر ..

« لقد قلت لفريدة إننا قادمان غداً .. ولعلها فى انتظارى ، أو لعلها فى الطريق إلى المستشفى فألتقى بها فيه ، وأصحبها إلى مكان بعيد .. وهذا أجود » .

وبعد دقائق كان يسير بموازاة شاطىء النيل ، وهو يجد فى خطواته ، وقد سيطر عليه إحساس بأنه سيجد فريدة فى الشارع ، متجهة إلى المستشفى أو عائدة منه ، ولكنه — ولسبب لا يدريه — فجأة ، استسخف هذه الفكرة ، وبدا لنفسه أبله مغرقاً فى التفاهة ، إذ كيف ظن أن المصادفة ستحقق له شيئاً لمجرد أنه تمناه ؟

وهنا ذهبت حماسته ، فتوانت خطواته ، واختفى التصميم من ملامحه ، ليخلى مكانه للشرود والفتور ..

واحتارت نظراته حيناً ، وعادت تتسكع بين لافتات المحال فى الجانب الآخر من الشارع ، وبين أسماء العوامات الراسية على الشاطىء .

وتوقف أمام تلك العوامات لحظة ، وهو يقرأ لافتة علقت إلى جانب رقمها كتب عليها « للايجار » وكانت هذه هى المرة الأولى التى يعرف فيها أن العوامات تستأجر ! وتمعن فى اللافتة قليلا ، وتردد لحظات ، ثم أصلح وضع رباط عنقه ، وزر سترته ليكتسب مظهراً جاداً يوحى بالثقة ، وسوى شعره بأطراف أنامله ، ونفخ زجاج نظارته ، ومسحه بالمنديل ، وابتلع ريقه .. ثم ضغط الجرس .. ووضع يده — التى ضغط بها الجرس — فى جيب سترته ، كأنما يوارى خطيئتها .

وفتحت خادم صغيرة باب العوامة ، وعرفت من هيئته أنه مستأجر ، فأشارت إليه بالقدوم ، فنزل السلم الضيق الصغير ، وتبع الخادم صامتاً ، وهو يكاد يتعثر فى مشيته فوق الألواح الناتئة قليلا ، ولكنه بعد بضع خطوات من البهو .. داس فوق بساط صوفى وقبل أن تستقيم خطواته فوقه ، وجد نفسه فى مواجهة سيدة بدينة ، سدت بقامتها باب البهو الموصل إلى الحجرات . وارتبك زكريا قليلا ، فقال معتذراً ، ويده تختلج قليلا فى جيب سترته :

— معذرة يا سيدتى إذا أزعجتك .

قالت السيدة ، دون أن يبدو على وجهها أى تعبير :

— ليس فى الأمر إزعاج .

وصمتت قليلا ، ثم أردفت :

— ما دمنا نرغب فى تأجير هذه العوامة فلابد أن نستقبل كل من يريد ذلك ..

قالت عبارتها ، ثم استدارت وهى تشير إليه أن يتبعها ، والخادم الصغيرة من ورائه . ومضى دون أن يجد ما يقوله ، وأحست السيدة بصمته ، ولعلها أدركت ارتباكه ، وغرابة الوضع بالنسبة له ، فالتفتت إليه مطمئنة وهى تقول :

— طبعاً تشاهد الغرف حتى تقف على عددها ومقدار أحجامها .. ثم ابتسمت ابتسامة لا معنى لها وهى تكمل ..

— وأخيراً .. كل شىء قسمة .

وكان كل ما استطاع أن يقوله هو :

— نعم !!

وعادت السيدة تقول :

— سبحان مغير الأحوال ، لولا حاجة ابنى إلى ما غادرتها لكنه يتعلم فى أوروبا ، وقد بعث إلى يستدعينى لأنه مريض .. ولولا هذا ما تركتها ..

— إن شاء الله تسعدين بشفائه . وتعودين إليها بالسلامة .

— ربنا يسمع منك .

ومضى فشاهد حجرات العوامة ، ومرافقها .. بغير وعى كامل .. كان مدهوشاً مما يرى وهو يكتشف لوناً من الحياة ليس له به صلة ..

وبعد أن طافت به السيدة فى كل الجوانب ، ناقشها فى الأجر الذى تطلبه وأفهمها أن له رفيقاً .. وخرج على أن يعود مع رفيقه ليعاين السكان ..

وراقت له اللعبة ، فنزل إلى عوامة أخرى ..

ولكن السيدة فى هذه المرة لم تكن بدينة مترهلة لا يشغلها سوى ابنها المريض فى أوروبا . ولم يكن معها خادم صغير .

كانت فى الخامسة والأربعين .. أو أقل قليلا ، ولكن المساحيق والألوان بالغت فى إظهار ما بقى فيها من نضارة الصبا الذاهب . ولكن هذا القدر الباقى كان ينبىء فى نفس الوقت عن عظمة الثروة التى بددت .. وكانت فى ثوبها المنزلى البسيط ، وزينتها الكاملة .. كأنها تتأهب للخروج .. ولم تكن ملامحها مصرية خالصة .. كان شعرها الأحمر الثائر ، ووجهها المكتنز قليلا ، وقسماتها الواضحة .. كأنما صنع كل جزء على انفراد ثم ألصق بمجاوره .. ثم بشرتها المتوردة الشفافة .. كل ذلك كان ينبىء عن عرق غريب .

وحين وقف أمامها .. عند بداية السلم ، سألته فى حزم وهى تقتحمه بنظراتها فتزلزله :

— ماذا تريد ؟

فأجاب بارتباك ظاهر ، ولسانه لا يكاد يطاوعه ، ويده تشير إلى رأس السلم الذى هبطه :

— أبحث عن عوامة للايجار .

قالت ، ولم تزايلها صرامتها :

— هذه ليست عوامة للإيجار .. هنا حجرة فقط .

— وألجم لسانه فلم يجد ما يقوله ، فعادت السيدة تقول وقد خفت حدتها ، ربما بعد ما رأت من ارتباكه :

— حجرة واحدة فقط هي التي ستؤجر ، والباقي أشغله أنا وخادمتي ، كانت ابنتي معي ، ولكنها تزوجت ، وتزورني من حين لآخر . فإذا رغبت في الحجرة أريتها لك .

فتراجع نصف خطوة ليستند إلى درابزين السلم ، ونظر إلى الأفق وهو يتصنع جدية التفكير ، وقد زوى مابين حاجبيه ، ثم قال :

— في هذه الحال لا مكان لرفيقي ؟

— نعم .. حجرة واحدة لفرد واحد ..

قالت ذلك وعلى فمها نصف ابتسامة ، لم يلحظها ، كان مشغولا بمتابعة عود من العشب الأخضر يعبث به التيار ، ويحاول أن يقحمه تحت العوامة ، والعود يقاوم يائساً

وهنا قال :

— هل تسمحين لي بمشاهدة الحجرة .

— تفضل .

ومضت أمامه ، وضغطت زر النور ، فظهرت ملامح المكان .. وبدا أنيقاً مشجعاً في تجانس ألوانه ، وتوزيع قطع الأثاث الصغيرة فيه .. وبدت السيدة وقد غمرها الضوء ، مليحة القد ، متينة البناء ، ممتلئة الأنوثة ، توحي بالدفء ..

ومضى خلفها حتى انتهت به إلى حجرة في زاوية العوامة .. فيها سرير ومقعدان من القش ، ووقفت السيدة فجأة واستدارت إليه فأوشك أن يرتطم بها . وقالت ، وقد اختفت النبرات القاسية :

— كانت حجرة ابنتى .. وسأعطيها لك ..

واستدركت :

— إذا رغبت فيها ..

قال بلا هدف محدد :

— ما دامت قد تزوجت فإنها فى حجرة خير منها ..

وابتسم فى تخابث ، وهو يرمق السيدة من وراء زجاج النظارة ، فهزت رأسها بلطف ، وضمت فتحة ثوبها قليلا ، وضغطتها بيدها وهى تقول :

— كلا .. ما أظن .. حنان الأمومة بلا ثمن .. ولا نظير له .. ولذلك لا يمكن تعويضه .. إن البنت لا تعرف قيمة حنان أمها إلا عندما تجرب حنان الآخرين .

قال ، وقد استهوته المناقشة ، وهو لا يدرى إلام تقوده :

— وأيضاً فإن البنوة متعة للأم ، ولا تعرف الأم قيمتها إلا عندما يتركها أولادها إلى غيرها .

قالت موافقة :

— هذا صحيح .. المرأة تنطوى على حنان لابد أن تبذله وإلا جنت .. وقد كنت أحيط به ابنتى .. ثم .

وتنهدت ، ثم التفتت إليه ، وقالت بدهشة وكأنها تعتذر :

— لقد شغلتك بأمر لا يهمك .. معذرة .. هل أعجبتك الحجرة ؟

فتصنع فحصها بنظراته ، وقال بتردد :

— نعم .. نعم .. لا بأس ..

فتقهقرت السيدة ، وهى تسأل :

— ما عملك ؟

— طالب .. فى الجامعة — لمدة ثلاثة أشهر .. وأتخرج ..

— ستجد هنا جواً ملائماً للقراءة .. وخاصة عندما يهل الصيف .. ولكن هل سبق لك سكنى العوامات .

— كلا .

وتقدمت إلى حجرة مجاورة ، وضغطت زر النور ، فكشف الضوء معالمها ، وكانت حجرة استقبال صغيرة ، وقالت السيدة وهى تجلس على مقعد فى الزاوية :

— تستطيع أن تذاكر فى هذه الحجرة ، وأن تستقبل ضيوفك فيها ..

وأومأت إليه أن يجلس ، فنظر إلى الكرسى المجاور فى ارتباك .. وجالت عيناه فى سرعة قلقة فوق محتويات الغرفة الصغيرة .. أربعة مقاعد وأريكة من السمك وحشايا متناثرة فى المقاعد ، وجو له رائحة غريبة ، كأنما كان يغص بالزائرين منذ دقائق وزجاجات فارغة ملقاة تحت أحد المقاعد .. وفى منفضة السجاير بقايا لفائف لوثت أطرافها بأحمر الشفاه .. وبقايا أخرى لم تلوث ..

وجلس متهاوياً وهو يتنهد ، ولم نفسه وانكمش فى المقعد ، فاسترخت السيدة فى جلستها وكأنها تستعد للنوم ، كأنها توحى له بالطمأنينة ، وسألته وأهدابها تتراقص فى قلق خفيف :

— هل أعجبتك الحجرة ؟

— جداً ..

وتبادل مع السيدة نظرة تائهة ، فيها بريق غريب ، وأوشك أن يدركه الخوف فيستأذن وينطلق خارجاً ، ولكن السيدة قطعت عليه نوازع الخوف متسائلة :

— هل تشعر بشىء ؟

— كلا .. فقط .. أريد أن أقوم .

— لماذا ؟

— أريد أن أنام .. إننى أستيقظ مبكراً للمذاكرة .

— تنام ..

قالتها السيدة ، ونظراتها المتكسرة تغمره بجو مخدر ، فتكهرب أوصاله ..

ثم أردفت :

— أظن حجرتك معدة لذلك من الآن ..

ونهضت فى تثاقل ، وقادته من يده ، كأنه منوم ، إلى الحجرة الأخرى .

وبعد ساعة كان زكريا يغادر العوامة بمشاعر متضاربة تكاد تمزق صدره ، لا تخفف حدتها النسمة المغسولة التى تصعد من النهر ، لا يدرى أيرضى أم يسخط ، أيصفق على نفسه ، أو يفتح ذراعيه لاستقبال الحياة الجديدة .

* * *

كان يوماً رائق الشمس .. سحرى النسمات ، وكانت أحواض الزهور فى فناء الـكلية بدأت تبتسم لمقدم الربيع ، فانبثقت زهرة هنا ، ونفرت زهرة هناك من بين الشجيرات الداكنة الخضرة . وكان يزيد هذا المنظر جمالا تلك الشجرات التى تقوم بمثابة الحاشية لذلك الثوب المطرز البديع .. وكانت خضرة الربيع وهى تغزو صفرة الشتاء فى أوراق الشجر توحى لأحمد ماهر ، الواقف مع صديقه إلى جوار جذع شجرة بخاطر يهتز له قلبه ، ويحلم بأن يتحقق فى أمسيته تلك . .

أما زكريا فقد أطبق أصابعه بعصبية غريبة فوق كتبه ، وهو يحملق فى الأرض الرملية التى ارتسمت فوقها آثار أحذية زميلاته ، فصنعت فيها ثقوباً غائرة . . بدت له مثل آثار أقدام الذئاب .

كان زكريا حائر المشاعر ، متناقض الإحساس . . يذكر من الليلة الماضية نعومتها السحرية ، وطاقة الدفء التى غمرته مثل حمام بخار فى يوم بارد فصنعت من حوله جواً أسطورى المتعة . . فيرتجف جسمه استجابة لنشوة خياله ، ويستيقظ فيه جوعه من جديد ، ويحلم بعودة سريعة . . .

لـكنه حين ينظر إلى أحمد ماهر يشعر بهوان عظيم . . ويزيده إحساساً بالهوان أن أحمد لم يكترث لغيابه ، ولم يسأله لماذا تأخر فى الخارج ، ولم يسأله لماذا تركه على باب غرفته ورقة يرجوه فيها ألا يوقظه مبكراً للمذاكرة كما اعتادا . .

وكان أحمد يحس بأن شيئاً ما ينضاف إلى حياة صديقه ، ولـكنه استبعد أن تـكون علاقة من ذلك اللون الذى قام بينه وبين سيدة العوامة .. كان يظنها قصة حب .. وكان يخمن أنها لابد أن تـكون مع فريدة .. لابد أن تـكون الأمور قد تطورت فى غيابه بين زكريا وفريدة ، وتملـكته غيرة خفيفة وهو يرى مياههما تمازج وتندفع فى تيار واحد إلى حد يخفيانه عليه .. وتفـكر .. « لاشىء يفسد الحب مثل الوساطة .. مهما كانت بريئة وصريحة .. إن الوسيط يضيف

مشاعره من حيث يدرى ، أو لا يدرى — إلى ما ينقل من رسائل المحبين .. وبذلك يكيف الأوضاع على نحو خاص قد لا يخطر ببال من يهمم الأمر .. عندما كنت وسيطاً لفريدة عند زكريا تعثرت قصبة حبهما .. وتمنع زكريا وتثاقل ، وتطاير الغبار حين خطبت فاطمة ، فأفلتت منه بضع كلمات لا لزوم لها .. وذهب السراب كله .. وبقيت الأرض بصلابتها وقوتها .. فعاد إلى فريدة خاطباً ودها .. إلى درجة أنهما يتواريان عنى ..

وانكمش على نفسه فى أسى ، ولا يطاوعه لسانه أن يعلن حبيبة ألجأته إلى الاستعانة بالآخرين . فمزقت وجوده ، وأدمت قلبه .. وكل حصاده منها كلمة واحدة :

« أنا لا أخرج فى الليل »

وهمس بأمل فى الليلة المقبلة :

« لابد أن تخرج الفراشة من الشرنقة .. هذه الليلة .. لقد أقبل الربيع .

قال زكريا بصوت لا يحمل أى معنى :

— تأخرت فريدة ..

فرمقه أحمد بنظرة تحية ، لا تخلو من غيظ ، ومن شك ، وقال وهو يكتم زفرة :

— أصبحت قلقاً عليها ..

فقال زكريا محاولا أن يتهكم فى رده كعادته ، وأخذ يلوح بيده :

— أليست ظل زياد ؟

ونظر إلى أحمد فرأى نظراته المغيظة المتشككة ، فقال متجاهلا ، وكأنه يشرح حديثه السابق :

— إنها ظل سامية .. مثلما كان زياد ظلا لقيس .

فقال أحمد مجارياً ، دون أن يهدف إلى اتهام صديقه ، وإن قصد العبث به :

— وعن أيهما تبحث . . الأصل أو الظل ؟

ولسعته الكلمة فى جبهته .. كأنما هى جمرة ، همس وهو يتعذب بشقاء يملأ نفسه :

— يا إلهى .. ما أغرب هذا الصديق كأنما يقرأ ما بنفسى ؟ كأنما يعرف أن مغناطيس سامية جذبنى ذات يوم .. وقال بمسكنة وتذلل :

— أتظن هذا فى حاجة إلى تساؤل ؟

وسكت أحمد ، وقرأ زكريا فى صمته علامة الشك ، وأحس بعذابه يحيط به من كل جانب ، ويضغطه ضغطاً قاتلا كأنه حشر حشراً فى ثوب ضيق لا يستطيع الخروج منه ولو بتمزيقه .. وأوشك أن يقول له بضراعة :

« هل يؤلمك أن تعلم أننى التقيت بفريدة .. وإننى على موعد معها .. ألم تكن هذه رغبتك ولو من أجل سامية » .. ثم يصفو الجو بينهما .. ولكن أحمد الذى لا يقوى على الخصام ولا صبر له على تعذيب الناس ، أحس سريعاً أنه وضع رأس صديقه على وسادة من المسامير وأنه قسا عليه بلا مبرر ، واتهمه بلا دليل مقنع .. » .

وماذا عليه أن يلتقى بفريدة وأن يحبها وتحبه .. أليس هذا ما يتمناه مع سامية وتعجز وسائله عن الوصول إليه ؟

وأوشك أن يسرى عن صديقه وأن يسأله الصفح ، وقد لاحت هذه الفرصة عندما رأى فريدة داخلة من باب الكلية ، وقد ارتدت ثوباً رمادياً بديعاً ، محبوك الأطراف على جسدها الممتلىء قليلا ، فبدت فى سمرتها الدافئة ، وعودها الطرى الغض متضاعفة الحسن . فقال أحمد ، وكأنه يمسح أثر قسوته على صديقه :

— الشيرمان فى الجبهة . . انتباه .

وابتسم ابتسامه واسعة غير متهللة ، وإن بدت متحمسة ، فبادله زكريا مثل

بابتسامته وقد خفق قلبه بود صديقه ، وعاد يفكر فيه بإخلاص ، فجامله قائلا بهذات اللهجة :

— والشينارو فى المستشفى .

— النتيجة واحد لواحد .

— الرمادى يكسب . .

كانت فريدة — بثوبها الرمادى المحبوك — قد أقبلت عليهما فتورد وجهها حين رأت ما على ملامحهما من آيات السعادة الطارئة ، وباركت لأحمد خطبة أخته ، وتمنى لها أحمد — وهو يغمز بطرف عينيه — يوماً مثل ذلك . ولم يشترك زكريا فى الحديث إلا قليلا كما اعتاد ، وإن كور لها شفتيه خلسة ، وكأنه يقبل الهواء ، فقابلته بعبسة صغيرة جملته يستدير إلى جانب ويتشاغل بالتقليب فيما معه من كتب .

وافترق الأصدقاء على أمل اللقاء فى المستشفى مع الأصيل ، وعاد أحمد يستحضر كل ما أعده من كلمات وأفكار لتلك المقابلة التى جادت بها الظروف بعد تعذيب طويل ، وأخذ يجرب مختلف الصور التى تلائم شخصيته فى ذلك الموقف . . الرجل الجاد الذى يقدر المسئولية وينوء كتفه بثقلها ، أو الفتى المرح الساخر الذى يطفو على سطح الحياة ويعيش عمره . . أو المثقف الذى يتأنى فى اختيار كلماته ، وتبدو بعيدة الغور شديدة الومض . . . وراح يستعيد تلك الصور التى كونها لنفسه حين كان فى طريقه إلى الأستاذ شافعى رئيس تحرير مجلة الفكر ، لكنه مالبث — بعد حيرة قليلة ، أن طرد هذه الصور المفتعلة جميعاً من ذهنه وكأنه يمزقها ، وقال فى تصميم :

— لن ألبس إلا ردائى . . الوضوح . . وليكن ما يكون . .

وهمس فى إشفاق راعش

— ولن يكون إلا الخير . .

لم يكن القلق قد تخلى عن سامية بعد ، فأصبحت — منذ ذلك اليوم الذى التقت فيه بالدكتور راضى ، ضائقة الصدر بالمستشفى ، متعجلة الخروج منه ، ولم تسكن فى غمرة قلقها ، واضطراب موقفها تفطن إلى السكينة الناعمة التى استولت على نفس فريدة ، وإلى البريق الحنون الذى أصبح يطل من عينيها ، وإلى الزينة البسيطة المتقنة التى أصبحت حريصة عليها .

وعندما كان الليل يذر ضبابه الرمادى ليغمر به الوجود ، كان الصديقان يأخذان طريقهما فى ردهات المستشفى ، قاصدين حجرة سامية .

وأحس أحمد بصدمة ، كأنما تلقى لكمة قوية .. لقد كان زكريا — ناسياً نفسه — ينطلق إلى الحجرة التى تنزل فيها سامية ، دون أن يستعلم من أحد .. وكأن رجليه اعتادتا هذا الطريق .

واجتاحه قلق مفاجىء ، وارتعدت يده التى احتضن بها عضد صديقه ، فاعتصر ذراعه بلا وعى وهو يقول دون أن ينظر إليه :

— أتراك تعرف الطريق ؟

فارتعشت رموش زكريا من وراء زجاج النظارة ، وستر الليل حركته ، فتمالك نفسه وقال بثبات :

— لقد مشيت فيه من قبل .. إن هذا الجناح مخصص لفتيات الجامعة ..

وتطامنت مخاوف أحمد .

وكانت سامية مضطجعة فى فراشها ، وغطاء صوفى أبيض قد غطاها ، ووسادة عالية من خلفها ، وفريدة جالسة على مقعد قرب رأسها ، والراديو الصغير فوق الصوان يهمس بأغنية يعلن فيها المطرب ، بصوت جريح خائر ، أنه مصمم على التعلق بمحبوبه ، وإن ازدراه محبوبه ولم يعره أى التفات . .

وعندما نقرت أصابع أحمد فوق زجاج الباب ، تطلعت عيون الصديقتين نحوه ، ثم التفتا فى نظرة حائرة مرتبكة .. كأن شيئاً لا يتوقع قد حدث .. واختفى

صوت الراديو ، واعتدلت سامية فى الفراش ، وجمعت ساقيها كأنها تريد أن تغادره ، بل فكرت فى ذلك لحظة قصيرة ، ثم عادت . وقامت فريدة تكاد تنزلق فوق البلاط الناعم . وسلم أحمد على فريدة ، ونظراته على الجالسة فى سريرها يغمرها الارتباك والخجل . وتقدم من السرير وقد فاض قلبه بالحب ، واحتبس صوته لشدة انفعاله ، ومد يده فاحتضن يد صاحبته وهو يقرب منها حتى ليوشك أن يضمها إلى أحضانه .

وقال بصوت يذوب حناناً :

— كيف أنت يا سامية ؟

قالت وهى تهرب منه بنظراتها ، وتعيد يدها إلى تحت الغطاء :

— الله يسلمك .

وتمهل أحمد فى استقبال تحيتها ، كأنه يخشى على نشوتها أن تنفد ، وبدت له التحية التقليدية الدارجة عظيمة الدلالة :

— الله يسلمك .. « ولماذا تحرص على سلامته ؟ » بل ولماذا تقولها بكل كيانها وحنانها الدافق ؟ وشجعه هذا على أن يقول وهو يجلس على كرسى فى الجانب الآخر المواجه لجلسة فريدة بينما زكريا يأخذ مكانه إلى جانبه :

— لقد اشتاقت الكلية لك .

كم كان يتمنى أن تقول :

وأنا أيضاً قد اشتقت لها .. كم فى هذا من دلالة رائعة .. يعبدها .

لكنها أخذت حديثه مأخذاً جاداً ، وقالت بلهجة ليس فيها مجاملة ، بل فيها سخرية خفيفة ، وهى تتذكر الدكتور راضى ، الذى لابد أن تلتقى به عقب عودتها :

— الحق .. إنه شوق غير متبادل ..

وأحست أنها وقعت على تعبير خشن لا يناسب تحيته ، فأرادت أن تظهر له أنها لا تعنيه ، وإنما تعنى الكلية بالفعل ، فقالت :

— ربما كانت هى التى أسلمتنى إلى هذا الفراش ؟

قال متلهفاً :

— كيف وأنت ..

وتردد فى اختيار الكلمة اللائقة .. هل يجمل به أن يقول :

« أجمل .. أو أطيب ، أو أحسن من فيها ؟ »

وعاد يقول :

— وأنت .. خير من فيها .

وقال فى نفسه راضياً :

— هذا أطيب .. لنستدرجها برفق .. يا إلهى .. هل يجب أن أقرأ الغيب .. أو أدرس الفراسة لكى أعرف كيف تعامل هذه الفتاة ..

وقالت فريدة وفى عينيها نظرة ضاحكة مغتبطة :

— احم .. احم .. نحن هنا ..

فقال زكريا متجاوباً معها :

— وأنا أيضاً .

فرد أحمد مازحاً :

— وأنت أيضاً ما شأنك .. هل قررت أن ..

— كلا .. لم أقرر بعد .. ولكن .. خير من فيها تشمل الجنسين .

وضحك الثلاثة ، وابتسمت سامية تلك الابتسامة المترددة التى يحلم أحمد بإشراقة كاملة لها .. وفجأة لفهم صمت عميق ..

ربما شرد كل منهم وراء ذكرى ، أو راح يتأمل موقفاً مضى ، أو موقفاً سيأتى إلا أحمد الذى أحس بالصمت مضاعفاً رهيباً قاتلا .. لأن فكره كله كان يتجه إلى تلك اللحظات التى يحياها فى مواجهة سامية والتى قرر أن تخرج فيها الفراشة من الشرنقة وترفرف له وحده .

وهنا قال بتردد :

ــ وبالمناسبة .. مجلة الفكر ستطرح موضوعاً فى عددها القادم ، الذى سيظهر بعد بضعة أيام ، عن الصفات التى على أساسها يتم اختيار فتاة الجامعة المثالية .. فما رأيكم فى هذه الصفات ؟

وسارع زكريا بالإجابة فى غير تدبر :

ــ لا مثالية فى الجامعة .. لأنها مجموعة من البشر ..

وألقت إليه فريدة بنظرة عاتبة ، بينما أسبلت سامية جفونها .. كأنها تعتزل المناقشة وقالت فريدة بمرح تحاول به أن تعطر الموقف :

ــ أنا مثالية يا أحمد ..

وغمزت نحو سامية التى مازالت مسبلة جفونها واستطردت :

ــ هه .. ابحث فى صفاتى .. تصل إلى النتيجة ..

قال أحمد مندفعاً وراء غمزات فريدة :

ــ إن لم تكونى مثل كل فتيات العالم .. تغضبين من النقد ، فإنى أقول إنك قريبة من المثالية لولا بعض أشياء .

قالت وهى تميل برأسها نحو سامية :

ــ لماذا ؟

ــ المثالية الجامعية يجب أن تستمد من وظيفة الجامعة .. والجامعة ــ كما أفهمها ــ ثقافة وسلوك .. وبذلك تكون الطالبة المثالية هى التى استطاعت أن

توفق فى دراستها ، فى الوقت الذى لم تكن فيه خلية منعزلة أو ميتة من حيث ألوان النشاط الأخرى .

وهنا أحست سامية بأنها هى التى توجه الحديث دون أن تشترك فيه ، وأنه موجه إليها هى لا إلى فريدة .. وأحست بألم مفاجىء فى جرحها ، وبرغبة خفيفة فى التقىء .. قاومتها باعتدال قليلا فى جلستها ، ونظرت إلى أحمد بمشاعر متضايقة وتمنت لو أنه يغادر المكان فى طرفة عين .. لو أنه لم يحضر .. وقالت وهى لا تكاد تتحكم فى كلماتها :

— ما معنى أن تساهم الطالبة فى ألوان النشاط الأخرى ؟ ما هو هذا النشاط ومن هم شركاؤها فيه ؟ أليسوا هم الطلبة بسخافتهم وألسنتهم التى لا ترحم .

تلقى أحمد الصفعة قوية قاتلة ، وأحس بخيبة أمل مريرة ، وقد هربت الدماء من جسده ، وتصلب لسانه .. ولزم زكريا الصمت كأنه يراقب مباراة شيقة يتوق إلى معرفة نتيجتها ، وتكهرب الجو ، واحتقن وجه سامية بغضب مفاجىء ، وقالت فريدة مهدئة :

— ليس كل الطلبة على هذه الشاكلة .

قالت سامية ، ولم يزايلها غضبها ..

— ولو .. من الذى يقبل أن تختلط أخته مثلا بزملائها فتجالسهم ، وتضاحكهم ؟ إذا كانت « أضرار هذا الموقف لا تعود على الرجل فإنه يرحب به ، ولتذهب الفتيات إلى جهنم .. أما إذا كانت أخته فإن الشهامة تحطم المفهوم الزائف للمثالية الجامعية » .

وبدأ أحمد يسترد وعيه ، ويلهث وراء الكلمات الغضبى التى فاجأته مثل العاصفة . ولما عرّضت برغبته فى اجتذابها إلى المشاركة فى النشاط الجامعى لمست من نفسه وتراً حساساً مازال يطن فى أذنه ..

أخته .. ما موقف خاطبها منها الآن .. ؟

وشمل الحجرة بنظرة خاطفة مذعورة .. ها هو يجد الوسيلة للوصول إلى سامية فى جلسة منفردة .. ولقاؤها كان حلماً .. أما أخته فقد كان خاطبها مدرسها .. وهو ما يزال يراها كل صباح فى المدرسة .. ويستطيع أن يراها كل مساء فى جلسة مثل هذه ولكن فاطمة ليست لها هذه الأسلحة التى يصطدم بها لأول مرة .

« سترك يارب » ..

ونهض زكريا للدفاع عن موقف صديقه الذى صمت فجأة ، وكأنه تخلى عن القضية فقال فى شبه تحد :

— أنا أقبل أن تشارك أختى زملاءها فى النشاط .. لكن ليس كل الزملاء .. يجب أن يكون هناك ثقة أولا .

قالت سامية بلهجة يشوبها التهكم :

— الثقة تكون نتيجة لشىء ، وليست مقدمة له .. وهذا الشىء ليس النشاط الجامعى .

قال زكريا وهو يأمل فى إحراجها وإسكاتها :

— إن فريدة تختلط بنا .. أحمد وأنا ومع ذلك لايرى أحد عيباً فى ذلك ..

قالت وهى تسبل جفنيها ، وكأنها تنهى المناقشة :

— من يدرى .. ومع ذلك ليس لأحد حجة على أحد ..

وهبط صمت ثقيل مظلم ، وتسربت برودة قاتلة تسرى فى عظام أحمد ، فوسد خده على راحته وهو يتأمل سامية بعينين تائهتين .

ومسح زكريا عرقه بمنديله برغم برودة المكان .

وقامت فريدة وأحدثت ضجة بكرسيها رغبة فى تحطيم الصمت ، ومشت نحو صندوق الحلوى ، وقالت بصوت مجوف كأنه يأتى من أعماق بئر :

— لقد شغلنا أنفسنا بكلام فارغ ، ولم نقدم لكم التحية الواجبة .

ودارت فريدة على زميليها بالصندوق ، وأخذ أحمد قطعة منه ، وفض غلافها ، وقرأ الطالع الذى نقش على الورقة الداخلية ، وابتسم فى أسى وهو يقدم الورقة إلى فريدة قائلا بتهكم حزين :

— ومع هذا . .

فأخذت فريدة الورقة وقرأتها بصوت واضح .. فيه تهكم ساخر :

— حماتك تحبك . .

وبعد دقائق استأذن الصديقان ، وصافح أحمد سامية وهى جالسة فى سريرها ، وغالجه شعور حزين بأنه ربما كانت هذه آخر مرة يمس فيها يدها ، لكنه قال وهو يتكلف ابتسامة آسية :

— إن شاء الله نلتقى بك وقد تم شفاؤك .

— إن شاء الله .

وصافحتهم فريدة عند الباب .

ومضى الصديقان ، وزكريا لا يجد ما يسرى به عن صاحبه ، ولكنهما بعد أن غادرا المستشفى ، وقابلا هواء الشارع المنعش ، أحسا بتبدل خفيف ، بينما راح أحمد يحملق فى الظلام الممتد ، وعندما صارا فى موازاة العوامة ، اختلس زكريا إليها نظرة وهو يتبع صديقه ، فرأى نوراً خافتاً ينبعث من حجرة الاستقبال . . ولاح له خاطر آخر حين بلغا الكوبرى والتقت نظراته بأضواء النادى الذى يقع على ناصيته . . هذا موعده مع فريدة .

ووقف إلى جانب صديقه على الرصيف فى انتظار السيارة ..

وقال زكريا : سأقف معك حتى تركب .

وأحس كأنما يطمئن صديقه على الرصيف فى انتظار السيارة .. ولكنه تفكر :

« ربما كان من الخير له أن ينفرد بنفسه فى تلك اللحظات الصاعقة المليئة بمرارة الهزيمة » .

وهنا أكمل محسن :

— إنى مرتبط بموعد سابق يصعب الاعتذار عنه .

ولم يجب أحمد .

وجاءت السيارة .. وركب بمفرده .

وبعد دقائق كان يسير فى الشارع ، متجهاً إلى حيث يقيم ، وموجات من الندى تحوم فى الجو كأنها أرواح تائهة فى الليل ، وتطلع إلى الظلام الضارب الذى لا نهاية له .. وأحس بأن كل ما على الأرض يعاديه .. وبأنه شىء ضئيل لا قيمة له .. مثل نملة صغيرة .. فى جرن القمح قد اختلست حبة ! وراحت تتعثر بين الأعواد . تنوء بثقلها ، ولا تستطيع أن تتخلى عنها .. لا أحد فى العالم يعبأ بها .. حتى القمر الساطع الذى ينير لها الطريق .

(١٨)

كان إحساس الدكتور راضى بالهزيمة عميقاً . .

لقد كان يحس حين عودته من أوروبا بأنه المنتصر الظافر .. أتى بالدكتوراه من كامبردج ، وتزوج من هناك .. امرأة لا تثقلها أكداس الشحم المتراكم فى ردفيها وصدرها ولا تملأ رأسها الوشايات وفضائح الجيران ، ولا تفسدها الخالة ولا العمة . . ولا تقضى صباحها متسكعة بين الراديو والشرفة . .

إنها من نوع آخر . . تسمع بتهوفن وموزارت ، وتقرأ ديكنز وشو واليوت . . ، وإذا فكرت فى السينما فإنها لا تذهب إلى «المعلمة توحة» و «حماتى قنبلة ذرية » ، وإنما تفكر فى عبقرية شابلن وسخرياته العميقة من تناقضات الحياة وتخبط العصر الجديد الذى يبحث عن شخصيته . . فلا يجدها . . إن أوروبا أسبق من الشرق فى ميدان الحضارة الحديثة ، وأرقى صناعة .. وقد أتى بزوجة من صناعة أوروبا . . ترفعه فوق الناس ، وتحيطه بجوأحبه وخلقه خلقاً جديداً . . لكن الوضع بدأ يتغير منذ اتصل بالحياة المصرية عن قرب .. بين أصدقائه وتلاميذه فى الكلية . . وبدأت المشكلة تتضح بشكل أقوى بعد أن أنجب ابنه الوحيد مرسى . . فقد كان مرسى ، أو ماسى كما يدعونه — صورة غريبة مختلطة مثل النبات الشيطانى الذى ينبت على حواف الترع فلا تعرف له مصدراً . . عيناه الزرقاوان وشعره الأصفر وتقاطيعه الرقيقة وبشرته الوردية تلصقه بأمه ، وقامته المديدة بالنسبة لسنه ، وأنفه الكبير نوعاً ما ، وعصبيته الخفيفة ، ورثها عن أبيه . .

أما جده .. مرسى ، ذو الجلباب الكشمير ، والعمامة الضخمة . فلم يكن فيه منه شىء . ومرسى . . بدأ يلغط بالإنجليزية ، وتناغيه أمه باللغة الإنجليزية ، ويداعبه أبوه باللغة الإنجليزية . . ولكن الخادم . . تلك الصغيرة الشقية التى أحبها مرسى وأصبح لا يسكت إلا متوسداً صدرها . . تدس له الكلمات العربية خفية ، فيرددها الطفل ويعابث نفسه بها . . وتصير لغة الطفل مزيجاً آخر غريباً يزيد من اضطراب

الدكتور راضى ، وتفـكيره المستمر فى البحث عن حل . لـكنه فى كل تلك الفترة لم يزايله شعور المنتصر ، إن زوجته أروع ، لاشك ، من كل من قابل من نساء فى مصر . وإذا ضاق بها فإنه هو الذى سيغير الوضع ، ويتزوج مصرية . . نعم . . من تلك التى سترفض يد الدكتور راضى ، ولا تلهث فى العدو تجاهه لترث عرش مسكنه الأنيق ، ومنصبه المغرى .

وفى لحظة ضعف ، حاول أن يقاومها دون جدوى ، وقد ظن أنه على إرادته ، وأن الملبس الناعم ، والضعف المستسلم الذى يغرى بفرض السيطرة لا يخفى وراءه جسارة متناهية . . فى لحظة ضعف ، وقد ظن أن الطريق ممهد والفرصة سانحة . . داعب يد سامية ، وهو يرقب عينيها المذهلتين وقد زادهما ضعف المرض فتوراً مثيراً ، ورأى كيف تحول البريق الساحر فى العينين الخضراوين المثيرتين إلى تنمر ، وكيف تحولت قسمات وجهها من الارتباك الواضح لاستقبالها له فى السرير ، إلى السخرية المرة منه وطرده من حجرتها ، وازدرائها لمحاولته . .

« يا إلهى . . كم يبدو ذلك مهيناً . . »

وعاد يبحث عن السلوى عند زوجته فوجدها تنام مخمورة غير عابئة به . . فظل يحملق فى ظلام الحجرة إلى أن رأى نور الفجر يقتحمها عليه . . فاقتنع بأن وراء كل ظلام . . . نوراً ، وهنا فقط استطاع أن ينام .

وفى اليوم التالى أخذ أجازة بالتليفون ، لمـدة ثلاثة أيام ، ولم يغادر بيته ، وقد حاول بإخلاص ، وإيمان ، بعد أن اقتنع بأن الحياة المصرية قد نبذته إلى الأبد . . وأن محاولة اللحاق بها ستجعله محلا للسخرية ، ولن تجر عليه إلا التمزق والدمار ، حاول مخلصاً أن يحب زوجته . . وأن يجدد إيمانه بها ، وأن يلازمها حتى تقشعر بها أحاسيسه وتشتق منها ، فلا تفـكر مرة أخرى فى الاستغناء عنها . .

ووجدت ماريانا نفسها — دفعة واحدة — محاطة بشهر عسل جديد .

يذهبان إلى المسرح أو المرقص فى الليل ، ولا يعودان إلا مع الفجر ، ويصعد سلم البيت إلى جانبها وقد أحاط خصرها بيده ، وأسندت هى رأسها إلى كتفه ، وقد

غمرت وجهه بأنفاسها الدافئة . ولا يستيقظان إلا وقد انتصف النهار ، ويقضى بقية اليوم معها يلعبان الكرة فى الحديقة ، أو يلاعبان « ماسى » تحت المظلة فى حوض الزهور ، أو يقرآن فى المكتبة ، أو يشربان فى البار الذى أخذ ركناً من المطبخ الواسع .

ولم يسلم الدكتور راضى من لحظات صمت ، عابرة ، يتذكر فيها موقفه من سامية وكيف سخرت منه وأهانته ، ويتصور بحنان بالغ يتسرب من قلبه حتى يغمر كل حواسه كيف يكون الوضع معها لو أنها استجابت له ، أو سكتت ..

وينظر بعينين مسحورتين ، فيرى سامية جالسة على الكرسى أمامه تداعب طفلا أسود الشعر واضح القسمات ، لا يكف عن الحركة .. وسامية إلى جانبه صغيرة رقيقة تلوذ بحمايته مثل القطة المقرورة ، فتزيده شباباً وقوة ورضا عن الحياة.

ويعود بوعيه إلى زوجته فيراها بعينين ذاهلتين ، وقد ضبطته متلبساً بشروده ولعلها قرأت بعض ما يفكر فيه على قسماته ، وما يكاد يعود إليها بوعيه حتى يرى على شفتيها الرقيقتين ابتسامة باهتة .. لا لون لها .. مزيج من العطف ، والضيق والحيرة .. وعدم المبالاة .. وربما الاحتقار أيضاً .. ويلمحها الدكتور فيعود إليها تائباً مستغفراً مبالغاً فى تودده وحنانه ، وقلبه يلهج بحب مسعور يذكيه عمداً ، وينميه فى إصرار الغريق على النجاة .. وقد استسلمت ماريانا للتغير الجديد فى غير حماس بالغ ، مثلما واجهت جفاءه بغير اهتمام .

ولكن شهر العسل لم يدم أكثر من ثلاثة أيام .. وحين عاد إلى الكلية عاد كل شىء إلى ما كان .

* * *

لم يكن هناك تناسب بين موجة الصحو والنضارة التى اجتاحت أحواض الزهور والحشائش فى فناء الكلية وحديقتها ، وبين سماء ذلك اليوم الداكنة الثائرة .. كأنها مؤخرة جيش الشتاء تغطى انسحابه المحتوم أمام مشرق الربيع .

كانت السماء ملبدة سوداء ، وكانت نسمة باردة تسرى فى جوانب الفناء الواسع ، لـكنها لا تبعث على الارتجاف والانزواء ، وهذا ماشجع الصديقان ، أحمد وزكريا ، على مواصلة التسكع على غير هـدى هنا وهناك ، وكان زكريا يحاول أن يتجنب الالتقاء بفريدة حتى لاينكشف شعوره أمام أحمد . . إن أحمد دقيق الملاحظة ، سريع التوهم ، ولم يفته حين كان فى المستشفى أن زكريا ينطلق بين الردهات دون أن يتعثر بالسؤال . . كأنما قد ألف المـكان ، وشخص مثل هذا لابد أن تلتقط أذنه ، أو عينه ، أو حسه ، ما يشى بالحجاب الذى ارتفع بين فريدة وزكريا .

أما أحمد فقد كان حاول أن يلتقى بفريدة ، ويحاول ألا يلقاها . .

كانت تذكره بجرحه ، وبعجزه — هو المتألق الممتلىء بالثقة — عن إخراج الفراشة من شرنقة الحرير ولـكنها كانت تذكره بها ، وتمثل صلة حبيبة بينه وبينها . .

وتمنى حين يلقاها أن تحمل إليه ندم سامية وأسفها على سوء حديثها معه . . . وهمس لنفسه وهو يحاول أن يغريها :

« ربما فعلت سامية ذلك . . إنها تحبنى مثلما أحبها . . إن قلبى لا يكذبنى ، ولـكن فريدة — لسبب ما — لا تريد أن تنقل إلى اعتذارها . . ربما تريد فريدة أن تظل سيدة الموقف . . من أجل ذلك فإنها تحتفظ بالخيوط فى يدها . . من يدرى . .

وهنا حاول أن يفكر فى أمر جديد . .

ولمح الدكتور راضى داخلا بسيارته من باب الـكلية ، فجذب صديقه من يده متجهاً به نحو قاعة المحاضرة .

وفى الصف الرابع . . فى المقعد الأول والثانى إلى اليمين جلس الصديقان صامتين كأنما شيعا عزيزاً منذ لحظات . . وكان المقعد الأول والثانى فى الصف الأول إلى اليسار خاليين . . وارتـكز أحمد بكوعه على المـكتب أمامه ، ووسد

خده كفه ، وعيناه تحملقان فى اتجاه المقعد الخالى . . وهو لا يرى شيئاً .

وقال زكريا معابثاً وهو يطوى صحيفة فى يده :

— من الذى سيذيع المباراة اليوم ؟

وحول أحمد إليه نظرة مغيظة ، ولـكن زكريا استمر فى مداعبته قائلا :

— حقاً . . هل غياب نصف الفريق يلغى المباراة ؟

ولم يتكلم أحمد ، فعاد زكريا يعرك أذنه وهو يحاول أن يبدو مرحاً ، ويقول :

— الحق أن الشيبنارو ليست نصف الفريق ، إنها كل شىء . . إلا إذا وضعنا فى اعتبارنا الوزن . . فإننى أفوز بالتزكية . .

قال أحمد بأسى ، وهو لا يدرى أيجارى صديقه أم يعانده :

— بالانسحاب . . أنت تفوز بالانسحاب يا ثعلب .

ولذ له أن يهين صديقه ، وهو يتذكر موقفه حين خروجهما من المستشفى فاستطرد :

— والثعالب عندما تنسحب تترك نتنها على الطريق . .

— ذلك عندما تخشى غدر البشر . .

— كلا . . عندما تعجز عن خنق الدجاجة . .

واستعاد زكريا هيئته الجادة فى سرعة ، وتخلى عن عبثه ، وقد رأى أن ذلك خير وسيلة للقضاء على سخرية صديقه منه ، وهى سخرية غير مأمونة العواقب . . فقال . وهو يقترب بوجهه من وجه صديقه ، ويريح دراعه على عاتقه وكأنه يوشك أن يضمه إليه ، وقد خفض لهجته ليعطى حديثه أهمية خاصة :

— أنت معى فى أن سامية لم تـكن فى حالتها الطبيعية ليلة كنا فى المستشفى . .

فمط أحمد شفتيه ولم يتكلم ، فعاد زكريا يقول :

— إن انعزال هذه الفتاة أفقدها اللباقة .. معذرة .. لا تغضب منى .. ربما كان اعتزالها ميزة تضاف إليها إذا نظرنا إليها ..

فقاطعه أحمد ساخراً :

— ولماذا ننظر إليها ؟ إننى فقط الذى أنظر ..

فتدارك زكريا موقفه ، دون أن يبدى اهتماماً لمقاطعة صديقه :

— هذا ما أعنيه .. ربما أعجبك انعزالها إذا نظرت إليها بمقياس الرجل وأنانيته فى الحب ، وحرصه على أن تكون زوجته له وحده .

قال أحمد ولم يتخل عن لهجته الساخرة :

— أفادكم الله .

قال زكريا ولم يفقد أمله فى اجتذاب صديقه إلى الحديث :

— لكنها لم تصل إلى هذه الدرجة من الثورة ، وسوء التصرف من قبل .. وقد بدأت أشك فى أن الدكتور راضى فى الطريق ..

فاستجاب أحمد لصديقه ، ونقر بأصابعه على المكتب أمامه وهو يقول بهمس حزين :

— ذلك ما حيرنى حقاً .. وكنت أريد أن أبحثه معك .. لكنك تحالفت مع الأيام ضدى .. هذه حقيقة لا تناقشها .

قال زكريا بلهجة عاتبة ، وفى عينيه حيرة يواريها زجاج النظارة :

— أتظن ذلك حقاً ؟

ودخل الدكتور راضى ..

كان يمسك لفافة فى يده ، يتبدد خيط دخانها فى الجو ، وتمهل قليلا عند باب القاعة ، وجذب منها نفساً عميقاً توهج له طرفها ، ثم ألقى بها أمام الباب ، وأغلقه وراءه .. ومضى إلى المنصة فى خطوات سريعة قلقة ، وتسمر فى مكانه كأنما هبط

إليه من السقف ، فالتقت عيون الطلبة جميعاً عليه ، وبدأت الهمهمات وسحب الدخان تتوارى ، والكتب والصحف المفتوحة تغلق إلى أن ساد جو القاعة سكون تام .

ومد الدكتور أصابعه الطويلة النحيلة أمامه وهو يتأملها .. ثم نظر إلى السماء من خلال زجاج النافذة .. وانصرف عن ذلك سريعاً ، وعاد بنظراته إلى جو القاعة .. فرأى زكريا وأحمد متجاورين ، وعلى وجهيهما علامات إعياء كأنهما في فترة نقاهة ، وحزن عميق يحتل قسماتهما المرتخية .. كأنهما في جنازة ..

وانتقلت نظراته في سرعة قلقة إلى المقعدين الأولين إلى اليسار فرآهما خاليين.. فارتجف قلبه وتنزى بالأسى ، ورفع يده ليتحسس صلعته ، ولكنه تنبه في لحظة خاطفة إلى نزق هذه الحركة ، فحول يده إلى نظارته يريد أن يتشاغل برفعها وتنظيفها .. ولكنه خشى أن تفضح دمعة حائرة لا يعرف مأتاها ولا غايتها ..

وعادت نظراته تعبر الطريق بين صفوف الطلبة لتصل المقعدين الخاليين . بالمتعدين المشغولين ، وهمس خاطره بحزن صامت ، وهو يشعر بمرارة الهزيمة .. لكنها مرارة لا يخالطها أى حقد .

« هذان الشابان .. جزء من المشكلة »

وعاد يتطلع إلى قسماتهما الحزينة ويتساءل :

« لكن ما هذا الحزن الذى يكسوهما .. إنه غريب على جلستهما .. إنهما حزينان لاشك من أجل مرض سامية وغياب فريدة .. يا الله — حتى حزنهما .. متعة ولذة .. ما أسعدهما .. وما أشقانى » .

وألقى الدكتور نظرة سريعة على الصف الأول .. فاعتدلت بعض الجالسات وأصلحن وضع ثيابهن حول سيقانهن .. وتمهل قليلا ، ثم قال بصوت مرتفع كأنه عدة انفجارات آلية متعاقبة .. تسير على وتيرة متفقة :

— نتحدث اليوم عن عقدة المسرحية .

وبدأ الطلبة يفتحون مذكراتهم ويستعدون للكتابة ..

وقال زكريا بصوت فوق الهمس قليلا ، وقد ظن أن الجلبة التى صنعها استعداد الطلبة للكتابة ستغطى على كلماته :

— حدثنا عن عقدة الحياة .. إنها الشىء الذى ليس فى الكتب ..

والتقطت أذن الدكتور بعض هذه الكلمات ، فتحرك نحو زاوية المنصة وهو يشير إلى زكريا قائلا :

— ماذا تقول ؟

فقال بارتباك ظاهر وقد أخذته المفاجأة :

— لا شىء يا سيدى ..

وللذ لأحمد أن يضايق صديقه ، وأن يزيد فى إحراجه ، ثم رأى أن يتبسط مع أستاذه الذى يعترض طريقه إلى حبيبته ، ويدعوه فى نفس الوقت إلى حجرته ويقدم له الشاى ، فوقف بانفعال لم يلمسه عادته : قامته مشدودة كأنه فى صف من الجنود ، ويده فى جيب سترته ، وحركة خفيفة من رأسه تتساوى مع مقاطع حديثه ، وقال :

— الصديق يقول : حدثنا عن عقدة الحياة .. وهنا يبرز تساؤل ..

فقاطعه الدكتور وقد لانت تقاطيع وجهه شيئاً ما ، وسرى عنه قليلا ، وقد جذبته المناقشة :

— وهل قلنا شيئاً بعد ؟

— نعم يا سيدى .. قلنا عنوان الحديث .. ونحن الآن بصدد وضع حجر الزاوية الذى يتحكم فى اتجاه البناء ..

واهتز الدكتور للباقة التخلص والتعبير ، وتفتح قلبه للفتى الذى كان حزيناً منطوياً كثيباً منذ دقائق ، وأحس بقوة جارفة تطفو فوق ملامحه ، وتنطقه رغماً عنه ، فقال بلهجة لا تشوبها السخرية ، وإنما تفيض بالثقة :

— قل ياحضرة البناء !!

— التساؤل الذى استدعاه حديث الصديق هو : هل من الضرورى أن تكون في حياة الإنسان عقدة ؟ هل الصراع ضرورة لاستمرار الحياة ، ولا أمل فى حياة يظلها السلام ؟

وابتسم الدكتور ابتسامة عريضة :

« ما أعجب هذا الفتى الذى جعل لسانه عدسة مسلطة على قلبه » .. وقال الدكتور :

— أظننى لست فى حاجة إلى تذكيرك بما قلته لك من قبل ، إنك دائماً تتحدث فى الفن بوحى من التجربة الشخصية أو التأثر بحالة معينة .. ومرة أخرى أقول : قابلنى بعد المحاضرة ..

وبعد ساعة كان الدكتور راضى واقفاً فى الاستراحة ، وهو يصافح الصديقين بحرارة وصدق ، ويسأل أحمد :

— لماذا لا تحدثنى عما يحزنك ؟ إنك لا تستطيع أن تفتعل أى شيء .. إنك فنان .. وصادق .

وابتسم فى داخله لاعتراف أستاذه بأنه فنان .. ولكن هل يستطيع أن يكون صادقاً معه ؟

وهنا قال زكريا :

— إنها مشكلة عائلية .. أحمد والده متوفى .. فهو المسئول الوحيد عن البيت .. ولا بد لكل من يتعرض لهذه التجربة فى سن مبكرة أن تعصف فى حياته العواصف بين حين وآخر .. إنها قيادة السفينة تلقى إلى ربان غير خبير بمسارب البحر وتياراته .

وانطلق خيال أحمد وراء كلمات صديقه ، تشاغل بها عن حزنه الدفين ، فقادته إلى القلق وهو يجسم ما تحتمل من معان تراوده أحياناً فتقلقه .. وكيف ينسى فاطمة أخته وخاطبها وخوفه منها .. وعليها ؟

قال الدكتور وقد احترم تكتم أحمد لمشكلته الشخصية ، وقد صدق زكريا .. أو تظاهر بتصديقه :

— إن أحمد جدير بالثقة ، وأهل لتحمل المسئولية ..

وانصرف الصديقان .. وبقي الدكتور وحيداً .

وتطلع من نافذة الاستراحة فتراءت له الكلية .. بحديقتها المزهرة .. وفنائها الواسع الذى انتشرت فيه الطالبات والطلبة مثل الفراشات الملونة المرحة تحوم هنا وهناك .. لكنها بدت له ، وقد خلت من سامية .. ومن فريدة .. وتركه أحمد وزكريا وحيداً مع أفكاره .. بدت له قفراً موحشاً ، يذكره بهزيمته ، فيحمل إلى قلبه الذل والملل .

ولم يطق الصبر ساعة ليلقى محاضرته الثانية ، فانطلق بسيارته إلى المنزل وكأن شبحاً مرهقاً يطارده .. ولم يكن قد استقر إحساسه بعد .. أهو عائد إلى البيت ليستأنف مع زوجته محاولة حب جديد .. أم ليعزل نفسه عن الجو الذى يقلقه ويشعره بعذابه ؟

ورأى الخادم تلاعب طفله بالكرة فى الحديقة ، فصعد الدرج وفتح الباب بمفتاحه .. وكانت زوجته جالسة مع مستر براون فى المدخل .. وأمامهما جهاز تسجيل الموسيقى ..

وأحس بضيق شديد لوجود هذا الرجل ، الذى حرمه فرصة اكتشاف شعوره .. وصافحه ببرود .. لكن خاطراً غريباً تحرك فى صدره .. فحملق فى وجه زوجته بارتياب ، وشمل براون بنظرة فاحصة .. وأحس بالدنيا تصغر أمام عينيه ، فاستأذن وهو يتجه نحو مكتبه ، متعللا بكثرة عمله .. ودخل

المكتب .. وصفع الباب وراءه بقوة أودعها كل ما يشعر به من تمزق . وخيل إليه أنه سيلتقي بلحظة هدوء يبحث فيها موقفه هو لكنه حين اتجه إلى كرسيه الوثير ليستلقي فيه ، واجهته صورة ماريانا وهي تعاونه في ارتداء ثياب الانزلاق، وقد أحاطت خصره بيديها الرقيقتين .. فالتفت إلى الناحية الأخرى مذعوراً فطالعه وجه أبيه وقد أحاطت به هالة بيضاء من ذقنه المهيب ، وعمامته الضخمة ..

فأخذ نفساً عميقاً .. ونقل عينيه بين الصورتين مرة أخرى ثم أغلقهما وهو يحس برأسه يكاد ينفجر ..

وراح يلعن سامية وأيامها السوداء .

* * *

بعد أن ذهبت فورة الغضب عن سامية ، فى حديثها مع أحمد حول مثالية الجامعيات ، وإحساسها بأنها ثأرت لنفسها ، وأنها استطاعت أن ترفع حقها فوق باطل حبيبها ، وأن تشرح خطئها له ، فتكون أكثر نيلا لثقته وحبه .. بعد أن ذهبت فورة التعالى ، والتغاضى عن الطلب الحقيقى العميق ، عادت إلى نفسها يشملها حزن فياض قاتم ، لا أمل فى تبدده .

أى شيطان سول لها أن حديثها هذا يرفع من شأنها ، وأنه هو الذى يجب أن يقال فى هذا المقام ؟ أى قوة رهيبة مجهولة كانت تحرك لسانها رغماً عنها فينطق بما لا يريد قلبها ؟

وبدت لنفسها مثل طفل ولد فى السجن ، وعاش عمره سجيناً ، فعجزت وسائله عن التكيف مع الحياة فى حرية خارج سجنه ، فراح يذمها ويهجنها ، فلا تقع عينه إلا على أردأ ما فيها .

ها هى الفرصة الوحيدة قد ضاعت .. الفرصة التى حلمت بها طويلا ، وتمنت أن تنقذها من نفسها ، ومن حيرتها وعذابها .. الدكتور راضى ، أستاذها الذى كانت حجرة مكتبه فى الكلية ملاذاً لها من الحيرة ، ومحوراً يحميها من الانهيار والضياع فى طرقات الحديقة مثل الأخريات .. الدكتور راضى خرج غاضباً ، وربما أكثر من غاضب ، وكان باستطاعتها أن تجامله وتسايره ، وترفضه ، دون أن تسخر منه وتجرح مشاعره .

وأحمد .. الذى أحبته وانتظرت زيارته طويلا .. من أجل بضع كلمات نزقة ، لا تعرف لم تحدثت بها ، قد أغضبته ، وأخرجته مثل الذبيح ..

ها هى ذى فريدة صديقتها ، محبوبة منهم جميعاً ، يتوددون إليها ، ويمزحون معها ، فتحدثهم ، وتقبل مزاحهم ، دون أن تشعر بجرح فى كرامتها ، أو ينيل الإهانة من عزتها ومنزلتها عندهم ..

فريدة قوية .. تتحسس طريقها بحذر ، وبصدر واسع .. لكنها — على مايبدو لسامية — غير صادقة الرغبة فى إصلاح ما فسد من علاقات سامية ، كأنها تستمد قوة جديدة من انتكاس صداقة سامية مع الدكتور راضى .. وفرصة جديدة تتاح بيأس أحمد من سامية ! !

وقالت سامية فى نفسها :

« فريدة .. لم تعد بريئة مثلما كانت .. لقد داخل قلبها الغرض .. والغرض مرض .. من الذى قال هذه الكلمة ؟ آه .. إنه أحمد .. فى ذلك اليوم الذى تألق فيه بنقاشه مع الدكتور حول المخرج .. ياله من يوم .. ذلك الذى انتهى بفوزه بالجائزة .. تتمنى نفسى القرب منه ، وأعمالى تبعدنى عنه .. وفريدة .. أعوذ بالله .. لا تريد أن تتحرك .. ذات القلب الأسود المتحجر مثل قطعة فحم .. »

وقد تأكدت نظرتها لفريدة ، عندما دار بينهما حديث ، بعد لحظات من صمت ذهبت فيه نفس كل منهما ألف مذهب ، فى أعقـــاب خروج الصديقين من المستشفى ..

قالت فريدة فى تحفز ومبادرة يدلان على مقدار ما تعانى من ضيق :

— تستطيعين الآن التأكد من أنه ليس هناك فى العالم من يكن لك أى حب ..

فقالت سامية بعناد :

— ليس الحب جزءاً من رسالتى فى الكلية حتى أحاول التفوق فيه .

فأطلقت فريدة ضحكة ساخرة جعلت سامية تتهاوى فى فراشها ، وقالت :

— الذى يسمع كلامك يظنك عبقرية .. ياشينارو الغبيــة .. إنك لا تستحقينه .. ستتزوجه من تفهمه .

قالت سامية بمرارة ، وقد خالطت لهجتها غيرة مريرة ، وإحساس مضاعف بالعجز :

— أظنك فهمتيه يافريدة ؟

كانت فريدة تنظم بعض أدوات سامية وأدويتها فوق الصوان الصغير الملاصق لسريرها ، وتعيد ترتيب المقاعد ، فتوقفت عن الحركة فجأة ، وتقلصت ملامحها وقد شملها الغضب ، فقالت ووجهها إلى الحائط ، دون أن تحاول الالتقاء بنظرات صديقتها :

— ماذا تعنين ؟

فارتجفت سامية تحت الغطاء ، وتاهت معالم الحجرة أمام ناظريها ، وتضاربت أفكارها ، وومضت لها فكرة سريعة تأكدت منها فى لحة . . إنها إن خاضت معركة كلامية مع صديقتها فانها ستخسرها أيضاً . وبذلك تخرج من هذا المستشفى التعس وقد خسرت كل شيء . .

قالت وهى تنكمش تحت الغطاء فى تخاذل ، كأنما لتستدر عطف صديقتها التى أولتها ظهرها :

— أنا لا أعنى شيئاً أكثر من أنك ذكية تفهمين الناس بسرعة ، وتحسنين معاملتهم أكثر منى .

فاستدارت فريدة إلى صديقتها ، وقد اتكأت بكفيها على حافة الصوان ، وما زال ملامح الغضب مرتسمة على وجهها ، وقالت بثورة مكبوتة .

— أنا أعرف ما تعنين .. لذلك سأنصرف حتى تعودى إلى حالتك الطبيعية . . أنت تظلمين نفسك ، وتسيئين التصرف من غير قصد .. لكنى أقدم لك نصيحة . . ربما ذكرتها يوماً .. إن الحياة تسلمنا من بطون أمهاتنا عرايا . . ونحن نحاول من يوم أن نولد أن نستتر عن الناس . لكن الخطأ ألا نكون عرايا أمام أنفسنا ! ! فكرى فى ذلك ..

قالت ذلك ، وحملت حقيبة يدها وخرجت . لكن خطواتها الثائرة قليلا ،

ما لبثت أن هدأت عندما طالعتها صفحة النيل الساكنة الملساء ، فتسللت نعومتها إلى نفسها ، وجاوبتها النسمة المغسولة النقية . . وافتر ثغرها الممتلىء قليلا بابتسامة عذبة فيها اشتهاء ، عندما وقعت نظراتها على أضواء النادى على ناصية الجسر ، حيث ينتظرها زكريا .

وعندما اقتربت من مدخل النادى ، توقفت خطواتها فى زاوية مظلمة ، وفتحت حقيبتها ، وأخرجت قطعة من القماش نفضت بها الغبار عن حذائها ، ثم أخرجت زجاجة عطر صغيرة .. عطرها هادىء كزرقة السماء الرائقة ، ووضعت منه قليلا خلف أذنها ، وبضع قطرات فوق صدرها . وداعبها خاطر مقلق طردته سريعاً ، وهى تستبعد أن تبلغ الجرأة بزكريا أن يفعل ذلك فى النادى .. لكنها برغم هذا .. بللت شفتيها بلسانها ، وضغطتهما معاً ، وعضتهما بأسنانها لتزدادا إحمراراً وشفافية ..

ولم يطل بزكريا انتظار صاحبته ، وكان يحاول التخلص من آثار موقف سامية وقسوته ، ثم يحاول تبرير تخليه عن صديقه عند موقف السيارات .. وقد تبعثر ذلك كله ، وغاب حين ظهرت فريدة ، ممشوقة ممتلئة . . مثل سيدات القصور ، توحى بالرغد ، وتبعث الدفء فى الأوصال المقرورة ، وترسم ظلا للجنة عند المحرومين . . ونهض زكريا مصافحاً وجلست قبالته ، وقد وضعت حقيبتها بينها وبينه ، وهنا أمسك زكريا بالحقيبة وأزاحها إلى جانب فى رفق ، وقال ، وعيناه تبرقان بالرغبة الملهفة ، ويحاول أن يدارى ذلك بابتسامة واسعة :

— أفضل ألا يحول شىء بينى وبينك ! !

فتشاغلت بإصلاح وضع معطفها على صدرها ، وهربت بنظراتها تتطلع إلى الناس المتناثرين حولهما من بعيد ، فى ضوء خافت ، وكأنها تحذره أن يسمعوا شيئاً . ولما رأى ارتباكها أكمل قائلا :

— ومن أجل هذا أيضاً أرجو أن تنتقلى إلى جوارى فى هذا المقعد .

وجر المقعد المجاور له إلى جانبه قليلا ، ولكن فريدة هزت رأسها برشاقة دون

أن تتكلم ؟ فلما طرق بيده فوق المقعد بقلق ، وكأنه ينبهها .. قالت بصوت خافت :

— أنا مرتاحة هنا .

— ستكونين أكثر راحة إلى جوارى .

وتطلعت إلى المقعد ، ثم إلى زكريا ، وقاست المسافة بينهما بنظراتها ، وقالت بهمس :

— عيب .. الناس ..

— لا شأن لأحد بنا . . تعالى . .

ورأت أنه لن يكف عن حديثه فى هذا الأمر ، فانتقلت إلى جانبه ، وقد حاولت أن تبعد المقعد قليلا ، لكنه كان متشبثاً به ، فجلست على حافته ، لكنها ما كادت تستقر حتى طوقها بيده فى حركة خاطفة ، وهو يحاول أن يقربها إلى ناحيته ، فنظرت إليه بعتاب ، وهى تتفزز فى جلستها .. وقالت :

— لا أريد أن أكون محلا لسخرية أحد .. إذا حاولت ذلك مرة أخرى ، فسأغادر المكان فوراً .

— لن تستطيعى ..

وما الذى يمنعنى ؟

— أنا . . أنا دون أن أنهض معترضاً ، أو أمـــد يدى . . إنك لن تقوى على تعذيبى ... وهذا يعذبنى .. بل يقتلنى !!

وضايقها حديثه على هذا النحو منذ أول دقيقة .. كانت ترسم بخيالها لهذا اللقاء صورة أخرى ، فتشتت فكرها وهى تحاول أن تسيطر على الموقف ، وأن توجه الحديث إلى الوجهة التى تريد ، فقالت :

— كيف تركت أحمد ؟

قال بشيء من الضيق لتغيير الحديث ؟

— ذهب إلى المنزل .

— وكيف تركته وهو فى حالته المحزنة ؟ لقد ظننت أنى لن أجدك .

— لا أستطيع بأى حال أن أتخلى عن موعدك .. لقد اعتذرت له .

قالت بلهفة خائفة :

— هل يعرف أنك ستقابلنى ؟

قال بمكر ، وقد لذ له إزعاجها :

— بالطبع .. إننا صريحان معاً ، ولا نحجب سراً .

فنظرت إليه فزعة ، لكنها تبينت كذبه من ملامحه ، ونبرات صوته ، فقالت :

— كذاب .. أنت كذاب .. أنسيت أنك الذى رجوتنى ألا أخبره بلقائنا فى المستشفى ؟

— ومع ذلك عرفه دون أن أخبره . .

— إنه إنسان ذكى ، وحسه دقيق مرهف ، وسامية لا تفهمه .

فتضايق زكريا ، وأحس بشىء من الغيرة من صديقه ، ومن اهتمام فريدة به ، فقال بضيق لا يواريه :

— هل جئنا هنا لنتحدث عن أحمد وسامية ؟ لن نفسد جلستنا بالحديث عنهما . . وغداً تندم سامية .. ويغفر لها أحمد . ويتحابان ، ويجلسان هنا مثلنا .

فقالت بعناد خفيف ، وهى تحاول فى نفس الوقت أن تنهى الحديث بإعلان رأيها :

— كلا .. إن لأحمد كبرياء . . ربما نبذها للأبد .. إنه ليس من ذلك النوع

الآخر الذى يستذله الحب ويبحث عن إرضاء حواسه بأى ثمن .

وخيل إلى زكريا أنها تعنيه . أنها تعرض به ، وترسم له الطريق الذى يجب أن يسلكه ، فعاوده شعوره باحتقار نفسه ، ومهانته ، وأحس بضيق مفاجىء ينتابه . ورأى أنه لا بد أن يرد الصفعة . فقال بلهجة متزنة وكأنه لا يعنى فريده :

— إننى أتنبأ بعكس ذلك . . أحمد متكبر حقاً ، لكنه يحب سامية بإخلاص هى جديرة به .. إنها ما تزال أهلا لثقته ، لأنها تحطم مقاييس الجامعيات ، تصورى أنه يحاول أن يخرجها من عزلتها ، ومن صمتها .. لكنه يريد أن تخرج إليه هو فقط .. إنه يؤمن بها ، وبأسلوبها . . وإن أعجب بمن ليس على شاكلتها ، فإنه إعجاب سطحى لا يؤمن به فى قرارته .

ولزما الصمت لحظة ، فأتيحت له الفرصة لمعاودة النظر فى طريقته ، فأحس بخيبة أمل ، لكنه لم يسلم بفشل المقابلة التى تمناها طويلا . . فهمس لها ، وهو يتسلل بيده إلى خلفها :

— هيا بنا . .

قالت وهى تلتصق بالمسند لتوقف زحف يده :

— إلى أين ؟

— نسير على الشاطىء قليلا . .

وأحست بيده تطوق خصرها ، فأزاحتها برفق ، وقالت وهى تصوب إليه نظرة عاتبة :

— خادم النادى مقبل علينا . ثم . . إننى لن أفعل ذلك .

قال بإغراء لا يوحى بالثقة :

— هل تخافيننى . . أو تخافين الوحدة ؟

قالت جميلة ، قبل أن يبلغهما الخادم :

— أنا لا أخافك ولا أخاف الوحدة ، وإنما أخافكما معاً .

وشربا عصير البرتقال ، وغادرا النادى ، وتركته يسير معها بضع خطوات حتى موقف السيارات على ناصية الجسر حيث ترك صديقه من قبل ، وقد أبت عليه أن يركب معها السيارة ، ولم يلح فى معارضتها ، بل ربما حمد لها ذلك ، حتى إذا انطلقت السيارة بها ، قفل راجعاً ، متسللا بين الأشجار المتسربلة بالظلام مثل الأشباح ، وبعد دقائق قليلة كان فى حجرة الاستقبال فى العوامة يدخن لفافة على طرفها آثار أحمر الشفاه واضحة .. ولم يعد إلى صديقه إلا بعد منتصف الليل .

* * *

وعندما تكرر لقاء العوامة ، تكرر عجز زكريا عن الاستيقاظ مع الفجر ليبدأ المذاكرة قبل ذهابه إلى الكلية .. وهنا استنتج أحمد شيئاً فقال له :

— يقولون إنه فى البلاد الراقية ، عند ما يشعر الرجل بفتور نحو زوجته ، أو تشعر الزوجة بفتور نحو زوجها ، فإن أحدهما يأخذ إجازة من الإقامة مع الآخر .

وأحس زكريا بالأزمة المقبلة ، فراوغ قائلا :

— تلك بلاد تعرف قيمة المرأة .. ليتنا نتعلم منهم ذلك .

قال أحمد وقد بدأ يفقد سيطرته على نفسه :

— هذا بالضبط ما تريد أن تتعلمه منهم .. يجب أن يغادر أحدنا هذا البيت ، مدة من الزمن ..

فوجىء زكريا بحديث صديقه .. لقد كان يظن أن نقاشاً حاداً سيكون بينهما ، لكنه لم يتوقع أن يعرض أحمد عليه مغادرة البيت .. أن يطرده أو يطرد نفسه .. وتأمل وجه صديقه ، فراعه ما انتابه من تغير فى تلك الأيام القلائل التى مضت

على ليلة المستشفى .. كأنها أعوام طويلة .. وعجب من نفسه كيف لم يفطن إلى ذلك .. لقد زادت ملامحه قسوة ، وزاغت نظراته ، وازداد نحولا كأنه ناقه من مرض طويل استنزف منه كل قواه .. ورأى أن يتفادى الاشتباك ، أو أن يكون البادىء بالهجوم ، فقال متصنعاً المزاح :

— ولماذا يأخذ أحدنا إجازة ، ونحن لم نتزوج بعد ؟

وابتسم ابتسامة واسعة لامعنى لها . فقال أحمد بحدة :

— إننى لا أمزح . . ستغادر هذا البيت الليلة ، أو أغادره أنا ..

— هل هذا طرد . .

— طرد لواحد منا ..

— كلا .. أنت تقصدنى .. إن عقد الإيجار باسمك ، وعلى أى حال لامانع عندى .. فقط .. ما السبب ؟

فوقف أحمد بحركة متشنجة ، وأمسك بكتفى صديقه يهزه بعصبية يحاول أن يكبتها ، وحدق فيه بقسوة وهو يقول :

— أعف نفسك من سماع نقائصك .. أنت تعرفنى .. كما أننى أعرفك .

فقال زكريا ثائراً :

— أى نقائص تلك التى تعرفها ؟ إننى لست ذليلا ، ولا مخفقاً .. إننى الموفق السعيد ..

— هذا رائع .. وأنا أحاول أن أبعدك عن جو شقائى ، وسأدعك فى بركة العفن التى تسبح فيها ..

— لعلك شربت شيئاً لم تتعوده .. هذا تخريف .

— من الذى شربته أنت ؟ كلا ..

وقلب أحمد شفتيه باحتقار واشمئزاز ، وقال وهو يكاد يبصق :

لقد صرت أحتقرك ، ولا أسمح لك أن تكون صديقى . . ربما كنت غبياً فحسبتك تلتقى مع فريدة . . لكنك تمادى فى طريق مدمرة ، ولست أرغب فى مشاركتك العاقبة . . رائحة فمك متغيرة . . هذا ما حاولت أن أكذب نفسى فيه ليال متوالية . . وقميصك ملوث بلون وقح .

فضحك زكريا ساخراً من تعبيره ، وهنا اغتاظ أحمد فقال بحدة :

— ولا بد أن أضيق بهذه الوقاحة . . أنت نذل ومجرد من الإنسانية . . هل نسيت يوم المستشفى ؟ هل نسيت أنك كنت تعرف الطريق إلى غرفة سامية ؟ تلك أفعال الكلاب . .

قال زكريا وهو يندفع نحو أحمد :

— أنت أنانى ، وحقود ، ولا تحب إلا نفسك . من أجل ذلك سيدمرك حقدك ، وأنا الذى أرفض البقاء معك . . هل أحمل أوزار خيبتك وسوء تصرفك ؟ إنك تحسدنى . . فما ذنبى ؟ ومع ذلك . . فقد كنت أتوقع هذه النهاية . . لكننى لن أدفع ضريبة فشلك .

قال ذلك وخرج ، ليعود فى اليوم التالى — حين كان أحمد فى الكلية — ويأخذ ثيابه وأشياءه إلى مكان آخر .

أما أحمد . . فقد أحس عقب خروج صديقه ، بوحدته القاتلة ، وبآلام العالم تتجمع فى صدره . . ونظر إلى الأفق فى أسى حزين . . كان الشفق الأحمر يمتزج بالزرقة المتبقية من ضوء النهار . بالظلمة الزاحفة مع إقبال الليل . . وهبت نسمة خفيفة جففت العرق فوق جبينه . . وهنا تذكر أن « الفكر » ستصدر غداً ، وأنه لابد أن تكون مسرحيته منشورة على صفحاتها ، فابتسم ابتسامة شاحبة . . آسية ، وقال لنفسه ، وهو يهم بإغلاق النافذة ، كأنما ليحرم عينه رؤية أى شىء جميل :

« ذلك عزائى الوحيد . . إنها ما تبقى لى من هذه الدنيا » .

لـكنه .. عندما صدرت المجلة فى الصباح ، وفيها مسرحيته كان يتأمل اسمه المنقوش فوقها ، واللوحة التى تتصدرها بشغف وسعادة غامرة ، وقرأها عن آخرها كأنه ليس مؤلفها .. ثم عاد يركز نظراته الشاردة على اسمه المنقوش بعناية ، وتنزى قلبه بالأسى وهو يقول فى نفسه :

« وما قيمة ذلك الآن مالم تقع عليه عينا سامية الجميلتان .. آه ساميه » .

* * *

كانت مفاجأة مذهلة لأحمد ، برغم أنه توقعها ، وكان فى انتظارها .. إلا أن ذلك لم يجنبه الدهشة والارتباك الذى شعر به عندما دخل قاعة المحاضرات الواسعة ، فوجد فريدة جالسة فى مكانها المعهود ، وإلى جانبها سامية .. عليها مسحة من شحوب زادتها رقة ورهافة ، وإن لم تتخل عنها نضارة جسدها .

واهتز كيان أحمد للمفاجأة ، ولكن أمراً آخر شغله ، وما زال يشغله ، كلما جلس فى مكانه الذى اعتاد الجلوس فيه إذ تركه زكريا وحيداً .. واختار لنفسه مكاناً فى نهاية ذات الصف ، وهو مقعد له نفس الزاوية التى تسمح للجالس فيه بالإشراف على موقع سامية وفريدة .

وتعثرت خطوات أحمد على المدخل ، ولكنه مضى فى ارتباكه فألقى بنفسه إلقاء فى مقعده . وراقب وجه زكريا خفية أثناء حركة افتعلها لإصلاح وضع كتبه أمامه ، فضبطه متلبساً بمراقبته بنظرة متلصصة وهو يتصنع قراءة صحيفة فى يده .. فطوح برأسه وكأنه ينفض عنها خاطر الاهتمام بما يفعله زكريا .. واتجهت نظراته إلى حيث تجلس سامية ، فتبدت له خصلات شعرها من بين الصفوف ، ومرت نسمة نزقة فاهتزت خصلة مرسلة إلى جانب ، فاهتز قلبه معها ، وتطاول قليلا فى جلسته لتتاح له رؤية أكبر قدر منها ، وخشى أن تفتضح حركته أمام زملائه .. « عليه اللعنة زكريا .. لقد كان درعاً واقية .. إلا أنه غدر .. »

وفتح مجلة الفكر على الصفحة التى نقش فى صدرها اسمه ، وراح يتحسسه بعينين كثيبتين ، ثم تسربت نظراته من بين زملائه حتى التقت بصفحة وجه سامية ، وقد وسدت خدها راحتها ، وهى تتبادل الهمس مع فريدة ، وبدا إصبعها الذى يتمنى أن يطوقه بالذهب .. فتركزت نظراته عليه .. كأنه الأمل الوحيد للنجاة من ثلوج العالم كله التى تتراكم فى طريقه ، ومن الشعلة المتوهجة بين ضلوعه .. التى تطلب الرى .

وعاد يتطلع إلى اسمه فى صدر الصفحة ، وتخيل عينى سامية تنظران إليه بإعجاب فائتشى ، وأحس بهزة سرور عارمة .. وسمعها تهنئه ، وتسدد خطاه ، وتعاونه بالإملاء أو الكتابة ، وتنقده أحياناً .. وتهمس فى أذنه بكلمات التشجيع المعجبة ، وتذهب معه إلى ندوات نادى الطليعة ، وتشترك فيما يدور هناك من مناقشات .. وهنا تذكر الأستاذ شافعى ، رئيس تحرير مجلة الفكر .. وبابه إلى الشهرة والمجد .. ألا يجدر به أن يذهب فيشكره ! !

وقطع عليه سيل الأفكار دخول الأستاذ المحاضر .. وبدأ الأستاذ يتكلم ، ولكن أحمد لم يسمع له .. كان مشغولا بمناقشة موقفه .. هل من الطبيعى أن يذهب فيهنىء سامية بالسلامة والعودة إلى الكلية ، أو أن حديثها فى المستشفى .. حديثها القاسى الذى مزقه وحطم كبرياءه ، يعتبر خصاماً لا صلح بعده ؟ وبعد المحاضرة خرجت الصديقتان تسيران على مهل بين أحواض الزهور ، وجماعات زميلاتهما تعترض طريقهما مهنئات ، وسامية لا تكاد تتحدث ، وأحمد يرقبهما من بعيد ، وقلبه يجسم ارتباكه فى دقات غير منتظمة ، حين يطلع من الموقف القادم على مالا يسره .. ربما رفضت أن ترد على تحيته .. أليس هذا ممكناً بعد ما قالت ؟ ربما صغر فى عينها .. إذا بدأها بالحديث ، وهى التى أعلنت أنها موضوعة معها ..

ولم تكن لأحمد القدرة على البقاء فى موقف غامض غير واضح القسمات ، فانتهز فرصة انفردت فيها الصديقتان .. وقصدهما .. وتوجه إلى سامية ماداً يده ، وابتسامة خجول — كأنه فتاة عذراء — تكسو وجهه ، وهو يقول بصوت لا يكاد يبين :

— حمداً لله على السلامه يا سامية ..

— الله يسلمك .

قالتها ونظرة منكسرة حزينة تطل من عينيها ، وابتسامة مستخذية باهتة ، معبرة عن موقفها منه فى المستشفى ، تحاول أن تأخذ مكانها على شفتيها .. ولذ لأحمد أن يكون قاسياً لبضع لحظات ، فلم يهرب بعينيه ، ولم يتحدث بما يشغل الصمت الذى

أطبق عليهم .. وإنما ظل يشملها بنظرة فاحصة مدققة ، فيها شيء من الشماتة ، وهو يراها كسيرة حزينة مستخذية من حديثها السابق معه . ولم يفلت يدها من يده ، وربما نسيت سامية نفسها فى حديث انطلق فى داخلها فلم تسحب يدها .

واهتزت فريدة فى وقفتها برشاقة ، وهى تحتضن كتبها على صدرها ، وتمايل برأسها فى خفة ولطافة ، وقالت فى مرح :

— احم .. احم .. نحن هنا .

فانتبه إليها أحمد ، وترك يد سامية معتذراً ، وهو يمد لها يده قائلا :

— أهلا فريدة .

قالت ولم يزايلها مرحها :

— والله زمان .. أين كنت كل هذه المدة ؟

قال أحمد وقد فهم مرماها :

— معذرة .. نسيت أن أسألك أين كنت ، ولكن فى ظنى أنه لا حاجة للسؤال لأنك كنت مع سامية .

وعاد ينظر إلى سامية فى أمل ، وأكمل حديثه :

— والحمد لله .. عدتما إلينا بالسلامة .

قالت فريدة وهى تتطلع إليه :

— هل تسمح لى فى أن أخوض فى خصوصياتك ؟

فقال بثقة ، وقد استشف ما تعنى :

— ليس عندى خصوصيات أخفيها عنك يا فريدة .. أنت محل ثقتى واحترامى .

« يا إلهى .. ألا يمكن أن تكون هذه الكلمات من نصيبى ؟ لماذا لا يتحدث

قلبي ولساني ؟ حبه وثقته واحترامه من نصيبي .. ولكن ما أشد مصيبتي في لساني .. هأنذا واقفة مثل الحجر ، لا أستطيع أن أفعل شيئاً ، وكأن الذي يدور من حولي لا يعنيني » .

بهذا كانت سامية تحدث نفسها ، وهي واقفة تتطلع إلى فريدة المختالة في رزانة وثقة .. كأنها خبيرة تعرف واجبها ، واثقة من تحكمها في الموقف .

— زكريا .. لماذا خاصمته ؟

وتمهل أحمد قليلا ، ثم قال :

— الأوفق أن تقولي لماذا خاصمني ؟

— النتيجة واحدة .

— كلا .. في الحالة الأخيرة يجب أن تتوجهي إليه بالسؤال .

وعادوا يفكرون في صمت .

وأقبلت زميلات يهنئن سامية .. فانصرف أحمد ولم تنصرف عنه أفكاره .. سامية تحبه .. بذلك تنطق نظراتها ، وعلى ذلك يدل خجلها وارتباكها أمامه ، وهو يحبها لا يشك في ذلك .. وليس ينقصها ألا تستطيع التعبير عن هذا الحب ، وأن تعجز عن الانطلاق معه على النحو الذي يرضى شبابه ، ربما أخذ هو بلباقته في التعبير نصيبها ونصيبه .. سيحدثها بذلك ثم يتركها تسيغ هذا الموقف ثم .. يذهب فيحدث والدها .

وفي الليل جلس يكتب رسالة .. رسالة إلى سامية .

كيف يبدأ .. وإلى أين ينتهي ؟ ؟

وبعد تردد طويل كتب :

« حبيبتي .. »

ثم ظهر له ابتذال هذه الكلمة التي أنهكت من كثرة الاستعمال ، وفقدت

أصالتها لكثرة ما أطلقت كذباً .. فمزق الورقة ، وعاد يكتب ورقة جديدة ...

« أختي العزيزة ..

أنت على ثقة من حبي ، كما أني على ثقة من حبك . وإن لم ينطق به لسانك .. لكن اللسان ليس أفصح أدواتنا في التعبير .. إني أحس خفق قلبك ، ونجواه الصامتة ، بذلك تتحدث عيناك المعبودتان ، وصمتك الحيي الجميل ..

أنت لي .. كما أني لك .. لا تقولي غير ذلك ، ويجب أن نتعاهد على هذا الأمر حتى تنجلي أيام الامتحان ونلتقي لقاء أبدياً لا فراق بعده ، وإذا كنا نخشى الناس ، وسوء تقديرهم للأمور ، فإني من رأيك في هذا ، ولن أتدخل ظاهرياً في أي أمر من أمورك بالكلية .. » .

وحين انتهى إلى هذا الحد ، عاد فقرأ الرسالة ، فأحس بسخافة حديثه عن العينين ، وعن الحب ، هذه أشياء تحس ولا تقال .. ما أشد قداستها وإبائها .. إنها تبتذل حين تراق على ورق .. بل حين ينطقها اللسان ..

ومزق هذه الورقة أيضاً ، وتردد طويلا في معاودة الكتابة ، لكن لا مخرج غير ذلك .. فقد انتهت مناسبة المرض دون أن يتقدم في علاقته خطوة ، وسامية ربما تستاء من وجود فريدة ، ونحن — على انفراد — نكون صرحاء ، وعلى الورق تواتينا شجاعة ولباقة قد لا نلتقي بها على الطبيعة وفي ذهول الموقف . وهنا عاد يكتب ويحرص شديد وحذر في اختيار الكلمات ..

« أختي العزيزة ..

لقد أودعت فيك كل ثقتي ، وأملي في حياة سعيدة لنا جميعاً .. وإني لعلى يقين أنك ستظلين على موقفك النبيل حتى نلتقي ، وبذلك نربح سعادتنا ، ولا نخسر ثقة الناس فينا واحترامهم لنا . وقد دلك حسك المرهف على الطريق الصحيح لذلك .. »

وأعاد قراءة الرسالة ، فوجدها فاترة ، رتيبة ، لا تنبيء عما يعاني من فوران

عاطفى ، وعذاب . إنها رسالة متعقلة رزينة ، كأنها وصية .. وصية بالاتزان وحسن التدبر فى المواقف .

وهنا لاح له طيف أخته فاطمة .. ماذا تفعل الآن ؟ وعاودته مخاوفه تجاهها ، فحدثته نفسه أن يكتب إليها . وأعاد قراءة الرسالة التى خطها لسامية ، فوجدها تصلح لفاطمة .. كأنما كتبها لها .. وقبل أن يتردد وضعها فى مظروف ، وكتب عليها عنوان أخته ، وهو يهمس لنفسه « إنها هنا على الأقل مأمونة العواقب ، أما سامية .. فالله وحده هو الذى يعلم ماذا يمكن أن تفعل برسالة تصلها من شخص تعده غريباً وترفض مبادلته مجرد التحية » .

وبعد أيام ثلاثة جاءته فريدة ، وهى تشير إليه من بعيد أن ينتحى جانباً منفرداً ، فلما تلاقيا ، قادته إلى ركن خال ، وهى تقول فى تخابث :

— جئت كى أشكرك باسم سامية ..

قال فى ارتباك ظاهر ، لا يعرف له غاية ، وهو يراجع تصرفاته إزاء سامية فى الآونة الأخيرة ، عله يقع على موطن هذا الشكر :

— لماذا ؟

— على هذه الرسالة التى شرحت فيها عواطفك التى نعرفها .

— رسالة ! ؟

وتاهت نظراته على حواشى الأفق ، وغامت الدنيا فى عينيه ، كأنه فى حلم لا يتبين ملامحه ، كأنه يحيا فى عالم مسحور .. ألم يكتب عنوان أخته على الرسالة !! فأى خدعة فظيعة ، أو ضربة قدرية قاتلة ، وجهت إليه دون أن يدرى ؟ وعلى افتراض أن شيئاً ما لا يعلمه قد جعل الرسالة تصل إلى سامية ، فهل تستحق هذا العقاب الساخر المستهزىء من فريدة ؟ وفريدة العاقلة المتزنة التى تعرفه حق المعرفة !؟ أليست رسالة بريئة كتبها لأخته ؟ .. هل تطمح سامية فى أن تكون عنده فى محل أشرف وأحب إليه من أخته ؟

قالت فريدة وهى تفتح حقيبتها ، وتخرج منها الرسالة ، فلا تفطن لما على وجهه من دهشة واستغراب وذهول :

— نعم . أليست هذه رسالتك .. بدون توقيع ! ؟

واختطف أحمد الرسالة ، فتأكد بعد ثانية واحدة أنه لم يخط فيها حرفاً ، وأنه برىء مما حدث .. وقفزت عيناه بين السطور تلتهمها .. فقرأ رسالة موجهة إلى سامية تتحدث عن اللوعة والسهد ، وعدم القدرة على المذاكرة ، والزهد فى الطعام ، والتمنى أن يجمعنا الله تحت سقف واحد ! !

فاشمأزت نفسه ، وامتعض ، ونظر إلى فريدة بشىء من الاحتقار ، وهو يسألها :

— متى وصلت هذه الرسالة ؟

— اليوم ..

— وما دليلكم على أنها منى ؟

فانتابها ارتباك خفيف ، لكنها سارعت تقول :

— ولماذا يبعث غيرك برسالة إلى سامية ؟ عندما وصلتها قالت قبل أن تقرأها لابد أنها من أحمد ..

وهز رأسه بأسف :

— كذا ..

— آ ..

قال بحسرة ، وهو يكظم غيظه :

— أتظن صديقتك أنى أحب على هذا المستوى ؟ وإنى أبعث برسالة دون أن أوقع عليها ؟

— لا شأن لى بهذا .. إنها التى تعتقد ذلك .

— اشكرى لذكائها هذا الاعتقاد ، وقولى لها إننى إذا بعثت لها برسالة فسأكتب اسمى كاملا .. اللصوص فقط هم الذين يتخفون ..

ومضت ليلة ، وأحمد — مع إحساسه بالجرح — يخمن من هو ذلك المحب الجديد ، الذى يسهر الليل ، ويعاف الطعام ، ويعجزه وله الحب عن القيام بعمله ؟ ألا يمكن أن تكون هذه الرسالة دسيسة من زكريا لمضايقته ، لإلقاء مزيد من العقد والأشواك فى طريق حبه ! ؟

« ربما .. من يدرى .. إن طريق النذالة لا آخر له »

وفى الصباح جاءته فريدة .. وأشارت إليه أن يصحبها إلى ركن قصى ، وهو يتساءل فى حيرة « ماذا هذه المرة أيضاً ؟ »

وبادرته حين اطمأنت أن صوتها لن يبلغ غيره :

— انظر ! !

وفتحت حقيبتها ، فإذا بها ثلاث رسائل جديدة .. وضعتها فى يده ، فإذا اسم سامية عليها جميعاً ، وكلها تفيض بالحب الواله المعذب الذى لايعرف صاحبه النوم ولا الطعام ولا المذاكرة ، وإنه جرب الموت حين مرضت ، واسترد حياته بعودتها !!

وتراخت يد أحمد بالرسائل ، وقد دارت به الدنيا ! !

وقالت فريدة فى بساطة من يهون الأمور :

— لقد ظلمناك حين اتهمناك بإرسال الرسالة الأولى ، وعلى أى حال هذا دليل حبها لك ، أنها لم تجد غيرك تفكر فيه حين تلقت أول رسالة .

قال أحمد بأسف عميق ، وهو يعبث بالرسائل فى يديه :

— وما حاجتها إلى ، والمعجبون لا حصر لهم ؟

ـــ أنه نزق من بعض الأغرار ، لا نلتفت إليهم ، ولا نفكر فيهم ، وسنمزق هذه الرسائل أمامك ، وأرجو أن يكون فى ذلك الترضية الكافية لك . وجذ أحمد على أسنانه ، وغيظ عارم يتملكه ، وإحساسه بانهيار ذاته يتضاعف ، ورغبته بأن ينجو من التيه الذى يضرب فيه على غير هدى ، تملك عليه زمام نفسه ، فقال بحدة ، وبتصميم :

ـــ اسمعى يا فريده !! كم سمعت لك !! والآن أسمعى لى هذه المرة ..

وتنهد تنهدة حارة ، وعاد يكمل :

ـــ إن صمت سامية وانطوائها ؛ ترك للعواطف المحرومة والمنحرفة أن تنطلق نحوها ، وأن تنمو بلا مبرر .. والآن ليس لى ميزة على هؤلاء جميعاً .. قابلتها وهنأتها بالسلامة ، فبعث الآخرون برسائل تهنئة .. وبذلك تساوينا جميعاً .. وأنا أرفض هذه المساواة .. وأرى أنها وبال على .. إننى أرفض التميع والضياع .. وأرفض أن أتنازل عن ذرة من كبريائى وإحساسى بذاتى .. إننى لا أغار منهم .. ولكننى مشمئز .. الحب أنانية .. تملك .. عبودية .. عبودية تطغى على كل شىء ، وتخضع ما تشاء ، ولاتخضع لأى شىء ..

ـــ والحل .. ؟

ـــ الحل أن تخرج سامية من سلبيتها ، أن تلتقى بى علنا أمام أصحاب الرسائل المجهولة حتى يذهب كل منهم إلى حال سبيله ، ولا يعكر على صفو أيامى الباقية فى الكلية .

ـــ لكنك تعرف أن هذا شبه مستحيل بالنسبة لسامية ما لم تخطبها .

— ولن أخطبها إلا إذا التقيت بها أولا .

— أن هذا فوق طاقتها .. وأنت تعرف .

— والصمت بعد الآن فوق طاقتى .. وأنت تعرفين .

وجمع عزيمته فى كلمة :

— إذا كانت غير راغبة فى ذلك ، فإنى أبادلها نفس الشعور .. مع السلامة .

* * *

قال الرجل ذو القسمات الوديعة ، والنبرات الطيبة ، المتحفظة فى إبداء طيبتها :

— طالت غيبتك يابنى . .

فقال أحمد بخجل يمازجه انكسار، وصوته واهن لايكاد ينفلت من بين شفتيه :

— أشكر لك هذه العناية ياسيدى . . على أن السبب هو كثرة مشاكلى .

فظهرت علامات الدهشة على وجه الأستاذ شافعى ، وقال برقة محببة :

— مشاكلك . . . من فى مثل سنك تضايقه المشاكل ؟

— إنها لا تضايقنى . . إنها تمزقنى .

فقال الأستاذ بلهجة من ظفر بالسر :

— فهمت . . وهذا طيب . . إنه دليل الطموح والحساسية ، ونحن فى حاجة إلى هذا الصنف . إن مشاكلك الآن تنحصر فى كيفية الحصول على الأروع والأعظم. رغم قسوته — أجمل ما يتحلى به البشر .

قال أحمد ، وظل سامية يسيطر على أفكاره ، ويحيط به من كل جانب فلا يفارقه :

— ربما كانت أكبر مشاكلى أبعد ما تكون عن الطموح .

وخمن الأستاذ شافعى أنها لا بد أن تكون مشكلة « لقمة العيش » تلك التى لا تقع فى حيز طموح الشباب ، ومع ذلك تمزق وجودهم ، وتحطم كيانهم تحت ثقل رهيب اسمه القلق .

وهنا لاح له أن يشير من بعيد ، وبحذر ، إلى ما يعالج الجرح جزئياً ، فقال :

— أرجو أن يكون إخراج مسرحيتك قد أعجبك .

فقال الفتى بخجل ، وقد اكتسى وجهه بحمرة شفقية ، ودمعه امتنان تكاد تطفر من عينيه ، وهو يقف نصف وقفة :

— شكراً يا سيدى .. هذا فوق ما أرجو .

فقال الرجل وهو يتشاغل ببعض الأوراق أمامه :

— تفضل القهوة .

وشرب أحمد القهوة ، واستأذن فى الانصراف ، مسلماً شاكراً ، وعندما وقف أمام الرجل يصافحه ، ظهرت أوراق مطوية فى جيب سترته ، فبادره الأستاذ قائلا :

— لماذا لم تحضر مسرحية أخرى ؟

قال الفتى ، وكلماته تتعثر خجلا وارتباكا :

— إننى .. إننى لا أريد أن أثقل عليكم .. أعنى .. على المجلة .. وأن أفسح الطريق لغيرى .

فقال الرجل وقد ازداد تشبثاً بيد الفتى :

— كلا .. يجب أن ننشر لك ما دام جيداً ، وصالحاً .. ولا بد .. وهنا تصنع الدهشة ، كأنه لمح الأوراق فجأة ، فهتف :

— ما هذا الذى فى جيبك ؟

— مسرحية ..

— إنها من نصيبى !!

وأخرج أحمد الوريقات من جيبه ، وهو يحمد للرجل كرم خلقه ، وإعفاءه من إراقة ماء وجهه .. وقبل أن يغادر المكان ، قال الأستاذ :

— تستطيع أن تمر على خزانة المجلة .. إنه مبلغ متواضع .. إن « الشكر » هو الجزاء الحقيقى الذى نبذله ..

« تحدثى ياسماء » . .

بذلك كان أحمد يخاطب نفسه ، وهو ينطلق فى الشارع الساكن ، وقد طوى الجنيهات الخمسة فى جيبه .

« تحدثى معى .. ناجينى .. ضمينى إليك . . أنت بى رحيمة . . وأنا ممزق ممرور تنزل بى كلمات هذا الرجل مثل جرعة ماء باردة فى لفح الظهيرة . . فما أرحمك . . » وعاد يتحسس الجنيهات الخمسة فى جيبه ، والمجلة التى أهديت إليه ، وعلى صدرها الخاتم الذى يحمل كلمة « هدية » .

وهنا بدت له فكرة .. لماذا لا يذهب إلى زيارة الدكتور راضى ؟ أليس هو الذى دعاه لذلك ، حقاً لقد مضى على الدعوة وقت طويل ، ولكنهما لم يتفقا على موعد . .

وحدثته نفسه المشتاقة ، التى يعذبها كبرياؤها ، بأنه يجب أن يهدى إلى الدكتور راضى عدداً من المجلة التى تنطوى على مسرحيته ، ربما — وهو أستاذ المسرحية — نوه بها فى القاعة حين المحاضرة .. ربما أطراها ، أو نقدها ، أو أشار إليها . . فقط .. سامية .. سامية .. يجب أن تعرف عنها أى شىء ، أن تراها من بعيد ، أن ترى أحداً يتحدث عنها .. « سيظل هذا العمل الفنى مبتوراً ، وعاجزاً عن أداء مهمته مالم تسمع به سامية » .

وبالتليفون أخذ موعداً للالتقاء بالدكتور.. فى بيته .. فى ذات المساء . .

وعندما كان يصعد الدرج إلى باب المسكن الأنيق ، ومضت فى رأسه فكرة خبيثة أزعجته وتمنى لو قفل راجعاً . .

لماذا لا يكون الدكتور راضى وراء الجفاء الذى قابلته به سامية فى المستشفى ؟ وصلت حبالها به فأرادت أن تقطعها عن غيره .. إن أغوار حواء غير محدودة . . ولكن سامية . . البريئة الصغيرة الطاهرة ، التى تذوب رقة وخجلا . . هل يمكن أن تفعل ذلك ؟

« الزواج !! »

نعم .. لماذا لا يكون الدكتور عرض عليها الزواج ، ووافقت ، وهو شيء لا يتنافى مع براءتها ولا طهارتها ؟

وطرق الباب ..

وعندما كان الدكتور يحييه ، ويسبقه بخطوة إلى حجرة مكتبه ، كان الدكتور يقول فى نفسه :

« هذا الفتى جزء من مشكلتى .. لو أنه ابتعد عن ساميه لخلصت لى ، ولجنبنى ذلك الجرح .. سامية .. لو أنها مكانه الآن .. معى .. فى الطريق إلى مكتبى .. لكن ماذا يمنع هذا الفتى من التفكير بنفس طريقتى .. يتخيل سامية تسير إلى جانبه إلى حجرة مكتبه ؟ أليس متفوقاً فى السنوات الماضية ، ومن حقه أن يحلم بالدكتوراه .. »

— أهلا .. أهلا ..

— أهلا بك ياسيدى ..

وحدق فيه بخجل ، فقال الدكتور :

— لم أتوقع أن تستجيب لدعوتى

فقال أحمد منزعجاً :

— لماذا ياسيدى ؟ إن هذا شرف كبير ، ويسعدنى .

فقال الدكتور فى شبه مزاح :

— حقاً !!

— وهل أشك فى ذلك ؟

وشرب أحمد عصير البرتقال ، وأرسل نظراته تمسح حوائط الحجرة الواسعة ،

وتستطلع ما عليها من صور وزخارف .. فرأى صورة الدكتور مع ماريانا .. الثلج تحت أقدامهما .. ونار غرام مشبوب تطل من عيونهما .. وصورة الحاج مرسى على الجانب الآخر فى هالة من نور اللحية المرسلة ، والعمامة الكبيرة .. فابتسم لنفسه فى خبث ، وهو يرفع الكوب بالجرعة الأخيرة ، وهو يهمس :

« تلك مفاتيح شخصية الدكتور .. دراما ناجحة .. مملوءة بالمتناقضات » وقام الفتى يستعرض مكتبة أستاذه ، مهتماً بوجه أخص بكتب المسرح والمسرحيات ، وسأله الدكتور وهو يتشاغل عنه بتنظيم بعض الكتب :

— أصبحت تهمل بعض المحاضرات .

قال الفتى بغير اهتمام ، نتيجة انشغاله بقراءة صفحة من كتاب :

— نعم .

وتنبه لجفاء إجابته ، واقتضابها ، فأطبق الكتاب ، والتفت إلى أستاذه قائلا فى لهجة معتذرة :

— إننى أقضى أياماً قلقة .. أنا فى زورق صغير .. تائه فى محيط ، يبحث عن بر الأمان .

استولت الدهشة قليلا على الدكتور ، ولكنه لم يظهر اهتمامه الشديد بما يسمع وقال وهو يحاول أن يستكشف الطريق :

— ومن بر الأمان بالنسبة إليك ؟

— العيد .

— العيد ! !

— نعم .. فى عطلة العيد ، ساعود إلى بلدى ، وتغيير الجو يساعدنى على تركيز أفكارى ومحاوله الوصول إلى نتيجة .. ثم .. هناك أمى .. الحقيقة الوحيدة الباقية لى فى هذا العالم .

وعقب الانتهاء من حديثه الذى جرفته إليه أشجانه الحبيسة ، وإحساسه بأنه فى مكان خانق يتآمر عليه ، أدركه ندم سريع على استرساله واستسلامه لأحزانه ، وانكشاف أفكاره وعواطفه ..

كم يكون (الوضوح) ضاراً فى بعض الأحيان ..

وهز كتفيه فى استهانة ، وهو يتذكر « أنا الغريق فما خوفى من البلل » .. سامية « أسى البلاء . عدواها تسرى فى دمى » .

وحمل بعض الكتب ، وخرج مودعاً ، وشاكراً ، وعندما ركب السيارة العامة من مدينة الجامعيين قاصداً بيته ، وفى الموقف الواقع على ناصية الجسر ، تزاحم الركاب على باب السيارة ، وكان من بينهم ، فتى يعرفه ، شاركه أيام سروره ، وبريقه ، وتخلى عنه فى قلقه وأحزانه .. زكريا .

كان زكريا متجهم الوجه ، قاسى النظرات ، ضائق الصدر ، وكانت ترتعش بين أصابعه لفافة مشتعلة ، يزفر دخانها بحنق ينطلق من فمه مثل السهم . كان عائداً من آخر مقابلة له مع فريدة شبه محطم ..

لم يكن يبدو عليها شىء مما تنوى أن تقوله .. رشيقة ، ناعمة ، مدللة ، أتت فى موعدها ، وشربت عصير البرتقال ، وتحدثت قليلا عن الحياة فى الكلية ، وعن الجادين فى علاقتهم ، والعابثين بها . وهنا أحس زكريا بالاعصار يبدأ ، ولكنه تجاهله ، وظل يداعبها بكلمات رقيقة .. بل لقد سمحت له أن يظل محتضناً يدها طوال الجلسة .. وأن يزحف بيده حول خصرها أحياناً .. وعندما عرض عليها أن يسيرا قليلا على الشاطىء الساكن المظلم ، لم تمانع .. ولكنه .. عندما حان موعد الانصراف وسألها عن متى يلتقيان فى النادى ، قالت بتريث :

— ما أظن أن ذلك ممكن بعد اليوم .

ولم يندهش زكريا ، لكنه تصنع الدهشة حتى يتمكن من تذويب مقاومتها ، فقال بلهفة .

— لماذا ؟ .. ليس هذا بمعقول .

— ماهو الذى ليس معقولا ؟

— أن تقتليني ..

قالت في سخرية خفيفة ، تحاول أن تداريها :

— الطريق إلى إنقاذك من القتل معروف .. إنى لا أستطيع أن أكذب على أسرتى .. وسامية خرجت من المستشفى منذ أسبوع أو أكثر ، ويجب أن أخبرهم بذلك اليوم .

— وماذا يحدث لو بقيت سامية فى المستشفى شهراً ؟

— لأ .. سامية خرجت ..

ثم أضافت بحزم :

— زكريا .. لسنا أطفالا .. نحن كبار ، وعلينا مسئولية ، ويجب أن نتحمل مسئوليتنا بلا تهرب . تستطيع أن تقابلنى فى منزلنا إذا كنت جاداً .. هل تكفى المدة الفائتة للتعرف ؟

قال بتخابث يحاول أن يتحاشى به ضعف موقفه ، وتهربه من إعطاء وعد :

— أهذه تعاليم أحمد ماهر ؟

قالت بغضب : لا شأن لأحمد بهذا .

قال باسماً :

— هل غضبت ؟

قالت وهى تحاول أن تجاريه :

— كلا ليس هناك ما يستحق ..

قال بخبث :

— كذا .. أنا هين القيمة ، ولا أستحق أن تنضى من أجلى ؟

— كلا . . أنت نمرة ١٧ .

وضحكت بدلال ، وهى تسحب يدها من بين راحتيه ، وتحاول أن تجعل الحديث موصولا ، وقد نجحت فى ذلك حين قال :

— أما قلت لى عن سر هذا الرقم ؟

قالت وهى تتصنع الجد ، ولا تلتفت إليه :

— سره فى حديقة الحيوان .. القفص رقم ١٧ .

قال زكريا مازحاً ، وهو ينتفش ويضخم صوته :

— أحسبه الأسد ..

— كلا .. الأسد .. لا .. إنه .. النمر .. الأسود .

وتركته على غير موعد للقاء ..

كان الضوء خافتاً فى السيارة العامة التى ركبها الصديقان المتخاصمان . . وكان فى قلب كلا منهما أحزان تلهيه عن التفكير فى صاحبه .. ولكن يد زكريا كانت مشغولة بمجلة فى يده .. لم تخطئها عين أحمد لأن مسرحيته فى طياتها .. فى تلك اللحظات من الليل وكان أحمد ، وزكريا ، والدكتور راضى ، وفريدة . . كل منهم يعيش قلقه على نحو خاص ، تعـذبه الأيام التى مضت ، ويخشى الأيام التى تأتى .. كانت سامية جالسة أمام مكتبها ، وقد فتحت كتاب المسرحية تذاكر ، خالية البال ، حريصة على التحصيل .. لكنها حين قلبت الصفحة ، والتقت بالدرس الذى يتحدث عن الحركة فى المسرحية .. ذكرت القاعة الدافئة الناعمة .. وذكرت تلك اللحظات التى كانت تحياها بقوة ، وترى نفسها تتحدث بلسان أحمد ، وتراه

يهمل من عداها .. ويناجى نفسها .. فلم تملك إلا أن تغلق الكتاب وتطفىء النور ، وتلقى بنفسها فى الفراش ..

وتنهدت تنهدة عميقة ، كأنها تزيح عن صدرها ثقلا خيالياً ، وهمست فى ألم وهى فى حيرة مما يجب أن تفعل :

— ما أحوجنى إليك يا أمى .. متى يأتى العيد .. لألتقى بك ؟

* * *

كم تمنى الدكتور راضى أن تحمل إليه فريدة ، كلمة اعتذار من سامية ، حين كانت راقدة فى المستشفى ،

وكم زادت لهفته حين رأى سامية تعود إلى الكلية ، واشتعل شوقه لسماع هذه الكلمة من سامية ذاتها .. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

فى الأيام القلائل التى ترددت فيها فريدة على الكلية ، فى غياب صديقتها ، كانت تذهب — كما اعتادت — إلى حجرة الدكتور ، وتجلس أمامه ، وعلى شفتيها تلك الابتسامة الساذجة الخبيثة ، وتسأله — كما اعتادت أيضاً — عن صحة ماسى — ولده ، وعن الكلمات الجديدة التى استطاع أن ينطقها ، وعن آخر مداعباته ومشاكله .. وتسأله أحياناً عن « المدام » ، عن صحتها ، وأحوالها .. وهى تفعل ذلك بطريقة تقليدية لا حرارة فيها .. وهى لم تر الطفل ولا أمه .. لكنها تفعل ذلك لأنها تشعر أنه يثير أشجان الدكتور ، ويوقظ مشاعر متضاربة .. ساكنة فى نفسه .. ويفك عقدة لسانه فى هذا الجانب الذى كان من نصيب سامية أن تتاح لها فرصة جنى ثماره ، لكنها — بحماقة — بددت الأمل .

أما الدكتور فإنه كان غير عابىء بمحاولاتها .. بل غير شاعر بما تحاوله .. كان يشغله شىء واحد : هل تعرف فريدة حقيقة ما حدث بينه وبين سامية فى المستشفى ؟ وإذا كانت تعرف ، ألا يحتاج الموقف منها إلى تعليق ؟ إذا كانت سامية لم تعتذر عن سخافتها ، وتسرعها ..ألا يمكن أن تعتذر فريدة بلباقتها المعهودة عن خطأ صديقتها ؟ لكن ذلك لم يحدث ، وظل الموقف على غموضه .

وفى تلك الفترة ضاق بجو الظلال الممتدة ، والظلام الضارب ، والغموض المحير القاتل وجمع عزيمته للخروج إلى منطقة الضياء .. إلى حيث الحقيقة الوحيدة الثابتة فى حياته ، وهى أن ماريانا زوجته ، وماسى ابنه .. وسيظلان كذلك .. إنهما

القلبان الوحيدان اللذان خفقا بحبه ، واطمأنا إلى مصيرهما فى يده ، فوجب عليه أن يكون أميناً على هذا المصير .

وكانت أولى محاولاته فى استعادة حبه لزوجته وطفله ، تلك الأيام الثلاثة التى قضاها فى بيته ، مجافياً جو الكلية ، وأحالها إلى شهر عسل ، محاولا فى إخلاص واستماتة أن ينقذ نفسه من القلق الرهيب الذى يسرى فى دمه . لكنه حين عاد إلى الكلية .. عاوده نفس الداء ..

الإنسان هو فقط الذى يتغير ويتلون فى مشاعره .. وينسى .. ولكن الطبيعة .. آه . إن فيها تصميماً عنيداً ،. ما تزال تبعث إلى نفسه بالأشواق المحروقة التائهة ، وتوقظ فى أعماق فؤاده الجرح الذى أصابه من يد دافئة ناعمة ، كانت تزحف على الوسادة ..

وبرغم ضيقه بوجود براون فى بيته ، جالساً مع زوجته يستمع إلى الموسيقى . فإنه لم يناقشها فى هذا الأمر .. حقاً كان براون صديقها وهو طفل معها فى المدرسة ، لكنه يعرف زوجته .. وليست هذه أول جلسة منفردة لهما .. فكم صحبها إلى الكنيسة فى أيام الآحاد ، وكم زارها ليستمع عندها إلى أحدث تسجيلات الموسيقى التى تأتيها من أسرتها من هناك ، ولو أن الدكتور ناقشها حول زيارة براون .. وأفصح عن شكه فى براءة تلك الزيارة ، فإن ماريانا دون نقاش ستحزم أمتعتها فى ساعة واحدة ، وتعود إلى وطنها .. وتسجل عليه هزيمة أخرى لا يريدها . . حقاً . . إنه إذا أراد أن يسألها فى هذا الشأن فيجب أن يتبعه بالطرد .. هكذا يجب أن يحتفظ بسلاح المبادرة فى يده . ولما كان لا يستطيع الاستغناء عنها ، فإنه لم يشر إلى هذا الأمر مطلقاً .. وإن ضاق به ، بل إنه اعتذر عن صفع الباب بقسوة ، محتمياً بإرهاقه فى العمل . وعاد يحاول باستماتة أن يصطنع السعادة مع زوجته .

وذات أصيل ، وكان الدكتور وماريانا يجلسان فى ظل شجرة فى حديقة بيتهما الصغير ، وكان الدكتور يقرأ بعض الكتب ، بينما أخذت هى تتسلى بقراءة بعض

المجلات النسائية ، قال الدكتور ، وكأن الطرافة مقصودة لذاتها فى حديثه الذى ابتعثته القراءة :

— أتذكرين يا ماريانا تلك البحيرة التى حدثتك عنها ؟

قالت وهى تزيح كرسيها لتستظل بالشجرة ، ووجهها الرقيق مضرج بحمرة قانية بعثتها حرارة الربيع ،وعيناها الصافيتان مسبلتان أمام وهج الضوء .

— بحيرة عباس ..

— نعم .. بحيرة الخليفة العباسى التى حدثتك عنها .. كانت من الزئبق ، وضعوا له زورقاً صغيراً .. كان يجلس فيه فيظل يتأرجح .

قالت وهى تحدق فيه بلطف :

— نعم أذكر .

فقال مظهراً غرابة ما يقول بكل قسماته .

— لا أدرى ، ما الذى أعجبه فى أن يقضى حياته يتأرجح .. كأنه على حافة القدر ..

قالت ، مظهرة الوجه الآخر للصورة التى رسمها زوجها :

— لم يكن الزورق يؤرجحه .. لقد كان يهدهده .. كأنه يستلقى على صدر ناعم كل عمره .

كم ودت أن تقول له : لكنك معتكر المزاج ، فلم تر من هذه الطرفة إلا الوجه القلق الحزين .. لكن .. ما جدوى ذلك ؟ إنها تعرفه .. يتنقل بين مختلف الحالات بلا نظام فلتتركه حتى يقر له قرار .

وعاد الدكتور يقول بعد تأمل :

— ألم يحن لاستقرار الشاطىء ؟ !!

قالت وهى تعيد ترتيب بعض الصحف التى أوشك الهواء أن يبعثرها :

— ربما .. لكن دون الشاطىء بحيرة من الزئبق .. والزئبق سام . أتعرف .

نعم .. نعم .. كان مجتمعه فاسداً ، ومتضارباً ، وكانت الحياة فى بحيرة من السموم أفضل من الاستقرار فوق شاطىء مظلم .

وساد صمت أتاح لكليهما أن يعود فيسترجع حديثه مع صاحبه ، وهل يحمل ملامح شىء من الأيام الفائتة ؟

وضايق ماريانا أنها قالت أن الحياة فى زورق قلق خير من النزول إلى الزئبق . ربما فهم زوجها من هذا معنى لا تحب أن يتبادر إلى نفسه ، وهو يقضى أياماً تعسة تحاول أن تبدد فيها متاعبه ، التى لا تعرف تماماً مصدرها .

وغشيها حزن خفيف لتلك الكلمات ، وأرادت أن تبدد أثرها بسرعة ، وساعدها على ذلك هبوب زوبعة صغيرة ، نظيفة الهواء ، وداعبت ثيابها وشعرها بقسوة أخرجتها من مشاعر الخوف ، وبعثرت بعض الصحف ، فانطلق الدكتور معها ، فى أثرها يجمع الصحف الزاحفة إلى بعيد .. وعندما استقر فى كرسيه مرة أخرى ، قالت ماريانا وهى تحدق فيه برقة :

— هل تذكر موعد الليلة ؟

قال الدكتور وعلى وجهه علامات الضيق :

— نعم أذكره .

وصمتت لحظة ، ثم اصطنعت التشاغل بالنظر فى صحيفة ، وعادت تقول :

— إذا كان ذلك يضايقك اعتذرنا عن الموعد .. إن الهدف هو حمل السرور إلى قلبك فحسب .

وخالجه شعور بالمرارة ، والندم .. فقال معتذراً فى إخلاص :

— كلا .. إن ذلك لا يضايقنى .. إنه أمر سار لى كما تعرفين .. وأنا

أحب حفـلات براون ، وأطرب للموسيقى التى تسمعها عنده .. كلها ..

قالت تغذى سروره :

ـــ لقد حمل إليه البريد تسجيلات موسيقية جديدة .. والدعوة ـــ كما تعلم ـــ لسماعها والتدريب على الرقصة التى تعبر عنها .

ـــ نعم .. وهذا أيضاً يسعدنى .. من أجلك ..

ورمقته بامتنان كبير ، وهى تهمس لنفسها :

« ما أرقه حين يكون سعيداً .. وراضياً »

وفى المساء ، كان مسكن براون يغص بأصدقائه وزوجاتهم .. سحب الدخان تحوم فى سماء الغرف والأبهاء ، والساقى الصغير ذو الرداء الأبيض يدور بالقهوة حيناً ، وبالشراب أحياناً ، وجهاز التسجيل يبث بألحان مألوفة للجالسين تمهيداً لسماع الألحان الجديدة ، وجماعات الأصدقاء متحلقين فى أركان البيت .. عطر وبريق وأنفاس مشتاقة .. وأذرع ونحور تزرى بالبلور .. وأثواب تنحسر فوق الركبتين .. وهمسات راعشة فى الآذان .. ولفائف تبغ حائرة .. تلتهب من طرف بنار الـكبريت ، ومن طرفها الآخر بنار شفاه مشتهية .. وأربطة عنق فى لون الشفق .. وحديث ذو مغزى .. وتلامس كئوس .. ووميض فى العيون .. وهروب من رقيب عاذل .. وتلامس نهد أو خصلة بطريقة تبدو عفوية ..

كان الدكتور راضى يرقب ذلك بمزيج من التقزز والدهشة ، كأنه يشاهده لأول مرة . واختلس نظرة إلى زوجته ، فوجدها تتحدث إلى براون الجالس إلى جانبها فى الطرف الآخر من القاعة .. تجاهه .. وأبت نفسه عليه أن يسترق السمع .. لـكنه لم يستطع أن يكبح نظرة فاحصة إلى وجه براون .. كانت قسماته كلها تنضح بسرور عارم يستولى عليه ، ونظرته إلى ماريانا نظرة عبادة صامتة وديعة ، مثل تلك التى نشاهدها فى عيون القطط الأليفة حين نربت ظهرها وهى مستقرة فى أحضاننا ..

وبدا الحفل ..

وقال براون ، وهو يصفق بيديه بمرح :

— الرقصة الجديدة .. لم يعرفها الدكتور راضى .. كان فى شهر عسل ، فلم أشأ أن أزعجه بدعوة مشاهدتها فى الشهر الماضى .

وارتعشت أهداب الدكتور بقلق ممض « كيف عرف ذلك اللعين أننى كنت أبعث شهر العسل من جديد» ؟

وعاد براون يقول :

— والآن سنعفيه من الرقص فى الشوط الأول ، على أن يلاحظنا جيداً ، ليشترك معنا فى الشوط الثانى .

وبدأت الموسيقى ترسل أنغامها الحالمة . . كأنها جدول ينساب بين أعشاب خضراء لكنها حين كانت تخترق أذن الدكتور كانت تتحول إلى أنين .. أنين حزين يصدر من أعماق مجروحة بجرح .

وتقدم براون من ماريانا مستأذناً فى أن تشاركه الرقص ، وهز الدكتور رأسه علامة الايجاب وهو لا يدرى ماذا فعل . وجلس يراقب زوجته ويد براون تحيط بخصرها من بعيد فيراها ثعباناً يحيط بعنقه .

وانسحق قلبه ، وهو يحس خفقات قلب براون تتزايد حين يجذب ماريانا إليه ، وهما يدوران مع نهاية اللحن ، ثم وهو يقترب منها وقد تشابكت أصابعهما .. وبراون حريص على أن يتشمم شعرها باشتهاء .. ويجذب أنفاسه مصفاة من بين خصلاتها ..

وأوشك الدكتور أن يقوم فينزع امرأته ، ويخرج ، ولكنه تمالك نفسه بمشقة ، حتى انتهت الرقصة ، وعاد الراقصون إلى أماكنهم للراحة قليلا .. وكانت فرصة الدكتور لانتزاع زوجته .

وعارض براون ، وعارض أصدقاء الدكتور جميعاً فى خروجه ، ولكنه أصر على أنه مرهق ، وأنه أصيب بمغص مفاجىء .

وتلاقت أنظار الجميع على الدكتور الذى بدا مثل الكتكوت بين مناقير الصقور ومخالبهم .

ونظرت ماريانا إلى براون ، باعتباره الداعى ، وقالت بحنان :

ـــ أرجو ألا يسوءك ذلك .. إن راضى متوعك ، وكان يريد الاعتذار .. إلا أنه قاوم من أجلى .

وخرج الدكتور يكاد يدفع زوجته أمامه دفعاً ، وهى لفرط حزنها وضيقها لا تستطيع الحديث ، لكنهما ، عندما بلغا السيارة ، جلست هى إلى عجلة القيادة ، وأراد أن ينحيها قائلا :

ـــ لست سكران هذه المرة .

قالت وهى تندفع بها إلى الخارج :

ـــ ما فعلته الليلة ، لا يقدم عليه سكران ولا عاقل ..

واقترب منها متحسساً جسدها بعينيه وأنامله ، وهو يكاد يرى أثر لمسات براون على كتفها .. وذراعيها .. وقال بفحيح بائس :

ـــ أحبك يا مارى ..

ولم تتحرك عيناها .. ظلتا مسددتين إلى الطريق ، وحركت جسمها لتبعد زوجها قائلة بلهجة ذات مغزى :

ـــ السيارة قيادها فى يدى .. ابتعد عنى وإلا دمرتنى .

فنظر إلى الطريق المظلم الساكن ، وقال بمسكنة :

ـــ الطريق خال ولا خوف عليك .

قالت بذات اللهجة الساخرة :

ـــ الطريق ممتلىء بأشياء كثيرة !!

وعندما استغرقت ماريانا فى النوم ، نهض على أطراف أصابعه ، وعاد إلى حجرة مكتبه ، وأضاءها .. ذهب يبحث عن السلوى فى الكتب .. فوقعت عينه

على صورة ماريانا فى جانب ، ووجه أبيه الملهب ، بنظرته المؤمنة القوية ، فارتعش جسده كله ، كأنه وقع تحت تيار كهربى صاعق .. وصرخ منهاراً : الزورق وبركة الزئبق .. رحمتك يارب .

وانهمرت دموعه ، ربما لأول مرة فى حياته ، وراح يبكى بنشيج لم يحاول أن يكبته .

* * *

قالت الأم ، وعلى وجهها علامات جزع حقيقى :

— هل أنت بلهاء ياسامية .. بعد هذا التعليم الطويل لا تعرفين ما يجب ومالا لايجب .

فقالت سامية بندم :

— ربما كان هذا أول حديث صريح فى هذا الشأن بينى وبينك يا أمى .. طالما انتظرته ، وكانت عطلة العيد أملى لألقاك .. و ..

فقاطعتها أمها موبخة :

— كنت أحسبك عاقلة .. دكتور يطرد وزميل كما تقولين .. يهتم .. هذا هوس بنات .. وجنون ..

وأتمت حديثها لنفسها : « جنون ورثته عن أبيك » ، ثم هتفت :

— اسمعى .

— نعم ..

قالتها فى استسلام وتخاذل .. كانت سامية فى تلك اللحظات مستعدة لأن تستجيب لما تمليه عليها أمها ، فقد مزقت الأيام الأخيرة فى الكلية أعصابها .. أحمد وزكريا على خصام ، لخطما جزءاً من المثاليات التى تعيش فى رأسها ، حيث تراهما صديقين لا يعرفان إلا الصفاء ، وفريدة تجاريها حيناً . وتجافيها حيناً آخر لأسباب غير واضحة .. كل الذى تحتفظ به من فريدة أنها وقفت موقفاً سلبياً من الأخطاء التى وقعت فيها حين أغضبت الدكتور راضى ، وسخرت من رأى أحمد فى فتاة الجامعة المثالية .. وأن فريدة لم تبذل أية محاولة لإصلاح ما فسد .. وفى الوقت ذاته لم تقاطع الدكتور ، ولم تخاصم أحمد ماهر ، ولم تدعها — فى نفس الوقت —

لصاحبتها حين تذهب إلى الدكتور فى الاستراحة ، ولا تعلق على ما يدور بينها وبين أحمد .. كأن سامية خلعت من الموضوع خلعاً ، ولم تعد ذات شأن فيه .

« قولى يا أمى .. سأسترشد بتجربتك ، وسأتبعها دون تردد ، فلم يبق لى من قلب مخلص سواك .. آه .. وهو الآخر لا أتخيله إلا مخلصاً يذوب بالأسى .. لكن ما العمل ؟ »

وعادت الأم تكرر فى قلق :

— اسمعى ..

— سامعة ..

— سأبسط لك المسألة .. كم زميلا لك ؟

— لماذا ؟

قالت الأم بضيق شديد :

— لا تناقشينى وسيتضح كل شىء .. كم طالباً معك فى الكلية ؟

قالت سامية مستسلمة :

— كثير .. مئات .. يزيدون عن ألفين .

فقالت الأم بحسرة :

— أيتها الحمقاء .. ألا ترين الخطر القادم ؟

— أى خطر يا أمى ؟

— مثل أبيك .. قصيرة النظر .. لا ترين إلا ما تحت أقدامك .. الآن أمامك مئات الفرص للزواج .. بعدد زملائك .. وبعد شهرين فقط سيتفرق هؤلاء الشباب جميعاً ، ويجد كل واحد منهم من تشغله من بنات العم ، والخال ، والجيران ، وزميلاته فى العمل .. ولن يتذكر فى هذه الساعات سامية أو غيرها .

ثم أضافت بحماس :

— فكرى .. سنفرض أنه سيكون لك عشرة زملاء فى عملك ، فى العام القادم ، ولا أقول إن نصفهم على الأقل سيكون متزوجاً .. انظرى .. أمامك الآن مئات الفرص ، وبعد عام عشر فرص لا غير .. ألا يستحق هذا اهتماماً ؟

وسكنت سامية وهى تنظر فى حجرها ، وتفكر فى أمر آخر ، هو نتيجة ما تسمعه من أمها .

وعادت الأم تقول :

— على أن الدكتور .. هذا .. ما اسمه ؟

ولم ترد ، فاسترسلت الأم تتحدث :

— الدكتور .. لا يمكن أن نهمله .. كنت حمقاء لا شك .. من الذى يحلم بمثله .. إن هذا الأمر تمكن معالجته .. قلت إن فريدة لا تريد ، ولو أرادت لفعلت .. سيفعله أبوك ..

— أبى ..

— نعم .. ما المانع ؟ اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك .

قالت سامية ، والغضب يستولى عليها :

— هذا كلام ؟ !

وصرخت فيها أمها محذرة :

— بنت .. الزمى الأدب .

كانت سامية محتقنة الوجه بالدم ، والكلمات تتصارع على طرف لسانها وتتزاحم ، فلا تستطيع النطق بها ، وأخيراً قالت بصوت مختنق بالبكاء :

— هذه فضيحة .. كيف يحدث هذا فى الجامعة ؟ كيف ؟ إننى سأرسب فى هذه السنة السوداء ..

فرق قلب الأم للدموع المنحدرة ، والوجه الذى يتحدر بالضيق للكبوت ، وقالت بلهجة أكثر اعتدالا :

— ليست لك تجربة الحياة . . افهمى . . لن يذهب والدك إلى الدكتور ليقول له : تزوج سامية ، سيذهب ليشكره لزيارتك فى المستشفى . . فقط . . وهنا سيمتد الحديث ، وسيقول له الدكتور ما يشاء ، ويعرض عليه الزواج .

قالت سامية بألم :

— وهل قلت لك إننى أريد الزواج بالدكتور ؟

فنظرت الأم إليها نظرة الخبيرة بخبايا ابنتها ، وقالت بشىء من التهكم :

— وهل من الضرورى أن تقولى ذلك ؟ فيم إذن هذه الحكاية التى صدعت بها رأسى ؟

— قالت سامية :

— حاولى أن تسمعينى لحظة .. إننى لا أفكر فى الزواج بطريقتك .. إننى..

فقاطعتها الأم :

مالها طريقتى ؟

— لا غبار عليها . . رائعة جداً . . لكنها لا تناسبنى . . تقدم الزمن عن أيامك عشرين عاماً .. وأنا فى الجامعة أيضاً .. ولم تعد الطريقة القديمة محترمة من كل الناس . .

وصمتت لحظة .. تنهدت فيها لنفسها .. من الذى يقول هذا الكلام ؟ آه إنه أحمد فهل آمنت بطريقته ياسامية بعد أن راح ضحيتها ؟

وعادت تضيف على مهل ، وقد استبد بها الإعياء ، فخفت صوتها الواهن :

— شىء وحيد أرجوه بعد عطلة العيد .. أن أعود إلى الكلية على ما كنت

عليه منذ ثلاثة أشهر .. قبل أن أمرض ، قبل أن أفقد السيطرة على نفسى .. لم ألتق برجل طول حياتى .. ولم أتحدث مع رجل فى غير الدروس ، فكان صعباً على أن أستجيب لأمر آخر أو أحسن الحديث فيه .

وتنهدت الأم فى استسلام ، وقالت بأسى :

— تلك مصائب أبيك .. إننا حتى الآن .. لا نكاد نزور أحداً ، ولا يعرفنا أحد ..

وعادت سامية تقول :

— لست شديدة الندم لما حدث للدكتور .. إنه .. إنى .. كلا .. المهم زملائى لأن الدكتور مرتبط بالكلية ، ولم يعد لى فيها سوى أسابيع .

— قالت الأم وقد فهمت :

— حافظى على احترام زملائك جميعاً ، ولا تقطعى تعلقهم بك .

فقالت سامية :

— أحدهم لا يرضى بذلك .. إنه الذى حدثتك عنه .

فقالت الأم بلهجة الخبيرة :

— إذا كانت أخلاقه حقاً كما وصفت .. ورأيك فيه أنه يصلح لك .. اهتمى به وحده .

قالت سامية بضيق ، ينم عن رغبتها فى إنهاء الحديث :

— لم تعد هناك فرصة .. الامتحان على الأبواب ، وفى هذه الفترة يشغل عن كل شىء .

— حاولى .. حاولى .. وسيستجيب ..

— كيف .. كيف أبتذل نفسى ؟

قالت الأم بضيق :

ـــ كني غباء .. تصرفي .

وعادت سامية من عطلة العيد ، أكثر حيرة ، لأنها لا تعرف كيف تتصرف : لكنها هذه المرة ، عقدت العزم أن تلزم خطها السابق لا تحيد عنه .

لكن .. كيف عاد أحمد من عطلة العيد ؟

منذ حادث الرسائل .. تلك التي التصقت به ظلماً ، وكشف في نفس الوقت عن وجود أحباء عديدين لسامية ، يأملون منها مثل ما يأمل .. منذ اكتشف أنه ليس الحبيب الفرد ، الذي لا يشاركه أحد هوى حبيبته ، وهو يرتدي ثياب (رجل البيت) الذي يعيش في مشكلاته الخارجية ، ويطوي قلبه على مشاكله الخاصة ، التي ربما قوضت بنيانه دون أن يحس به أحد .

حقاً .. إن صمت سامية ، وسلبيتها تجاه حبه يجعله فرداً يقف في الصف .. صف المحبين الذين يستجدون عطف محبوبتهم . ولن يخرجه من ذلك الصف إلا اعتراف سامية بحبه بطريقة علنية ، تستجيب فيها لهواه كما رسمه .. إنه ليس مثل الآخرين .. ليس عابثاً ، ولا مخادعاً ، ولا تافهاً .. فكيف يقف مستجدياً مثلهم ؟ هذا .. وإلا لا مفر من الالتحاف بالكبرياء ، وعباءة (رجل البيت) ولترعى النار في الضلوع على مهل ، فما باليد حيلة .

لكنه حين التقى بأمه ، وبأخته ، أحس بجو غريب ، جو تحسه الأعماق بسرعة ، لوهلة خاطفة ، ولا تتخلص من تأثيره ، مهما تغيرت الظروف . أحس بلون كاب يكسو كل شيء في البيت ، حتى وجه أمه ، ووجه أخته ..

كانت أمه في المرة الأولى فرحة بقدومه ، سعيدة بخاطب ابنتها . وكانت فاطمة بكيانها الدقيق اللطيف تختلج بين السعادة والحياء .. فماذا حدث ؟ لقد علمته سامية أن يصمت . وقد لازم الصمت في أيامه الأولى ، وتأكد ظنه حين لم تصمت أمه . قالت :

ـــ رشدي (وهو اسم الخاطب) متعجل ..

— فيم ؟

— فى الزفاف . .

فهز أحمد رأسه فى ارتياب ، وقال بحدة خفيفة :

موعدنا معه إجازة الصيف ، فى نهايتها ، بعد أن تنجح فاطمة فى الشهادة الثانوية .

قالت متلطفة مهونة :

— يا ابنى . . خير البر عاجله .

— لأ . .

قالها قاطعة جافة . . فقالت الأم وهى تتحامل أن تنهار :

— وإذا طار ؟

— طار . . كيف ؟ هل نحن أطفال ؟

فقالت بهمس ، تسبغ على حديثها صفة الأهمية البالغة :

— يا ابنى . . غداً تصير أباً وتعرف . . ليس كل العلم فى الكتب . .

فقال بجفاء غير معهود :

— لا شأن لك بالكتب . (وبعد صمت قليل) ماذا يحدث بالضبط ؟

فصمتت قليلا ، وقد صدمتها خشونته ، ولكنها تجاهلت ، ومضت :

— أنت لا تعرف كيف تدار البيوت ، وكيف تمضى حياة الناس . . أنت نبيل وذو خلق رفيع ، لكن الحياة لها أخلاق أخرى تفرضها على الناس .

قال ، وما يزال مكتئباً متضايقا :

— ما شأن هذا بالتعجل فى الزواج ؟

— قلت لى . . رشدى له بنت عم لا يرغب فيها ، وعندما لحوا الخاتم فى

إصبعه جن جنونهم وبدأت مؤمراتهم .. وهو يريد أن يقطع عليهم خط الرجعة.

فقال بدهاء يبدو فى نظرته :

— وماذا فعلتم أيضاً لقطع خط الرجعة ؟ هه . . ماذا حدث ؟

— لا شيء .. رأيى أن نوافق على الزواج .. بسرعة .. فى هذه العطلة بمناسبة العيد ، وفى وجودك .. مناسبتان من النادر اجتماعهما .

« أين أنت يا زكريا . . ما أحوجنى إلى رأيك .. برغم قسوتك على وتخليك عنى » .

— أمى برحمة أبى .. بالله العظيم .. هل خرجت فاطمة مع رشدى بمفردها ؟

فقالت بدهشة مصطنعة :

— كيف تسألنى عن ذلك وهى أمامه طول اليوم فى المدرسة ؟

قال بعصبية :

— لا خوف من المدرسة .. إننى أسأل .. هل أخذها من هنا .. فى الليل مثلا . . للنزهة ؟

قالت باستسلام .

— إن هذا يحدث بين كل خاطبين ..

— لا شأن لى بالآخرين ..

— نعم .. خرج معها مرتين ..

واستجمع شجاعته مرة أخرى :

— هل حدث شيء ؟؟

وفهمت الأم أنها تماطل بغير جدوى ، وأنه خمن كل شيء من أول لحظة .. فقالت وهى تدير وجهها :

— يا ابنى .. كانا بمفردهما .. فهل تسألنى عما حدث ؟

أسى العالم كله وجد له مصباً فى ذلك القلب الكبير .. قلب أحمد .

لقد تراءت له فى تلك اللحظات صورة أسد جريح ، نزفت دماؤه ، حتى صارت بركة من حوله .. وحيوانات كثيرة خسيسة ، تلعقه على مهل .. دون أن تكترث له !!

وتم زفاف فاطمة إلى رشدى بعد أسبوع .

وعاد أحمد إلى الكلية ..

كانت عيناه لا تريان إلا صورة واحدة !!

فاطمة الجميلة الوديعة مثل حمامة بيضاء .. لكنها كابية اللون خائفة من أخيها ، الذى لاطفها فى انكسار ، دون أن يزيد جرحها .. ثم تسطع من ورائها صورة فتاة أخرى تتحدث ساخرة عن رأيه فى الفتاة المثالية ..

آه .. أين أنا فى ذلك الغول المتوحش ... العالم !! ؟

* * *

وكانت مفاجأة جذبت انتباه جميع الجالسين فى قاعة المحاضرات الواسعة ، فى أعقاب العودة من عطلة العيد .

فقد دخل زكريا القاعة ، لأول مرة ، بلا نظارة . .

كان خروجه على الصورة المألوفة التى ارتسمت فى الأذهان يبدو غريباً . . عيناه ضيقتان لاتقدران على مقاومة الضوء ، جفونهما المشدودة المحاطة بهالة حمراء منتفخة قليلا ، قد رفعت حاجبيه إلى أعلى ، وظهر حز فوق قصبة أنفه . . ليس بعيد الغور لكنه ظاهر تماماً ، وخط مثل أخدود رفيع قد امتد مستعرضاً فى شعره فوق سوالفه . .

على أن ذلك كله لم يكن مهماً برغم أنه لم يحدث من قبل ، ولكن المهم أنه لفت إليه الأنظار المندهشة . فوقعت على ماصار إليه من جفاف ونحول . .

قامته المديدة ازدادت طولا ، وسمرته التى تذكرك بماء النيل ، صارت كدرة مصفرة وعظام وجنتيه برزتا على الجانبين لجسمتا معنى الذبول والجفاف .

ولم يكن هذا فى حاجة إلى تفسير غريب ، أو استقصاء من زملائه فى الكلية ، فقد أعادوه إلى انهماكه فى المذاكرة ، وإصراره على انتزاع الليسانس . . حتى لقد قال له أحدهم مداعباً :

— أقسم أن نظارتك لم تنكسر . .

فقال زكريا ، وعلى وجهه ابتسامة شاحبة ، وهو يحاول أن يبدو مرحاً :

— لست فى حاجة إلى قسم . . إنها لم تنكسر . . لقد تحطمت . .

فقال الزميل ضاحكاً :

— كلا لا تخدعنى . . لقد تبخرت من كثرة المذاكرة . . نفدت لكثرة الاستعمال . .

وهمهم صوت داخلى فى أعماقه المرتعشة بالأسى مردداً « نعم نفدت لكثرة الاستعمال . . . كل الأشياء الطيبة والرديئة أيضاً . . نفدت » .

شخص واحد لم يخدعه غياب النظارة ، واستطاع أن يصل إلى ما يقرب من السبب الحقيقى . . أحمد ماهر .

إن شيئاً ما قد حدث . . وربط بين النظارة المحطمة ، والخدوش على جانب وجهه . . لابد أن شيئاً ما قد حدث .

والذى حدث ، ولم يعرفه أحمد على وجهه الصحيح ، أن سيدة العوامة لابد أن تنتهى إلى أن تمل الطعام الواحد ، الذى يظل يقدم نفسه لمدة ثلاثة أشهر بدون انقطاع ولقد حاولت أن تصرفه عن نفسها بلطف ، ودون ضجة ، ولكن الفتى المندفع ظل متمسكاً بها . . أليس من أجلها تخلى عن صديقه فى أحرج الأوقات ، ومن أجلها استهان بصداقة فريدة ، ولم يسع إلى الطريق الرسمى الذى أشارت إليه؟ من أجل لحظات الدفء التى يحظى بها ، وساعات الشعور الخدر الموهوم . . باع أصدقاءه ، وتخلى عن حبه وأحس بالاكتفاء الذاتى . . فكيف يفقدها . . كيف يفقد كل ما تبقى له ؟

وذات مساء قالت وهى تتحاشى الالتقاء بنظراته .

— إننى فى حاجة حقيقية لتأجير الحجرة الخالية :

فتمايل برأسه ساخراً . وهو يقول بلهجة هازئة .

— هىء . . . حلوة . . حاجة حقيقية . . هه . . حقيقية . .

فقالت وهى تمهد للغضب :

— إننى لا أمزح .

قال ، ولم يتخل عن سخريته .

— وأنا أيضاً . . من الذى قال إننى أمرح مع السيدات ؟

قالت بصبر نافد .

— حاول أن تفهم . . أرجوك . . إيرادى نقص بسبب زواج ابنتى ، وأنا فى حاجة إلى اثنى عشر جنيهاً .. وهى تعادل إيجار الحجرة .

فأكمل بسخرية مرة ، وهو يقلد لهجتها :

— ولما كنت أنا لا أستطيع أن أدفع مثل هذا المبلغ ، فقد وجب أن أفسح الطريق لمن يستطيع أن يدفع .. هه .

— تماماً ..

وفى تلك الليلة برغم البداية العاصفة ، حاول أن يسترضيها .. أن يستدر حنانها أن يوقظ شغفها به ، وأن يؤكد شغفه بها ، وجوعه الذى لا ينفد ، وقد استسلمت له ، واستجابت أحياناً . . لكن بإحساس من تتصدق .. للمرة الأخيرة ..

وعندما عاد إليها فى المساء التـالى ، قابلته على الباب الأسفل ، فى مدخل العوامة ، وقادته إلى حجرة الاستقبال ، وهى تشير إليه أن يخفض صوته ، وتقول بهمس :

— آسفة .. الساكن الجديد فى حجرته ..

وخرج لا يكاد يرى طريقه ، وفى نهاية السلم ، أمام باب العوامة ، اصطدم بعامود جانبى ، فتحطمت النظارة ، وتناثرت شظاياها فوق وجهه ، وأصابه العمود فى وجنته وأذنه ببعض السحجات السطحية .

ولم يتأوه زكريا .. ولم يعد ..

جلس على الأرض غير قادر على الرؤية ، وهو يتحسسها بيديه ، بحثاً عن النظارة المحطمة ، فلما عثرت أصابعه بها طواها فى جيبه ، ومضى ، دون أن ترتفع يده لتمسح قطرة من الدم تجمدت فوق وجنته ..

وأوشكت الشائعات أن تنطلق بين الطلبة ، باحثة عن معنى (السكات) المتعددة على وجه زكريا ، ولكن شيئاً آخر قد حدث ، لحول اتجاه الاهتمام العام ..

الدكتور راضى معتذر عن عدم الحضور إلى الكلية أسبوعين ..

وفى اليوم الذى عرفت فيه الكلية ذلك ، وخطته يد الملاحظ فوق سبورة الإعلان ، وكثرت التساؤلات بين الطلبة عن غياب أستاذهم قرب الامتحان ، ودون تمهيد .. فى ذلك اليوم ذاته ، كان الدكتور راضى يصطاد السمك من فوق يخت نيلى صغير ، يطوف ببعض السياح حول جزيرة أنس الوجود .. عند أسوان ..

لقد تذكر الدكتور تلك المسائل الحسابية التى كانت تعطى له فى المدرسة الإبتدائية لاختبار قدرته على الجمع والطرح .. رجل اشترى ، وباع مما اشترى ، ثم عاد فاشترى على ما بقى ، ثم باع مما صار عنده .. إلى آخر هذا التسلسل المضطرب الذى لا يستقر على حال .. ما أشبه حياته بمسألة حسابية من هذا النوع .

لقد بذل جهداً مستميتاً فى أن يتعلق بزوجته ، وأن يقنع نفسه بأنها صمام الأمان فى حياته وأنها ، وإن لم تكن غذاء عاطفياً ، فإنها تسد حاجة ذهنية واجتماعية . وربما ظنت هى أنه أصبح شديد التعلق بها منذ ظهرت غيرته عليها حين راقصها براون .. وقد كان ذلك مما تصفق له جوانبها وتهتز ، وإن أظهرت ضيقها من الطريقة التى عاملها بها أمام المدعوين .. ولكن الحقيقة أن عين الدكتور راضى .. العين الساخطة القلقة ، التى لا تعرف ماذا تريد ، كأنها دائرة بلا مركز .. كانت لا تقع إلا على الجانب السيىء للصورة .. الجو العارى العفن .. والخواطر المتشككة السوداء التى يبعثها فى نفسه .. وعندما زاره أحمد ماهر وحدثه ببساطة عن قلقه وحزنه ، واتضح أنه ليس على وفاق مع سامية ، ازدادت حيرة الدكتور ، وبدت له تلك الفتاة فى غموض الفلاسفة .. أو المجانين ..

كان يظنها رفضته لأنها عالقة بزميلها الشاب ، فإذا هو الآخر محطم النفس منها .. فما أعجبها ؟ وعندما لاح للدكتور أنه لا يعرف أى شىء عن وجهه الصحيح ، إنه لا يعرف حتى الشىء الذى يريده ، ورأى نفسه يوشك على الانهيار ..

قرر أن يعطى أعصابه إجازة ... أن يقابل نفسه فى مكان ليس فيه سواه ... مكان لا يعرفه فيه أحد . يراجع فيه موقفه ، ويسبر أعماق نفسه بعيداً عن أى مؤثر وقتى ..

كان الجو فى تلك الأيام الأخيرة من شهر مارس يتذبذب بين اعتدال الربيع وبرودة الشتاء ، وحرارة الصيف ، وطال به التفكير فى المكان الذى يجب أن يقصده : الإسكندرية .. أو الأقصر .. وكره أن يحتار فى كل أمر ، وأن يتردد أمام كل اختيار ، وأن تبدو حياته فى كل شىء بين بين .. لا هى إلى اليمين ولا إلى اليسار .. فحزم حقيبته قاصداً أسوان ، وفضلها عن الإسكندرية لهدوئها ، وبعدها عن معارفه وأصدقائه ، ومنى نفسه بنصف شهر لا شىء فيه غير سلام الصمت .

وقضى أيامه الخمسة عشر يصطاد السمك ، أو يزور آثار الشاطىء الشرقى ، أو مقابر البر الغربى .

واعتزل عاداته جميعاً ..

لم يدخن ، ولو للتسلية ، ولم ينزل إلى المشرب ، ولم يفكر فى دخول صالة الرقص ، ولم يسهر إلى منتصف الليل ، ولم يقرأ كلمة واحدة سوى الصحيفة ، ولم يستمع من الراديو إلا .. القرآن ..

كان يحس أن أقدامه ليست على الأرض ، وكان يحاول أن يثبت عليها . كان يحاول أن يمسك بحقيقة واحدة تعصم وجوده من الضياع ، وتحمى كيانه من التفكك ..

وقد اكتشف فى نهاية إجازته أن وزنه زاد ، وأن وجهه ازداد نضارة ، وبشرته رقت قليلا ، وسمرته التى أوجدتها الشمس أعطته سمة القوة والشباب .

وقد عزم ألا يفكر بقلق فى موضوعه ، وأن يترك الأحداث تملى عليه الحل المناسب بلا تحفز ولا تمزق . وحين انتهى إلى هذه النتيجة اكتشف أنه لم يصل إلى جديد حاسم .

لـكنه حين عاد التقى بما لم يخطر له ببال .

لم يجد ماريانا فى بيته ..

وسأل المربية عنها فقدمت إليه رسالة .. وليس فى الرسالة إلا اعتذار عن إساءتها إليه بوجودها معه ، وأنها قررت أن تصلح خطأها ، وأن تعيد تشكيل حياتها بما يتيح له تشكيل حياته على الوضع الذى يعجبه .. وتركت له ماسى .

وعندما ذهب إلى براون ليبحث معه المسألة ، اكتشف أنه هو الآخر غير موجود ، وأنه طلب إعفاءه من العمل فى القاهرة ..

كم حاول الدكتور راضى أن يتملكه شعور موحد .. أن يبكى ، أو يصرخ ويمزق ثيابه فى جنون ، أن يشعر بالإهانة الساحقة ، أن يشعر بالاشمئزاز من امرأته ، أو حتى من نفسه (أن يحتقر التى خانته مع حبيبها) ، أن يحتقر (نفسه) كرجل مغفل أو كرجل لم يكن كريماً مع امرأة غريبة عن وطنها ؟

كم حاول أن يتملكه شعور بالسرور ، لأن حريته عادت إليه ، دون أن يلجأ إلى العنف ، أو التصرف القاسى ، وأن وحيده ، بقى له ، وأنه سيد الموقف الآن .

لـكنه لم يكن موحد الشعور .. كانت هذه المشاعر جميعاً تتناوب على نفسه ، ولـكن ذلك لم يكن إلا لفترات وجيزة ، أشبه بومض النجوم الضاربة فى البعد ، أما إحساسه الدائم فـكان .. عدم المبالاة .

لـكن .. هل يدوم هذا الشعور ؟

كلا ..

لقد تحسس المـكان الخالى إلى جانبه فى السرير بعد ليلة واحدة ، وهو يتخيل فيه سيدة أخرى ، ويفـكر من تـكون ..

وأحس بندم يجتاح ضميره .. أبهذه السهولة تنسى ؟

وعاد يقول فى نفسه : « إنها هى التى تركتنى ، وما عاد بممكن أن تعود ، وماسى الصغير فى حاجة إلى أم جديدة » .

« اهتمى به وحده .. كفى غباء .. تصرخ »

كانت هذه الكلمات التى سمعتها سامية من أمها ، بعد أن أوضحت لها معنى انتهاء الدراسة الجامعية بالنسبة للفتاة ، كانت هذه الكلمات تلوح وكأنها أجراس الخطر .

لكن .. « بحق السماء كيف أتصرف ؟ هل أذهب إليه باكية نادمة أطلب الغفران ؟ هل أطيق ذلك أو أقدر عليه ؟ لو فعلت لغفر لى.. إنه شهم .. ولكن ذلك مستحيل .. هل اهتم بثيابى ، وتصفيف شعرى .. وابتسم له خاسـ

وأحست بقشعريرة تجتاح كيانها ، وشعور بالاشمئزاز يغمرها .. « لم أبتسم له أبداً .. كنت مرتبكة .. وكانت بسمة خوف وارتباك .. إلا أنه أحبها واستجاب لها .. ولم أعد قادرة على إرسال مثل هذه الابتسامة .. لا أدرى كيف أستطيع رسمها .. كانت طبيعية ، والآن .. وهذا الشعور يغمرنى .. لا أستطيع ..

لو أن فريده ترغب فى أن يعود أحمد إلى ، لفعلت ذلك دون تردد ، ولوجدت فى فنها ما يغطى الموقف » .

وفى يوم قالت سامية ، وهى توارى نظراتها بالتشاغل بعد القروش فى كيس نقودها .

— ما أخبار زكريا ؟

ظهر أثر المباغتة على فريدة ، إن سامية لم تسألها من قبل عن زكريا ، فما بالها اليوم تهتم بالحديث عنه ..

قالت فريدة ، وهى تحاول مضايقتها بهذا الإيجاز :

— على علمك .

— حقيقة .. ما أخباره ؟

— لا شيء . .

وتضايقت سامية ، وأحست لأول مرة أنها لن تستطيع أن تسكت متضايقة . . أن فريدة تستهين بها ، تظنها قطة عمياء ، تطيع ، وتصدق ما يملى عليها دون تفكير . . أن فريدة تتجاهل شخصيتها التي اعترف بها الجميع ، وتصفها بالعجز والخيبة والغباء . . وكورت سامية قبضتها ، وهي تفرك أصابعها بشيء من العصبية قائلة :

— هل انقطعت عن لقائه بعد خروجي من المستشفى ؟ ؟

وقاومت فريدة شهقة دهشة كادت تنطلق من بين شفتيها ، لكنها لم تستطع أن تكتم هذه الشهقة حين انطلقت من داخلها ، وهزت جسدها كله هزاً . . وحاولت أن تكسو ملامحها بمسحة عادية ، غير ساخرة ولا غاضبة . . ملامح لاتهتم ولا تسمع شيئاً يجذب الانتباه وقالت وإن تلعثم لسانها قليلا :

— من الذي قال لك أنني كنت أقابله ؟

— أنت . .

— هل تسخرين مني ؟ أظن أن الحديث في مثل هذا الأمر معك . . أنت بالذات . . لا مجال فيه للهذر .

— لست هازلة . . أنت التي قلت لي . . بغير لسان . . عيناك قالتا . . شفتاك . . ذلك الصدر المثير . . إذا . .

صاحت فريدة دهشة مما تسمع لأول مرة :

— سامية . . ماذا دهاك ؟ من أين أتيت بهذا الكلام ؟

قالت وهي لا تدري أتضحك أم تبكي ؟

— كلكم أغبياء استولت عليكم البلاهة حين تظنونني لا أعرف ما يدور حولي وصمتت لحظة ثم أضافت :

— قولى .. ألم يتخاصم أحمد وزكريا بسببك ؟

قالت فريدة بعناد :

— ولماذا لا يكون بسببك أنت ؟

— أنا ..

— نعم ..

— والله ما حدث ، ولن يحدث .. أنت عارفة .. حتى الذين بعثوا بالرسائل بدون توقيع تعرفينهم كما أعرفهم .. أصدقاء يحب بعضهم بعضاً ..

وضحكت ساخرة فى ألم ، وهى تعتصر نفسها فى الكلمات ..

— أنا مثل الوطن .. يحبنى الجميع ويعيشون فى صداقة بلا غيرة من بعضهم.. قولى لماذا تخاصما .

قالت فريده بلهجة جادة ، لتوقف سيل الاتهامات :

— أقسم لك أننى لا أعرف السبب .

— ولم تحاولى أن تعرفيه .

— ولم أحاول أن أعرفه .. قد سألت زكريا ..

— ها .. وهكذا كنت تقابلينه أيتها الخبيثة .. أكملى ..

وابتسمت فريدة فى استسلام وقالت :

— زكريا قال إن أحمد هو السبب واسأليه .

— وهل سألته ؟

— سألته أمامك .. ولم يجب ، ولم أسأله بعدها .

— لماذا ؟

— هل هو تحقيق ؟ لم أسأله لأنه لا شأن لى بهما .

— خطأ . . خطأ أن تقولى أنه لا شأن لك بهما . . إنهما صديقان ، ورفيقا دراستنا . . ونحن ضيوف على الكلية . . بعد أسابيع نرحل عنهما . . ربما إلى الأبد . . وحرام أن نتفرق وليس فى ذكرياتنا ما نسعد به . . زكريا وأحمد يجب أن يعود الصفاء إلى حياتهما . . إنهما طيبان ، وسيستجيبان لك . . وخاصة أن زكريا يحبك ، ولن يقاوم رغبتك . . وأحمد رقيق ولن يرفض أيضاً .

« الآن وضحت خطة سامية »

هكذا قالت فريدة فى نفسها ، ثم اتجهت إلى صديقتها قائلة :

— إننى لا أريد أن أدس أنفى بينهما ، فقد تكون الأسباب مما لا يجب أن نعرفه . . ثم إن الامتحان على الأبواب ، ولم يعد هناك مجال لمثل هذه الأمور . وأرادت فريدة أن تشغل صديقتها بحديث آخر ، فاصطنعت الدهشة ، وقالت :

— أحقاً ما تتهامس به الطالبات من أن زوجة الدكتور راضى تركته وعادت إلى بلادها ؟

فوجهت إليها سامية نظرة غاضبة لائمة ، وجمعت كتبها ، وقامت لتنصرف ، وقد همت ، وهى تقول :

— الامتحان على الأبواب يا فريدة ، ولم يعد هناك مجال لمثل هذه الأمور .

كان أحمد ما يزال يعانى إحساساً بالهزيمة ، يحس بأشياء كثيرة غامضة تقف فى طريقه ، وتعانده ، وتفسد عليه أهدافه الواضحة ، وإيمانه بمثله النزيهة . . أشياء تشككه فى قيمة الطريق الذى اختاره لنفسه فى الحياة .

وقد لاحظ بارتياب كيف عادت سامية من عطلة العيد . . لاحظ حيرتها

وارتباكها ، ابتسامتها المضطربة التى تطلقها ثم تستردها . ثوبها الجديد الذى صنعته على غير ما اعتادت .. ليس فيه الصدر المقفل ، والطول المسدل ، والبساطة الرشيقة المذهلة .. وهو وإن لم يكن متبرجاً ، فإنه ليس ساذجاً ولا بريئاً .. وتملكه إحساس بالأسى « إنها تتخبط .. لو أنها على صلة وثيقة بى لعصمتها .. ولأرضيت فيها الجانب الذى تحاول أن توقظه الآن » .

لكنه بعد فترة تفكر ، يتذكر فاطمة أخته ، وكيف انتهت الصلة الوثيقة بينها وبين رشدى بزواج متعجل ملهوف ، فيهتف بقلب ذبيح : « رحمتك يارب » وينصرف إلى كتبه .. إلى الحقيقة الوحيدة فى حياته .

وجاءته فريدة عقب انصراف سامية ، وقد انتعش فيها الأمل باستعادة زكريا ، بعد أن فشل معه سلاح التهديد بالانقطاع عن مقابلته فى النادى على ناصية الجسر ، ورأت أنها لو أفلحت فى إعادة زكريا إلى الاهتمام بها فى حدود العلاقة الواضحة فى الكلية ، فإنها تستطيع أن تنميها حتى الامتحان مما يدفعه إلى اتخاذ خطوة أخيرة .

— أنت رجل فنان ، ويعز عليك أن تمزق لوحة جميلة .

هكذا قالت فريدة لأحمد ، وهى ترمقه بدلال وود محبب . وتطلع إليها الشاب فى وقفتها الرشيقة ، وذراعها البضة تحتضن الكتب فوق الصدر الناهد ، ولكنه لم يلبث أن غض بصره .. « فاطمة أختى .. يا إلهى » واستطالت شفتاه بابتسامة حزينة .

ألا ترد ؟

— وماذا أقول يا فريدة ؟ أنت تطلبين محالا .. لقد خاننى .. إنه صديقك ، وأنا أحترمه من أجلك ، ولكنى أرى أن نرجىء هذا الأمر بعض الوقت .. الزمن يصلح أشياء كثيرة .. دعى الجرح يلتئم فى سلام .

وبعد لحظة قال مستأذناً :

— بعد إذنك .

— هكذا بسرعة .. أصبحت تملى ..

— كلا .. أنت عزيزة على ، وأنا أحترمك .. أنت تعرفين ذلك .. ولكنى على موعد مع رئيس تحرير الفكر .. فى هذا العدد مسرحيتى الثالثة .. ربما اتفقنا على نشر مسلسلة ..

-- مع السلامة .. وأتمنى لك التوفيق .

وانصرف أحمد لا يكاد يفكر فيما سمعه من فريدة ، بل ولا يكاد يفكر فى سامية ذاتها . لقد رأى أن الطريق إلى أى شىء هو أن ينال ركائز قوية لحياته .. ركائز مدعمة لا يطعن فيها أحد .. وأصبح التفوق هدفاً واضحاً أمامه .. هدفاً وحيداً .. فوجه إليه كل طاقته .

وفى دار مجلة الفكر قابله الرجل ذو الابتسامة اللطيفة المتحفظة ، ببشاشة ، وجلس أحمد فى صمت ، وشرب القهوة ، وشكر للأستاذ شافعى حرص المجلة على إبراز مسرحيته فى ثوب جميل . فقال الأستاذ :

— إننا لا نحابيك .. نحن نحترم المحاولة الجادة ، ونتنبأ لك بمستقبل طيب .

— آه .. هل سمعت يا سامية .. كل الناس إلا أنت .. أنت وفاطمة .. حليفتان على تعذيبى .. و .. شكراً يا سيدى .. هذا حسن ظن .

وعاد الرجل يقول :

فقط لى ملاحظة واحدة .. فى مسرحيتك الأولى يشع بريق الأمل ، وليس مفعول الأمل ينصب على النهاية التى تختارها للحدث الذى تصوره فقط ، ولكنه أيضاً يبدو فى اختيارك للكلمات .. كأنما هى تنبض بالحياة ، كأنها تتحرك ، وتتحدث .. ولكن مسرحيتك الأخيرة .. فضلا عن النهاية المتشائمة التى انتهت

إليها ، فإن ذلك وضح أيضاً فى اختيارك الكلمات . كانت كابية حزينة عجفاء .. فرق كبير بين الخيول التى تجر عجلة فارس ينطلق بها إلى المعركة ، والخيول التى تجر تابوت ميت .

قال أحمد وهو لا يستطيع التغلب على أساه :

— هذا حق يا سيدى . . ولكن ذلك سيجرنا إلى مناقشة صدق التجربة عند الفنان . .

فرفع الأستاذ شافعى حاجبيه وكأنه يعترض ، وقال بحماس وهو يشير بأصبعه تجاه الشاب :

— أنا لا أعارض صدق التجربة عند الفنان ، بل أحترمه ، وأتمسك به فى حدود . .

— كيف ؟ . .

— نعم .. يجب أن يكون صدق التجربة محاطاً بسياج من الهادفية .. ويجب أن يكون الهدف بنائياً ومتفائلا . .

قال أحمد بلهجة مهذبة :

— ألا ترى أن هذه حائل دون حرية الفنان . وانطلاقه على سجيته . إن ذلك سيجعلنا ننزلق إلى أدب القوالب ، الذى سيصير بالتكرار أدباً ممجوجاً يدعو للملل .. لندع كل الزهور تتفتح كما قال بعض النقاد ، أنت بتفاؤلك ، وأنا بآلامى وتشاؤمى وبرمى بالحياة . . . .

احتبس صوت أحمد فى الكلمات الأخيرة ، فسكت فجأة حتى لا يفضحه انفعاله ، وتنبه الأستاذ شافعى ، فأقبل على الفتى فى إشفاق قائلا :

— هل تعانى مشكلة يا بنى ! إننى مثل أبيك .

— شكراً .. إنها مشكلة عادية .

— نقود ؟

— كلا .. ليس لها جانب مادى .

فالتزم الأستاذ جانب الصمت فترة ، ثم بدا له أن يهون الأمر عليه ، فقال بعطف شديد يبدو غريباً على سماه المتحفظة :

— أنت شاب وتستطيع أن تسلو ، وسلنسى وتحب غيرها ..

— ما أظن ..

— لا تؤكد فلست أولهم .. لكن لماذا لم تستجب لك ؟

— إنها من طراز غريب .

فأكمل الرجل مبتسما بتحفظ :

— وأنت على ما يبدو مغرم باكتشاف الأشياء الغريبة .

وصمت لحظة .. ثم أكمل :

— أنت شاب موفق ، ولك مستقبل طيب ، وأسر كثيرة محترمة ترحب بك صهراً ، لا تجعل هذا الأمر يشغلك ، وإذا رأيت أن تجعلنى أباك ، وتستشيرنى فى هذا الأمر ، فإنى أسعد بذلك .

ولاحت فكرة لأحمد ، فقال على الفور :

— شكراً يا سيدى على هذا العطف .

— أنت أهل لكل خير ، وكم يسعدنى أن أراك معى دائماً ، وبعد أن تتخرج .. شهرين تعال لتعمل معى فى المجلة .. وبعدها نبحث مشاكلك العاطفية .. وعندى دواؤها ...

قال ذلك وابتسم ، فابتسم أحمد خجلا ، وصافح الرجل وانصرف يتعثر فى ارتباك ، وهو يحاول أن يستعيد كل ما سمع .

فى تلك اللحظات كانت فريدة تجلس أمام مكتب الدكتور راضى ، وقد توهجت وجنتاها بالدم الثائر ، وعيناها المكحولتان ناعستان ، وأصابعها تقبض برقة على مقبض حقيبتها . . . والدكتور . . وقد استعاد نضارته ، صار فى ثياب الصيف الخفيفة على صورته التى عاد بها من أوروبا منذ أكثر من عامين .

قالت فريدة وهى لا ترفع إليه عينيها :

— كيف حال ماسى . هل هو بخير .

وتساءل الدكتور فى نفسه « لماذا لم تسأل عن زوجتى ، ترى هل عرفت ماحدث . لا شىء فى هذا الوطن العزيز يظل سراً . . » وحدق فيها برقة ، ثم قال وهو يرفع نظارته عن عينيه :

— إنه بخير . . ويسأل عنك .

قالت باسمة :

— بلغه تحياتى . . إن عندى له عروساً جميلة . . ابنة أختى . .

فقال الدكتور :

— إذا كانت العروس فى جمال خالتها فريدة ... فإننا نرحب بها .

واكتسى وجهها بحمرة قانية . وعندما همت بالانصراف ، احتضن الدكتور يدها برقة ، واستسلمت له فلم تعجل بانتزاعها ، وإنما انسلت برفق ، وقال الدكتور بصوت كأنه همس :

— أشكر لك سؤالك يا فريدة .

وعندما كانت تنصرف . . شملها بنظرة اهتز لها كيانه كله .

كان أحمد يذاكر بكل قسوته وضيقه ، وأمله فى أن يتفوق .. أن يكون معجزاً أن يصل إلى درجة لاتقبل المناقشة .. أن يكون بحيث يتحسر الذين استهانوا به لحظة فى حياتهم . وكان زكريا يذاكر بكل توجسه وخوفه ، وأمله فى أن يفلت من القبضة الرهيبة . . . قبضة الرسوب التى تهدده بالإبقاء عليه فى الكلية وحيداً من كل رفاقه . .

وقد فكر أحمد فيما سمع من الأستاذ شافعى ، وربما راح فى بعض الأحيان يتخيل أن له بنتاً . . . فى السادسة عشر .. مثلا .. كلا .. فلتكن أكبر قليلا حتى تتاح لها فرصة دخول الجامعة ولو لسنة أو سنتين .. نعم .. يجب أن تكون جامعية . . هكذا . . . . . الجامعية للجامعى ، والجامعى للجامعية . . ولكن لماذا الإصرار على هذا الشرط ؟ أمن الضرورى أن تكون قد وقفت فى ظل الأشجار مع زملائها ، وتبادلت معهم الكتب والمذكرات واشتركت فى نشاط الأسرة ؟ محال أن تكون جامعية ، ولم (ترتكب) هذه الأشياء ، وهى أهون الشر . . يكفى أن تكون (دبلوم فنى) . . ست بيت .. نعم . . ست بيت متفرغة فعلا لأعمال البيت ، ولى . .

ثم يضيف ساخراً فى نفسه « إننى رجل (خردة) فى حاجة إلى تجديد وترميم يكفى لاستهلاك عمرها كله .. ست بيت أولا . . لا تعرف أرسطو وتجهل أعمال التريكو ، ولا تلهيها قراءة توفيق الحكيم عن معرفة كيف تعنى بالطفل .. الطفل ! ! »

ما أبهى ذلك . . ودرت ضلوعه حناناً لأم وسيمة رقيقة الملامح . . أمومة مبكرة تحمل طفلا صغيراً . .

وعاد يتخيل الأستاذ شافعى ، ويتخيل صورة ابنته على ضوء ملامحه ، فاهتز قلبه

بالرضا . . ورأى الطفل الصغير ، وقد جمع منه ومن الأستاذ شافعى أطيب ما فى قسماتهما فارتاحت نفسه ، وخفق قلبه بحنان فياض .

لكنه لا يلبث أن يثوب إلى نفسه ، ويسترد وعيه ساخراً من هذا الشرود ، الذى يهزأ به ، ويجره إلى التفكير فى أمر لا يعرف كنهه ، وعجب لنفسه كيف تحول وتبدل فى رأيه . . كيف رفض أن يتخذ خطوة إيجابية نحو سامية ، ما لم توافق على أن تلتقى به على انفراد ، وتتيح له معرفة شخصيتها الحقيقية ، كيف يقبل الآن أن يناقش مسألة زواج بفتاة لا يعرف أى شىء عنها إلا ما لمح به الأستاذ شافعى ، وقد يكون واهماً فى استنتاجه ؟ وراح يلعن قصة حبه الفاشل الذى أعطاه هذه الحساسية المفرطة تجاه هذا الجانب من حياته .

وتذكر كلمة أمه فى معرض التمهيد لفجيعته بما حدث لفاطمة « أنت يا بنى لا تعرف كيف تمضى الحياة فى البيوت . . ليس كل العلم فى الكتب » . .

ما أصدق هذه الكلمات وأقساها . ولكن مسألة الأستاذ شافعى يجب أن تجمد إلى ما بعد الامتحان . .

وبقسوة المدرب الذى يريد أن يتخرج على يديه أعتى الفرسان . . بمثل هذه القسوة الحذرة المركزة . . كان أحمد يتعامل مع الكتب .

وكان زكريا يفكر فى سيدة العوامة ، كيف استعبدت غرائزه حيناً ، وكيف عرف معها أن هناك ألواناً من المتعة قد تكون أروع من متعة الفكر حين يلتقى بالفكرة الطريفة أو التفسير المتسامى . . ثم يفكر بحسرة كيف كان الطرف الغارم الذى وقع عليه العقاب بلا ذنب جناه . . ويفكر كيف ظل يتجاهل فريدة ، التى خلقت صداقة أحمد من أجل الوصول إليه ، وتظاهرت بالليونة والتجاوب ، وأتاحت الفرصة له ليقول لها ما يشاء ، فلما أعطاها ما أرادت .... قابلها وحدثها فى الحب ، وأظهر الهيام بها ، صارت سيدة الموقف ، ورفضت أن تستمر على طريق لا ترى له نهاية . . وأشارت إلى الحل الوحيد الذى تراه . . ولم تتراجع . .

وفكر فى صديقه .. هذا الصديق الذى رزق حاسة القطط ، وجسارة أصحاب المبادىء فتشمم الطريق إلى انحرافه ، ولم يغض عليه .

وتفكر فى الجبل الأشم .. الذى تتحطم الأمواج عند سفحه ، لكن قمته البكر ما تزال غفلا لم تنطبع عليها بصمات بشر .. سامية .. الشينارو .. ما أصدق هذا الاسم الذى اختاره أحمد .. اسم بارجة الهجوم على بيرل هاربر .. اسم لم يقهر .. شاهدها فى فيلم سينمائى يوماً ، فقال هذه «سامية الرواية» دوخت العدو والصديق .. وبكل خوفه من الهزيمة ، ورغبته فى اللحاق ولو بالعربة الأخيرة .. كان يعود إلى الكتاب ..

وتدافعت الأيام لاهثة نحو يوم الامتحان ..

ونجح الأربعة .. وكان أحمد ماهر فى رأس القائمة .

فى ذلك اليوم الذى التقى فيه بالنتيجة ، أحس بقلبه يكبر ويكبر حتى شمل كل الوجود ، وبنفسه تتسع وتتسع حتى تصفح عن كل ما ارتكبه الزمن معه من أخطاء لم يمنعه ما حدث بينه وبين زكريا أن يذهب إليه مهنئاً ، وأن يلقى بنفسه بين أحضانه .. أمام زملائهما المتناثرين فى الفناء .

وصحب زكريا من يده ، وذهبا فهنآ فريده وسامية ، فى كلمات تقليدية موجزة .

وقال زكريا موجهاً حديثه لفريدة ، وهو يخلط الجد بالهزل :

— الحق أن (مبروك) هنا ليست بذات قيمة .. ولا تليق بين الأصدقاء ، ولذلك فإننى مصمم على أن أقولها لك فى بيتكم .

فقالت فريدة ، وهى توجه إليه نظرة جانبية ساحرة :

— تستطيع أن تفعل .

فقال مازحاً :

— ألا أقابل بالضرب ؟

— كلا . . كان ذلك قبل أن أحصل على الليسانس . . أما وقد نلت وثيقة الاستقلال ، فإنى أبسط عليك حمايتى .

وضحكوا جميعاً . . ربما ضحكت سامية لأول مرة . . وقال أحمد مجارياً وهو يضحك :

— مرحى باللغة الجديدة ، ولكن حذار من الإصرار على الخشونة وإلا . . رحمة الله على الأنوثة .

وأضاف زكريا بخبث :

— وبالطبع بعد أن نشرب الشربات عندكم ، سنأخذك ويتوجه ثلاثتنا لتهنئة سامية .

فأفلتت من سامية شهقة صغيرة ، واحمر وجهها ، وهربت بنظراتها ، التى ظهر فيها الإعياء لكثرة المذاكرة ، وإرهاق انتظار النتيجة ، وقالت :

— إنى ضيفة على خالتى . . وبيتنا ليس هنا كما تعلمون .

وردد أحمد فى نفسه : وبيتنا ليس هنا كما تعلمون ؟

وردد أحمد فى نفسه : وبيتنا ليس هنا كما تعلمون ما تعنى ؟ كلا . . ليس وقته . . حتى يتضح الطريق . . السير ممنوع حين نزول الضباب . . والإصبع الخالية من خاتم الخطبة تفسح الطريق عند الناس لأشياء كثيرة قد لا تخطر على بال .

ومال زكريا نحو فريدة ، وقد كسى وجهه بملامح جادة ، وقال هامساً وهو يصوب إليها نظرة ذات مغزى :

— حقاً . . هل أستطيع أن أحضر ، ومعى أحمد ، لتهنئتك فى البيت ؟

قالت دون أن تلتفت إليه :

— نعم . . ولكن على أساس .

وابتلع زكريا ريقه . . وسكت .

وعادت فريدة تقول موجهة حديثها إلى أحمد :

ــ سمعت أنك ستعمل فى مجلة الفكر .

قال بغير اهتمام ، وكأنه ينفض رماد لفافة مشتعلة :

كلا . .

ــ لماذا ، وقد كانت أملا ؟

فسحب أحمد نفساً عميقاً ، ووضع يديه فى خاصرته ، وهنا ضحكت فريدة، وتجاوب معها زكريا ، وابتسمت سامية ابتسامة لم تكتمل . .

وشملهم أحمد بنظرة ، وتطلع إلى نفسه بارتباك ، ليكتشف ماذا يضحكهم ، وهنا قاطعته فريدة قائلة :

ــ انتهينا . . لقد أجبت على السؤال . .

ــ كيف ؟

ــ وضعت يديك فى خاصرتك . . ألا يكفى هذا ؟ لقد كبرت عليها .

فقال وهو يحاول أن يوارى ابتسامة إعجاب بلباقتها ، ويكسب حديثها جداً بتعمده :

ــ هذا حق . . بعض الآمال ترتبط بظروف معينة .

ولاحظ وجه سامية ، فوجدها مستغرقة فى الاستماع إليه . ولذ له أن يضيف :

ــ لاأريد أن أقول إنها كانت آمال وقتية ، أو تافهة . ولكنها ترتبط بظروف معينة ، فإذا نجحت فى وقتها دام نجاحها ، ونمت وكبرت ، وفرضت نفسها ، وإذا أفلتت الفرصة فلا أحد يتنبأ بما يجد من أشياء . . ربما لم تهب الريح المواتية مرة أخرى .

وفهم الثلاثة كل شيء .

وقالت فريدة :

— هل معنى ذلك أننا نتنكر لآمالنا الفائتة ، لأننا نعتقد أننا أكبر منها ؟
فقال نافياً بشدة :

— كلا .. لكنها تظل فى مجال القداسة فحسب .. المجال السامى الرفيع ، الذى لاينزل إلى مستوى الحياة الواقعية .

وقال زكريا مازحا :

— مبروك .. أصبحت تحدثنا بلهجة الأساتذة .. أنت لها والله .

فأشار أحمد إلى فريدة ، وهو يجاريه فى مرحه :

— وأنت لها أيضاً إن شاء الله .

فعلا وجه فريدة حمرة محببة مثل الشفق ، أما سامية فكانت لا تكاد تحس بما يجرى حولها .

وقال زكريا ضاحكا ، وقد بسط يديه نحو السماء ، وبصره شاخص إلى فريدة :

— ربنا يسمع منك .. وفريدة أيضاً ..

وذهب كل فى سبيله .

وفى اليوم التالى أتت فريدة إلى الكلية لتسحب أوراقها ، وكان فى أصبعها خاتم الخطبة ..

— من ذلك اللص الذى سرقنى؟

قالها أحمد وهو يهز يدها بعنف مهنئاً ، ويتطلع إلى الخاتم فى أصبعها .
فقالت : بهمس وهى لا تستطيع أن توارى فرحتها :

— صه .. اخفض صوتك .. فلو أنه سمعك .

وأشارت إلى حجرة مكتب الدكتور راضى .

— غير معقول ..

— بل هو المعقول .. إن سيارته لحسن الحظ ليست هنا ..

ومن بين ضحكاتهما ، قالت فريدة موضحة :

— لقد جاء أمس مهنئاً بنجاحى ، ثم انتحى بوالدى ركناً .. وتحدثا قليلا .. وحدثتنى والدتى .. ولم أتردد .

— مبروك .. أنت أهل لكل خير .

— عقبى لك .

وأضاف ضاحكا وهو سعيد برضاها :

— سبقتنى إلى الدكتوراه .. يا .. شيرمان .

قالت وعيناها تشعان بالسعادة :

— أخذتها من منازلهم ..

* * *

عندما تقدم أحمد بطلب ليسافر فى بعثة ، لم يكن يظن أن الاستجابة ستكون سريعة إلى هذا الحد . وقد كان الدكتور راضى وراء تزكيته وتشجيعه .. بل إنه حمله رسائل لمعارفه فى انجلترا ، ليعاونوه فى الحصول على المسكن المناسب ، والمدارس التى تساعده على إجادة اللغة .

وكان أحمد مشغولا بأيامه المقبلة عن التفكير فى كل ما خلف وراءه من أشياء وذكريات عزيزة عليه ، حتى لقد شغل عن مجرد زيارة الأستاذ شافعى ، ومواصلة نشر مسرحياته ذات الفصل الواحد ..

كان ينظر إلى كل ذلك وكأنها خيالات وأشباح ، تبدو له عند سفح جبل شاهق يعتلى قمته .

وكان زكريا يشاركه نشاطه ، ويرافقه فى تنقلاته بين مختلف الإدارات لإعداد الأوراق اللازمة ، وزيارة المحال التجارية لشراء الحقائب والثياب والتذكارات التى سيهديها لمن يتعرف عليهم هناك .

وانضمت أمه إلى ابنتها فى بيت رشدى ، وودعها وقلبه يغفر لها ولأخته ما لاقى بسببهما من عذاب . ولأول مرة لم يشعر بحقد نحو رشدى . . كيف . . وقد ترك عنده وديعته الوحيدة الغالية فى وطنه . . أمه وأخته . .

وبدأ يدور على بيوت أساتذته وأصدقائه مودعاً . . وعندما التقى بالدكتور راضى فى حجرة مكتبه وجد صورة الحاج موسى بالهالة البيضاء ، التى تحيط بوجهه من كل جانب : العمامة واللحية الشهباء فى بياض القطن ، ونظرة مؤمنة عميقة نافذة تتجه إلى الجالس كأنها تثبته فى مكانه . .

وهنا تذكر الصورة التى تقابلها . . صورة ماريانا والدكتور فى ثياب التزحلق . . والجليد تحت أقدامهما ، ونار غرام مشبوب فى أعينهما . . لكنه لم يجدها . .

كانت صورة أخرى بنفس الحجم قد وضعت مكانها . . فيها فريدة ، فى ثوب أنيق بسيط ، وعلى فمها ابتسامة مشرقة سعيدة ، وأمامها عربة أطفال صغيرة . . وماسى الصغير متكىء على حافتها ، وقد أرسل نحو أمه الجديدة نظره ضارعة . وعندما صافح الدكتور مودعاً ، هتف الدكتور بفريدة ، أن تأتى فتصافح زميلها . .

« سبحان مغير الأحوال »

هكذا كان أحمد يهمس لنفسه ، وهو يغادر المنزل الأنيق الصغير ، ذا الحديقة الفسيحة ، وهو يتذكر كيف دخل هذا البيت ، وكيف غادره منذ أربعة أشهر . . أو تزيد قليلا . . . .

وبعد أيام كان على رصيف الميناء ثلاثة حقائب كبيرة . وإلى جوارها أحمد ، وأمه وفاطمة ورشدى وزكريا . .

وبدأ الركاب يصعدون إلى السفينة .

وقال زكريا لأحمد :

ــ إن اللحظات الأخيرة من حق والدتك ، ومع ذلك اسمح لى أن آخذك لنفسى دقيقة واحدة . وانتحى به جانباً ثم همس :

ــ أحمد .. حذار .. أنت تذهب إلى هناك مسلحاً بتجربتين .. الدكتور .. وسامية .

وقال أحمد بامتنان :

ــ اطمئن .

ــ ستكون رائعاً كما كنت دائماً .

ــ وأنت أيضاً .. اهتم بنفسك وتزوج .. تزوج لتنتهى مشاكلك .

وضحك زكريا قائلا :

ــ عليه اللعنة .. الدكتور راضى .

قال أحمد معزياً ومهوناً :

ــ لا تأسى على ذلك .. الفرص كثيرة .. ونحن نتطور ، وتختلف نظرتنا للأمور حسب الظروف .

ــ ليس ذلك ما خالجنى ، ولكنى تذكرت قوله : إن الزواج لا يصلح نهاية للمسرحية ، لأنه بداية للمشاكل ، وليس نهاية لها .

وضحك الصديقان فى صفاء ، وقال أحمد بين ضحكاته :

ــ إذن .. ابدأ مشاكلك ..

* * *

وبين الدموع والنحيب والبسمات ، أطل أحمد على أسرته من فوق ظهر الباخرة التي بدأت تتحرك .

وتبادلوا التلويح بالمناديل البيضاء . . حيناً ، حتى اختفت معالم أجسام الركاب المحتشدين فوق السطح . . فبدأ المودعون في الانصراف وسلمت الأسرة على زكريا وانصرفوا .

وظل بمفرده واقفاً ، يرمق السفينة التي حملت صديقه وهي تضرب في الزرقة الصافية ، حتى صارت أشبه بنقطة سوداء تتمازج حيناً مع زرقة السماء ، وأحياناً مع زرقة البحر حتى ذابت تماماً . . وغابت عن ناظريه . .

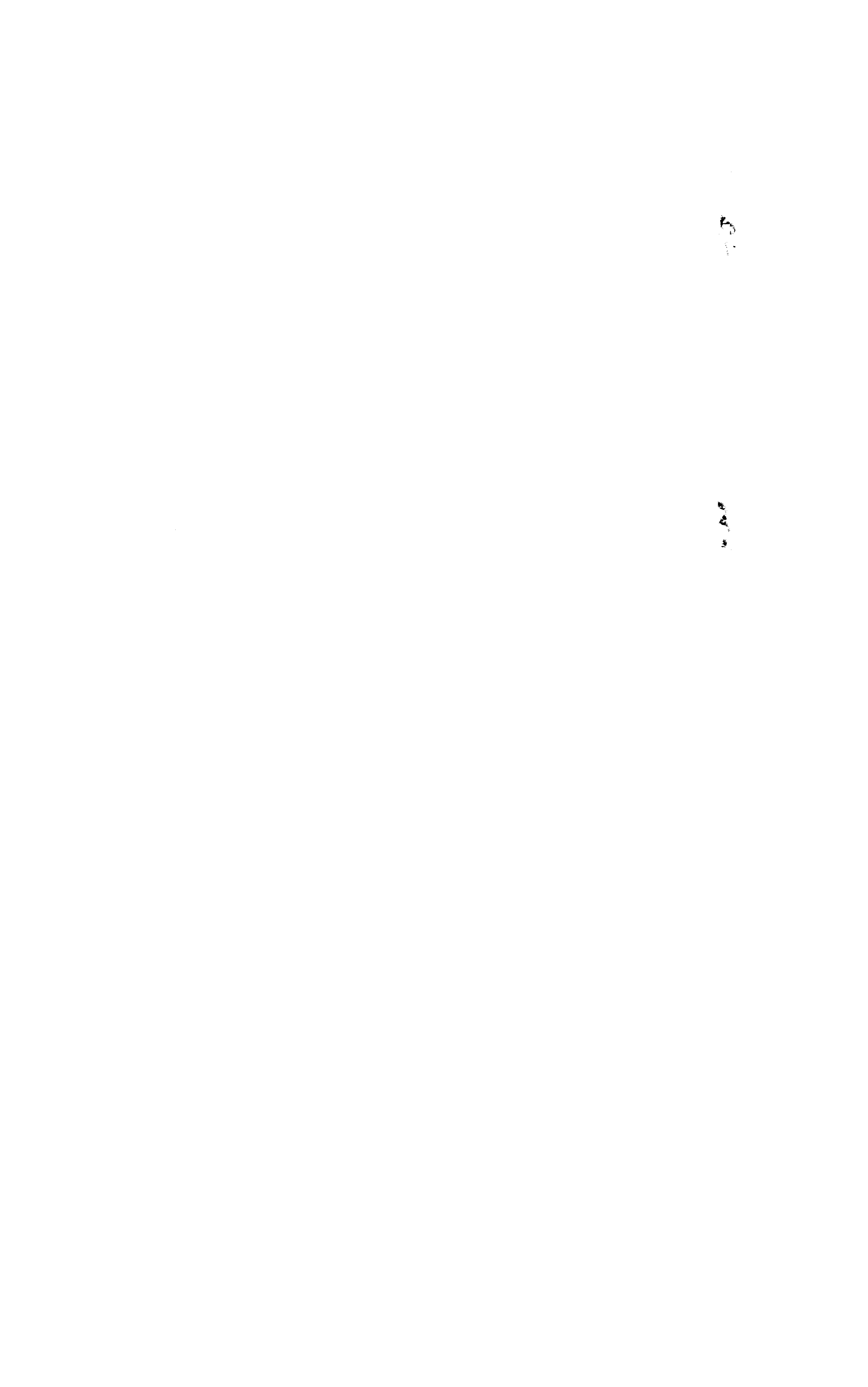
وهنا رفع كفيه ومسح بهما على وجهه وكأنه مستيقظ من نعاس ، يحاول أن ينفض عن نفسه الكسل ، وهتف في أعماقه هاتف :

« الطريق الآن مفتوح إلى والد سامية » .

واستدار خارجاً ، وعلى فمه ابتسامة لا لون لها . ومضى خطوات على رصيف الميناء متجهاً إلى باب الخروج . فاستوقفه الحارس قائلا :

— معذرة . . باب الزوار قد أغلق . . تستطيع أن تخرج من باب العفش . .





المطبعة العالمية ١٦ ، ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة